شربل داغر

ابنة بونابرت المصرية

رواية



شربل داغر

ابنة بونابرت المصرية

رواية



المركز الثقافي العربي

الكتاب

ابنة بونابرت المصرية

تأليف

شربل داغر

الطبعة

الأولى، 2016

عدد الصفحات: 288

القياس: 14 × 21

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-822-0

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz.casablanca@gmail.com

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca_casa_bey@yahoo.com

من «دفاتر» جولي بييزوني

(1815-1811)

الفصل الأول

جولي تنكبُّ على نفسها

هكذا وصلتُ إلى «الدفتر» بعد طول ضياع وتردد. أقفُ أمامه مثل بيتٍ آخر، من دون أن أطرق على الباب. قررتُ الإخلاص له بعد اجتيازي صحارى عديدة من دون دليل. هو، على أي حال لا يخون أبداً؛ ينتظرني متى أشاء، بمجرد أن أنكب على طاولتي الصغيرة، التي خصَّصتُها منذ أيام لجلساتي الحميمة: بيني وبين نفسي، من دون وسيط، من دون شريك، غير ريشتي ومحبرتي.

الغريب هو أنني بتُّ أستحسن الجلوس على هذا الكرسي، وجهاً لوجه مع الحائط، بدل جلوسي السابق وراء النوافذ الثلاث التي تفضي، من جهاتها المختلفة، على «شارع الكانوبيير». ما كنتُ ألتهي به من مناظر بات لا يثيرني كما في السابق، حين كنت أرى إلى المارة صاعدين من المرفأ، أو نازلين إليه، ما كان يجعلني أرافقهم في خطاهم المختلفة، في أزياء من كل جنس ولون، من دون أن أكمل طريقي مع أيٍّ منهم.

هذه الرحلات لن أقوم بها، لا معهم، ولا معه. حتى زيارة نابولي القريبة لم تَعُد ممكنة ما دام أن خطاي انفصلَت عن خطى السيد جوزف فنسان بييزوني، عدا أن انفصالنا بات معروفاً من عائلتَينا، ومن جيران كل واحد منا: هو في بيته معها، وأنا وحدي

في شقتي قرب «الميدان». ما بقيَ لي لا يتعدى الانتقال إلى مدينة آكس أو إلى قرى مجاورة. في انتظار ذلك اتفقتُ مع دفتري على انعقاد جلستنا كل صباح، بعد الفطور وقراءة جرائد الصباح، فلا يعكرها وجود أحد، حتى إن عاملة التنظيف - في المرة الوحيدة اليتيمة في كل أسبوع - لا تبلبلني، ما دام أنها لا تفقه أي شيء مما أكتب.

دفتري سفينتي، لكنني لا أنتقل إلى ضفاف جديدة، بل إلى ما سبق أن عايشتُه وشهدته بنفسي. أعود لكي أُدوِّن ما حدث، ما بقي في الذاكرة، ما بات جديراً بالحفظ. غيرها من الأحداث يتداعى مثل أوراق الأشجار المتساقطة من على جانبَي الشارع العريض، فتنتهي في مدخنة أو في عربة نفايات. قررتُ أن يكون دفتري محفظة، مثل خزانة الصور الثابتة التي تفرجتُ عليها، وأمتعتني، لما وقعتُ عليها في أعياد السنة الماضية: كان العالم يأتي إليَّ... غير أنني لم أبالِ بصورها هذه السنة، على الرغم من أنها أشعرتني بألفة قريبة من مناظر المدن التي تتالت فيها. هذه الصور قد تُفرح الصبية التي تتشوق لرؤية باريس البعيدة، أو تولون القريبة، لأول مرة، أما أنا فقد وجدتُني مثل بلهاء مُلزَمة بإبراز دهشتها وإعجابها بما ترى، فيما كانت الصور لا تُحدِث فيها أي شعور من هذا القبيل. دفتري، بل ربما دفاتري - من يدري؟ - جديرة أكثر بمثل هذا الانصراف، بمثل هذا الانكباب الذي استرعى انتباه عاملة التنظيف يوم أمس، إذ اقتربت مني ظانَّة أنني كنتُ ملتَمَّة على جسمي، غارقة في البكاء، مثلما وَجَدتني قبل أسابيع. إلا أنها تراجعت ما أن وَجَدتني من دون دموع، متحققة ربما من كوني أثبت نظراتي في الدفتر المفتوح أمامي

من دون أن أُدوِّن فيه أي لفظٍ. لستُ حزينة إلى هذا الحدِّ، إلا أن مشاعر غضب خفيف تتسلسل إلى مسامي بسهولة، ما دام أن حريتي المكتسَبة تخفف ما عرفته من اضطرابات مع السيد بييزوني، من دون أن تبددها تماماً. ما أرادَه مني حصلَ عليه، من والدي خصوصاً، قبل أن يستعيد، مع والده وأخيه، مكانتهم المهدورة في مملكة نابولي.

أقيمُ، اليوم، في بيتي، كما لو أنني لم أتزوج في السابق، ولم أنجِب قط.

أضعُ دفتري أمامي للأسبوع الثالث على التوالي من دون أن أكتبَ فيه شيئاً، غير أنني جلستُ ساهمة في أوراقه البيضاء، تائهة أو سائحة، مثلما حدث لي قبل سنوات في السفينة التي أقلّتني من نابولي إلى مرسيليا، لما تحققتُ من أن عودتي إلى مدينتي مختلفة هذه المرة: وقفتُ يومها على مقربة من ربان السفينة، فيما كنتُ أشعر بمَيَلان السفينة المتمادي، أشبه بحياتي التي تعصف بها أمواج عاتية من دون أن أنجح في توجيهها. ذلك أن السيد بييزوني كان هو الربان بطبيعة الحال، وكنتُ أتنقل معه حيثما تذهب به مهماته العسكرية، أو غرامياته، كما اكتشفتُ مؤخراً.

عدتُ إلى مرسيليا بصحبة ابنتي، من دونه، هو الباحث عن أمجاد عائلته في غبار المعارك والأوراق الثبوتية، والباحث أيضاً عن ستائر جديدة تُخفي علاقته الغرامية بزوجة أحد النبلاء، القريبة من ملك نابولي. هذا ما اكتشفتُ بالصدفة في جيب بزته العسكرية، بمجرد وصولي إلى شقته: قصاصات ورق صغيرة تُشير إلى يوم وساعة بخطين مختلفين، مع الإشارة في ورقة وحيدة إلى اسم:

«الجنة الأرضية»، الذي ما لبثتُ أن عرفت أنه اسم فندق في وسط نابولي. بعد أيام على وصولي، وبعد تأكُّدي من حقيقة اسم الفندق، رابطتُ فيه تبعاً للمواقيت المكتوبة، وإذا بي أقع عليه داخلاً إلى الفندق (فيما كنت أتلصص عليه من وراء طاولة في مطعم الفندق المفضي على مكتب الاستقبال)؛ رأيته يتوجه إلى عامل الاستقبال مطالباً بمفتاح غرفة، مكتفياً بتبادل عبارات الترحيب المقتضبة. ثم وقع نظري على سيدة تدخل بدورها إلى فسحة الاستقبال وتتجه إلى الدرجات المفضية إلى الطوابق والغُرف، من دون تحية أحد، شادَّة على المنديل الذي يغطي جوانب من وجهها... يومها لم أنتظر في الفندق، ولم أتوجه إلى بيتهما الغرامي، بل مضيتُ أمشي وحدي في الشوارع المحيطة من دون وجهة محددة، فيما كان رذاذ خفيف يلفح وجهي لكي يصاحب الدموع التي كانت تتساقط بنعومة أذهلتني. الغريب هو أنني كنت هادئة لما واجهتُه بالحقيقة في المساء... والأغرب هو أنه كان أكثر هدوءاً مني؛ أخبرني حتى باسم محظيته من دون أن أطلب منه ذلك... اعترفَ بسهولة، من دون ضغط أو دليل!

كان زواجنا قد انتهى بإدراك الاثنين من دون أن يفاتح واحدنا الآخر، أو أن يُقدِم على مطالبته بإتمام معاملات الطلاق. لعلّه سيكون سريعاً مثل زواجنا. فقبل الزواج لم ينتظر الكاهن فترة طويلة لتعيين موعده، ولم يطلب الإعلان عنه في أكثر من كنيسة، مثلما جرت العادة. لعلّ الكاهن خاف من أن إعلاناً مماثلاً، في أكثر من كنيسة، قد يكشف وجود إحداهن، وهي تجرُّ وراءها عدداً من أطفاله الشرعيين وغير المعترف بهم، فتُبطل بذلك زواجنا. لن يتأخر الخوري في إجراء الطلاق، مثلما سرَّع في حصول الزواج، ما دام أن والدي شاركَه، إن لم يكن دعاه إلى التعجيل في الحالتين.

دعاني القبطان يومها إلى شرب كأس معه، فلم أمانع. دعاني إلى أكثر من ذلك، لكنني لم أذعن له، فيما كنتُ أتباهى في سري بدعوته، لما انتقلتُ فوق الجسر الواصل بين السفينة والمرفأ. أوَجدني جميلة لكي يفاتحني برغبته، وأنا لست مثيرة إلى هذا الحد؟ أتكون فتحة الثديين المثيرة هي التي نادته، فما بانَ ترهلهما، ولا كوني بلغت الأربعين من عمري، وأرضعتُ ثلاثة أطفال؟ أم أنه وجدني تائهة مثل ثمرة مرشحة للسقوط في أول مقصورة؟

نقلتُ دفتري معي إلى فندق «القديس بطرس وروما» من دون أن أعلم سبباً لذلك. هذا ما أُقدم عليه للمرة الأولى. بقي في جزداني من دون حراك، مثل رفيق صامت ودافئ. أثناء العشاء وجدتُ السيد ريمون، صاحب الفندق، يصرُّ على بقائي إلى جانبه، وهو حرٌّ في ذلك ما دام أنه صاحب الدعوة أساساً. لم ينقطع ليلتها عن محادثتي مسقطاً نظره بإلحاح في الفتحة بين ثديي، فيما يسارع إلى شرح الوجبات المتتابعة التي يقترحها علينا، إذ يعود بعضها إلى المطبخ المصري. ما جرى له لكي يخصني بهذه العناية كلها؟! لماذا اقترحَ إيصالي إلى بيتي، وهو لا يبعد أكثر من خمسين متراً عن الفندق؟ ما سبب دعوته إلى هذا العشاء؟ ما يُحرِّكُه؟ أصحيح أنه ناشط في «المحفل الماسوني»، كما تزعم مديرة الفندق المجاور؟ كيف يحدث أن عاملة التنظيف في بيتي تعمل في فندقه؟ أهي التي طبخت الطبقَين الأساسيين اللذين لم يعجباني أبداً؟ أهي مصرية؟

لم تنقضِ تلك الليلة الباردة من العام 1811 بمجرد وصولي وحدي إلى البيت، إذ سارعتُ إلى فتح دفتري الخالي وإلى تدوين ما كتبتُ أعلاه.

في إمكاني، بعد، أن أجذب انتباه من سيقرأني - إن قرأني أحد ذات يوم - إلى حكاية عامرة بالحوادث اللافتة، فأنتزع دموع التأثر من بعض ذوي القلوب الرقيقة، راويةً لهم بعض المصائب التي كابدتُها . . . سيكون لي بأي حال العزاء إذ أكتب، فأنقض الشائعات التي طاولتني، وأرسم شخصيتي كما كانت فعلاً، من دون بهرجة أو ادّعاء . . . كم هناك من الناس برزوا في العالم مثل شخصيات كبيرة عامرة بالذكاء، والموهبة، والفضيلة، ما يسعني مضاهاتهم، بل تخطّيهم، لو تمَّ التعرف إلى مواهبي، وإلى فضائلي، ولو تمَّ الإقرار بها . . . إنني أدعو من يقع بين أيديهم هذا الدفتر، بعد موتي، ألا يحرقوه قبل أن يقرأوه.

كانت أيامي سعيدة مع السيد بيزوني في تولون، أثناء حملة مصر بقيادة بونابرت، في العام 1798، الموافق للعام السادس، بحسب روزنامتنا الجمهورية الجديدة. تابعنا التحضيرات بحماس شديد، بعد أن التحقَ زوجي بالجيش برتبة ضابط، ووُضع بتصرف الجنرال في الحملة على إيطاليا. لم يمانع في ذلك. كنا نقتنع حينها، هو وأنا، بأن بونابرت يحمل شررَ الحضارة على طرف سيفه، لا الدماء النازفة.

كنا نشغل بيتاً كبيراً في «شارع فرنسا»، مقابل دارة السيد فانس، المخصصة منذ سنوات بعيدة لإقامة مفتشي الجيوش. كانت حياة هانئة، واعدة، ومريحة. مَركبة نقل كانت بتصرفي، فضلاً عن عدد من الخدم، فيما كنتُ أمضي أياماً سعيدة، لولا بروز مضايقات منزلية مفاجئة بيني وبين السيد بيزوني.

كانت السيدة بونابرت (وهي من عائلة بوهرني قبل زواجها،

وباتت اليوم الإمبراطورة جوزفين)، قد صاحبت زوجها إلى تولون، وأقامت في المدينة بضعة شهور بعد رحيل الجنرال. هذا ما جعلني مقرَّبة منها: كان يجري التفكير كل يوم بمشاريع أو بنزهات لتسليتها... حدث لها، ذات يوم، أن اهتمت بصيد نوع من السمك، فكان أن أخذناها إلى موقع الصيد... تألَّفَ موكب السيدة بونابرت من اثنتي عشر مركبة، من بطانتها، ومن جميع السلطات العسكرية بتولون، فيما أحاطت بنا ثلة من الضباط الشبان على أحصنتهم، وانتشرت في الطريق أعداد من الفضوليين، ممن أثارتهم زيارة السيدة لمنطقتهم. أثناء الغداء، أتت البلدية بعديد أعضائها لتحيتها، وقدَّمت لها باقة كبيرة من أجمل الأزهار، فيما كانت تتقبل هذا كله بلطافة بادية... كان لي شرف مرافقة السيدة بونابرت في قاربها، فيما كانت تتبعنا قوارب أخرى لمصاحبيها، وقاربان للجَوق الموسيقي، واحدٌ منهما للموسيقيين، والآخر لعازفي الطبول. إلا أن دوار البحر أصابها ما أن غادرنا الضفة، فكان أن طلبتُ منها وضعَ رأسها على ركبتي. هذا ما قامت به، وباتت رؤية البحر ممتنعة عليها، ولكنه جعل دوار البحر يخفُّ تماماً... في طريق العودة استعادت السيدة وضعيتها السابقة؛ وكان لي خلال ساعة من الوقت فضلُ إمساك رأس السيدة بونابرت على ركبتي، هذا الرأس الذي لن يلبث أن يصبح متوَّجاً بعد وقت.

في طريق العودة، طلبت مني السيدة بونابرت الإمساك بباقة الزهور التي لم تفارقها طوال الرحلة، ما جعل الناس المُصطفّين على جانبَي الطريق يظنون بأنني هي، فيوجهون صوبي التحيات... ولما وصلنا، أخبرتُها بما جرى، فضحكَت وطلبت مني الإبقاء على باقة الزهور معي تذكاراً لهذه الحادثة.

لو كان في مقدوري، اليوم، الوصول إليها، حيث تقيم، لكانت تذكَّرتني من دون شكّ، ولكانت مدَّت لي يد المساعدة، بعد أن علا شأنها؛ ولكانت انتشلتني من مهاوي الآلام التي أسقطني القدرُ فيها.

قبل هذا العهد، كنت قد تعرفتُ على بونابرت، وتعشيتُ معه على مائدة قائد الموقع، فيما كان حينها قائداً للمدفعية. كان ذلك في العام الجمهوري الثاني، أي في العام 1794... ليس لي أن أنسى أنني تعشيتُ، في هذه البلاد، على موائد جميع السفن الحربية تقريباً، التي كانت تتوجه إلى مصر، والتي عرفَت الشهرة بعد ذلك، مثل سفينة «الشرق» وغيرها.

هذا ما أذكره، هذا ما أستعيده، هذا ما أدوِّنه بعد سنوات، بعد أن وجدت أن تلك الذكريات التي تعود إلى أكثر من عشر سنوات جديرة بالحفظ. فزوجة بونابرت تغيرت، وفارقت رقتها ولطافتها، مثلما عرفتُها كذلك في بلاط نابولي، إذ باتت شديدة القسوة، على ما أخبرني أحد أقربائها: هذا طبيعي، لها أن تتحمل عشيقاته الكثيرات، هنا وهناك... لعلّه ترك وراءه أولاداً كثيرين في غير مدينة أوروبية... قيل عنه، في إحدى جلساتنا في الفندق القريب، إن له ابنة مصرية. وهو تغيرَ بدوره، إذ لم يُبقِ بناءً في أوروبا إلا وقلبَه رأساً على عقب...

نتتبَّع أخباره وأخبارها في الجلسات، لا في الجرائد التي يراقبها كلها... ما يبقى لنا في الصحف لا يتعدى أخبار الناس البسطاء، التي يجمعها الصحفيون من دوائر الشرطة. هذا ما يُخبرني به أحياناً السيد جيراردون نفسه، لعمله المزدوج في عِداد ضباط حرس المدينة وفي تصوير اللوحات، فضلاً عن تعاونه مع والدي في أعمال «أكاديمية التصوير والنحت لمدينة مرسيليا».

امتدَّ كل شيء تحت نظري مثل ورقة قراءة، أو ورقة كتابة. هكذا هي نوافذي، هكذا هي أوراق دفاتري، هكذا هي صفحات الجرائد... أكتب عما ألاحظ، عما أعايش، عما أحتفظ به من أخبار. هذا يسليني. هذا يعوِّض عن صمتي الذي يستبد بي، ولا سيما في الليل. هذا يبقيني حية، ذات جدوى. هكذا تكون الكتابة أجدى من الحياة نفسها... أحياناً.

أقرأ في جريدة قديمة أن أحد سكان مرسيليا ربحَ جائزة اليانصيب، في العام 1810، ومقدارها 680 ألف فرنك، وعرفتُ أنه انتقل إلى باريس لاستلامها: هذا الخبر اختصت به صحف مرسيليا، وتدافع كثيرون للاقتراب منه، بعد أن باتت أحلام الغِنَى السهل تراود كل فقير وغني على السواء. هذا ما يجعل الكثيرين من شباننا مغامرِين، يلتحقون بلهفة بجيش بونابرت، طالبين صيد الثروات والكنوز حيثما يحلُّون. هكذا ضُبط أحدهم قبل سنوات بتهمة الإتجار بمواد فرعونية، كان قد هرَّبَها في حقيبته، بعد أن سمحت السلطات الإنكليزية المرابطة في البحر لجنود بونابرت وعلماء «الحملة» بنقل أغراضهم الخاصة معهم، من دون الآثار الكبيرة الأحجام التي جلبوها من أرض الفراعنة... يومها نجح الضابط في أن يتحول إلى دارس آثار في نظر الضابط الإنكليزي الذي تَفقَّد حقائبه بنفسه لدى صعوده إلى السفينة. هذا ما أقرَّ به الجندي بعد سنوات، بعد وقوعه في قبضة العدالة، إذ وجد صعوبة في بيع ما سلبه في مرسيليا نفسها. فكان أن دعا المحققُ السيدَ جيراردون للتحقيق «الفني» مع المعتقل، لمعرفة طبيعة الأعمال وقيمتها.

شهدتُ كذلك في آكس، في الوقت عينه، صدور الحكم على المدعو (. . .) بتهمة سكِّ عملات معدنية مزورة. وكان صاحب النُّزل، الذي أقام فيه المزوِّر، قد فضح أمره، بعد أن جرى الكشف عن قطع العملة وغيرها من أدوات التزوير في غرفته. جرى تنفيذ حكم الإعدام فيه، تحت المِقصلة، في اليوم نفسه، في الساعة الثالثة بعد الظهر: وقعَ نظري عليه وهو يتقدم بصعوبة في اتجاه المِقصلة. يبدو أن التحقق من فعلته لم يوفِّر الأدلة الكافية، إذ ظلَّ المتهم يزعم أنه جرى إدخال قوالب السك والقطع المزورة إلى غرفته في النُّزل. وهو أمرٌ ممكنٌ ما دام أن صاحب النُّزل ينشغل بعمله في النهار، فلا يراقب تماماً حركات الدخول والخروج من النُّزل وإليه، وبخاصة أن المزوِّر كان يخفي أحياناً مفتاح غرفته وراء إحدى اللوحاتِ في الممر.

قد أحتاجُ إلى دفتر آخر، إضافي، بعد أن وجدتُ نفسي أتحول إلى صحافية من حيث لم أقصد، ولم أرغب. بتُّ أعمل في خدمة غيري ممن ينقلون الأخبار، ولا ألبث أن أنقلها عنهم، وأن أختصِرها في دفتري. أكتبُ وأنقل ما يجري، ما أقرأ مع فطور الصباح، كما لو أنني سأكون الناجية الوحيدة بعد الطوفان في سفينة نوح، فأخرج من جوفها حاملة للإنسانية دفاتري المتراكمة، مثلما يحمل الطير معه برعم الربيع النابت. أأكتب ما يجري ابتداء من نوافذي الثلاثة، وما أشهده وحدي من دون غيري؟ ربما، إلا أنني أحتاج إلى قول آخر، يخصني، في تدافعات أمواجي الداخلية. كيف لي أن أكتب ما حدث لي مع القبطان ليونيل، أو مع السيد ريمون، مدير الفندق، أو مع المصور جيراردون؟ هذا ما حدث معهم، لا ما

قرأت في جريدة. حَدَثت لي مع هذا وذاك حوارات والتفاتات وحركات جعلتني في صلات مفتوحة، إذا جاز القول. ماذا أفعل بها؟ هل أُبقيها في ظني، مثلما كنتُ أفعل في السابق، عندما كنتُ ألتهي بتلقائية في حياكة كنزة، فيما كنت أحوك حكاية أطير فيها إلى قصر «التويليري» الملكي، إلى حفل باريس الراقص، مع الفارس الخارج من ضباب القرى الحزينة؟

تركني السيد بيزوني، وتركني أولادي الثلاثة: الأولى فارقتني، وهي رضيع، والثانية اتجهت إلى دير في مدينة آكس، والثالثة إلى والدها منذ عشر سنوات. تركوني من دون رحمة، كما لو أنني خادمة للإنجاب، للتربية الباكرة، لا لمرافقتهن فوق دروب الحياة. لعلّ الصغيرة، آديلاييد، التي التحقت به، اقتنعَت بما اقتنعَ به قبلها، وهو أنه لم يَعُد يحتاج إلى مكانة عائلتي، ومكانة والدي، الفنان القدير: ما عاد يحتاجها بعد أن استعاد رتبته النبيلة الضائعة في إدراج مملكة نابولي، وبعد أن قلَّده بونابرت رتبة عسكرية يزهو بنجومها المنيرة. أما الثانية منهن فقد فعلت عكس ما قمتُ به، إذ كانت والدتي ترغب في انتسابي إلى جمعية رهبانية، فلم يمانع والدها مثلما مانع والدي، السيد إتيان مولينيف، وجنَّبني تلك الحياة المجدِبة وراء جدران الصلاة والتنسك.

لم يَعُد السيد بيزوني يحتاجنا، لا والدي ولا أنا. تَدبَّر والدي مع الكاهن، عند زواجنا، بأن يذكر في عقد الزواج أنه كان «تاجراً»، فيما كان يقيم واقعاً في غرفة ضيقة للغاية، في الطابق الرابع، في بيت قريب من بيت أهلي، في «شارع تابي-فير». تخلَّى عن والدي وعني، إذ لم يتأخر عن العيش مع أكثر من امرأة: ستكون له عشيقة علنية، السيدة كوفيه، التي كانت تدير محل بيع للسجائر ثم

محلاً لتبديل العملة، بعد أن نشطت أفواج المسافرين إلى مرسيليا ومنها، وسيكون له منها ولد. كما سيرتبط بممثلة اسمها بيفو، لما كان في عداد الجيش في تولون؛ وهو ما اكتشفتُه بنفسي أثناء زواجنا، إذ انتقلتُ لزيارته ذات مرة من دون أن أبلغه بمجيئي في رسالة. . . كما ستكون له زوجة أخرى شرعية، وكانت خادمة، ما لم يمنعه من الإنجاب منها. وعرفتُ مؤخراً أنه تزوج من خادمة أخرى، ماري ماجدلين سيدول، من دون أن ينجب منها أي ولد. . . حتى الآن.

ها أنا أصبحت مأمورة نفوس زيجاته المختلفة، بعد أن اتَّهَمتُه لدى السلطات المحلية بسرقة مجوهرات وأغراض ثمينة من بيتي، إذ انتهزَ فرصة غيابي عنه، وتسللَ إليه بعد أن احتفظ معه بمفتاح البيت.

تركوني، من دون أن يتركني والدي، الذي اكتسبتُ منه فضيلة الاتكال على النفس، على الفنِّ، عدا أنني تعرفتُ في محترفه على الفنان جيراردون الذي لا يتجنب الحوار معي، وأنا أكبره سناً. . . تركوني، لكن الحياة فتحت لي بوابات جديدة، منها ما ينعقد في الفندق القريب من جلسات تنشِّط اهتمامي بمصير مدينتي، التي ناصرت «الثورة» قبل أن تتباعد علاقتها بها، بل بنابليون، الذي جرَّ الآلاف من أولادنا إلى الحُفَر والمقابر.

تركوني، لكن السيد ريمون دعاني، يوم أمس، إلى مصاحبته إلى حفل راقص، فرفضتُ. وهو ما جعلَه يشدُّ على ساعدي، قبل توديعي، بعد عشائنا الدوري كمجموعة في الفندق، على العتبة الخارجية، وإلى إرفاق الحركة بالقول: متى ألقاكِ وحدنا؟ ماذا أقول عن التاجر جيرار وعن شروحاته المستفيضة التي تعدَّت ما كنت أدقق

فيه من معلومات حول حادث مؤسف حصل قرب بيتي، وكنت أطمع في تدوينه في دفتري؟

تركوني، كما لو أنني أبدأ حياة جديدة، إذ عادت لي علاقات سابقة على زواجي من دون غيرها، أو علاقات تولَّدت مما أفعله وأقوم به. تركوني من دون أن يكون لي أمل بزواج جديد، ولا بإنجاب، ما دام أنني بلغتُ قبل شهرين عامي الحادي والأربعين.

وقعتُ قبل أيام على مغامر آخر في مدينتي، يعوِّل على ذكائه لكي يجني ثروة، ولكي يكتسب مكانة في مجتمعه. هذا الرجل يقوم، بفضل مبادئ بعينها، ببناء ذاكرة اصطناعية. في لقاء عمومي، حضرتُه، استعرضَ موهبته، وقدَّمَ مجموعة من الشبان والصبايا، بعد أن علَّمَهم طريقته، وراح يطرح عليهم الأسئلة في مجالات مختلفة، ويجيبونه عليها. كان يحمل بين يديه أوراقاً كبيرة، فيما يتمُّ تدوين الطلبات والأجوبة عليها، على تفرق موضوعاتها. ثم كان يوزِّع الأوراق، الواحدة بعد الأخرى، على أيدي الجالسين في الصالة، فيطرح الجالس سؤالاً على أحد تلاميذه، ثم يقوم التلميذ نفسه بالإجابة عليه وفق ما ورد في الأوراق.

إلا أن تجربة أخرى كانت أكثر إثارة، إذ كان بعض الحاضرين يتولون تدوين أرقام فوق قماشة مربَّعة، ويقوم أحد التلاميذ بمعاينتها للحظات، ثم يجلس، ويدير ظهره للوحة، ويروح يستعرض الأرقام كلها، واحداً تلو الآخر. هذه الجلسة جرت في قاعة المتحف، بمشاركة كثيرين، لأنها تجارب مثيرة للفضول. إلا أن هذا الأستاذ لم يكسب كثيراً في مرسيليا، ولم يجد ما يفعله فيها.

قبل ذلك، في العام 1810، ظهر في مرسيليا رجل ادَّعى أنه قادر على المشي فوق المياه بفضل لباس خاص بالسباحة، وتحت الماء أيضاً، ما يؤهله، بحسب قوله، لإنقاذ سفينة من الغرق. هكذا شرح، في إعلان، برنامجَ عرضه، ودعا الناس إلى دفع مبلغ من المال لإنجاز هذه التجربة. هذا ما جرى فوق شاطئ «آرنك»، بعد أن تمَّ وضع سياج يمنع دخول غير المشاركين في التجربة، بحراسة القوى العسكرية. كانت الحشود وفيرة ممن أتوا ببطاقاتهم الخصوصية، أو من الفضوليين الذين طمعوا برؤية التجربة مجاناً - إن أمكنهم ذلك. أخيراً، انطلقت التجربة، لكنها لم تعرف النجاح المرجو منها، وبقي بطلُها على مسافة من معجزته التي أَعلنَ عنها، فطردَه صفير الاستهجان، ورافقَه الصبية بالحجارة وكتل الوحل لدى خروجه من الماء.

هذا كان أيضاً مصير الطيَّار الذي جمع اشتراكات قبل سنوات لإنجاح تجربة إطلاق منطاد، له أن يقلَّه وينقله إلى أمكنة بعيدة. جرى التحضير طويلاً للتجربة، وتابعَها كثيرون من مرسيليا لأنهم فضوليون، إلا أن مركبته لم تقلع قط. صاحبت الطيار صيحات الاستهجان، واقتيد إلى السجن؛ ومع ذلك قالوا إنه لم يكن المخطِئ.

على أي حال، لم نعرف في مرسيليا أحداً ينطلق في منطاد بعد السيد بلانشار، وعلى الرغم من نجاح تجربة غيره أيضاً، مثل السيد بريمون الذي ارتفع به المنطاد، لكنه كاد أن يلقى حتفه فيه، إذ اشتعل المنطاد ووقع به سريعاً على الأرض. ذلك أنه سعى إلى القفز من المنطاد عند اقترابه من الأرض، فكان أن علق فيه أحد أزرار حذائه. إلا أنه خرج سالماً في نهاية المطاف، مع بعض الرضوض.

(. . .) كانت لي يوم الاثنين في 6 أبريل من سنة 1812 فرصة المثول أمام ملكة إسبانيا، في صحبة إحداهن، التي كانت ترمي تسليمها ورقة. هذا ما أتيحَ لنا أمام مدخل مقر إقامتها، في اللحظة التي كانت فيها تنزل من مركبتها، في طريق العودة من نزهة مع الملك، زوجها، اقتربت السيدة منها، وقدَّمت لها الورقة، قائلة لها: أتوسلُ إليك، صاحبة الجلالة، أن تقرئي هذه الورقة. أجابتها الملكة: بكل سرور. ثم قالت للسيدة: كيف حالكِ؟ أأنتِ في حال جيدة؟. . . سيكون هذا مدعاة لسروري. ثم سألَت الملكةُ السيدةَ، التي كنت أرافقها، عن شخصي، مضيفة أن هذا يسرُّها. ثم استعادت سَيرَها، محيية إيانا بكثير من اللطف والمودة. كان الملك يمسك بيدها، والدوق الكبير يتبعها، إلى جانب أرملة المستشار الذي توفي مؤخراً في مرسيليا.

حدجني الملك بنظراته، حتى وهو يصعد الدرجات. كنت أعلم سبب هذه النظرات، لكنني لن أكشف عن معناها هنا.

(أأحتاج إلى دفتر آخر، لكي أعرض سبب نظرات الملك، أم أُبقي ذلك في ظني يهدهدني في وحدتي، إذ أندسُّ في فراشي، في العتمة، وحدي؟ أم أعتمد على ما لجأتُ إليه اليوم، وهو أن أكتب هذه الكلمات في المقلب الآخر من الدفتر؟ فأنا، إذ امتنعتُ عن ذكر ما حدث لي من أحداث حميمة، فذلك لأنها تخصني في جسدي، فيما عايشه من انفعالات عابرة في الغالب، لكنها تحدث لي للمرة الأولى. فقد تزوجتُ السيد بييزوني، وأنا في الخامسة عشرة من عمري، من دون أن يكون جسدي قد عرف الارتعاشات التي عايشتُها لما دعاني قبطان السفينة إلى مراقصته في مقصورته، وهو ما

قبلتُ به لثوانٍ، ثم انفصلتُ عنه راكضة إلى الهواء البارد. وما عرفتُ كذلك ارتجاف الشفتين في نطق الكلمات، إلّا لما ارتبكتُ في إيجاد كلمات الاعتذار من المصور جيراردون، ما جعل رأسي ينحني، وما جعل يده اليمنى ترفع ذقني من دون أن أمانع في قبول نظراته الحنونة، التي دفعتُها عني بالقول: لو تغسل يدكَ من أصباغها قبل أن تتهيأ للسهرة!

لكن ما فعله الملك تعدَّى ما يمكن تخيله، إذ إنني التقيتُ بأحد مرافقيه في «مقهى العالمَين» قبل أيام على مثولي مع صديقتي للقاء زوجته الملكة. هذا المرافق تعرَّف إليَّ في مناسبة أخرى، قبل سنوات، في بلاط نابولي، لما دعاني (هو الذي كان يعمل حينها في خدمة ملك نابولي، وصديق ابن عم زوجي، البارون كاميرانا)، إلى أن أكون القارئة بالفرنسية لدى الأمير الصغير، وارثِ مملكة نابولي. رفضتُ العرض يومها، وقفلتُ عائدة إلى مرسيليا، بعد أن بلغتني أخبار عن سوء أحوال والدي الصحية... المرافق تعرَّفَ بيسر إليَّ على الرغم من مرور السنوات، ما جعلني أبادره بالقول: أهي موهبة لديك؟ فأجابني: لا، هذا ما تعلمتُه في عملي في بلاطات الملوك... فأنا ذاكرة الملك البصرية للوجوه. ابتعدَ عني المرافق يومها للحاق بمن كان معهم في المقهى الشهير، ثم عاد من جديد إلى طاولتي ليسألني: ألا تزالين ترفضين العمل لدى الملوك؟ ضحكتُ، وسألتُ: ما الداعي إلى طرح هذا السؤال؟ فأجابني مبتسماً: لأن هناك ملكاً آخر يطلب اللقاء بك لعمل... فماذا تقولين؟

زارني المرافق، السيد دو بوشيتا، في اليوم التالي في بيتي، وأخبرني بمجرد وصوله أنه يعمل حالياً لدى ملك إسبانيا، وهو

مكلف خصوصاً بمهماته السرية. ولما سألتُه عن حاجته إلي، أخبرني أنه كان يرافق الملك إلى المقهى حيث التقينا، لكن الملك كان متخفياً يومها بلباس عادي، لكي يقوى على العيش مثلما يعيش أهل مرسيليا من دون إحراجات البروتوكول: الملك يرغب في اللقاء بك، في المقهى عينه، في أي يوم تشائين لمحادثتك في أمور تخصه، ولم يكشفها لي... فماذا تقولين؟ لم أمانع في المجيء، واتفقنا على اليوم التالي في الثالثة بعد الظهر.

ما أن التحقتُ بطاولتهما، اعتذر المرافق، وانتقلَ إلى طاولة أخرى. كان حديث الملك عذباً، رقيقاً، لا أحسن حتى تذكره وتدوينه بالتالي، ما دام أنني كنت مأخوذة بما يحدِّثني به، فلا أقاطعه إلا بتأكيدات أو بهمهمات، إلى أن علا صوته بعض الشيء، وأمسكَ بيدي اليسرى بقوة: أحتاج إليكِ... أحتاج إليكِ. سحبتُ يدي بنعومة، فلم يمانع، وقبل أن أبادره بالسؤال عما يطلبه مني، قال لي، وقد بدت الجدية على ملامح وجهه التي اشتدت بعد استرخاء: أعلمُ، أي علمتُ أنكِ مثقفة، أنك كاتبة... كنت أراقبك، قبل يومين، في المقهى، وأنت منكبة على الكتابة... قلتُ لمرافقي: ولمَ لا تكون هذه السيدة كاتبتي السرية؟ كانت دهشتي كبيرة لما أجابني مرافقي إنه يعتقد بأنه يعرفكِ من قبل.

يرغب الملك في كتابة رواية، إلا أنه لا يحسن الكتابة. يرغب في سرد ما عاشه، ولا سيما في حياته الغرامية، وما لم يعشه ولكنه يتخيله أو يحلم به. وهو لا يريد رجلاً لذلك، لأنه قد لا يكون صريحاً معه، فيما يختلف الأمر مع سيدة، مع من لا يعرفها أساساً... ضحكتُ مما قال، ما أثار دهشته، فأجبتُ على عجل مخافة ألا يحسن فهم موقفي: كلنا يرغب، على ما يبدو، في رواية،

في جعل حياته رواية. . . أنا لم أعرف بعد لماذا أرغب في ذلك فيما يخص حياتي، أما أنت، يا جلالة الملك، فلمَ ترغب في ذلك؟).

(. . .) في 10 أغسطس من سنة 1813، يوم القديس لوران، سَرَت بقوة في مرسيليا أخبار توبة المومس الشهيرة التي عرفَها كثيرون في مرسيليا وعاشروها. البعض زعم أن حلماً هو الذي أحدث هذا التغير في شخصها، فيما ادَّعى البعض الآخر أن كاهناً، المدعو شامبورسين، هو الذي أعادها إلى درب الإيمان، فيما قال البعض الآخر إن للشرطة دوراً أكيداً في تغيرها المفاجئ، ما جعلها تُحوِّل هذا الاضطرار إلى فضيلة. أياً كان الأمر، فقد كفَّرت المومس عن أفعالها القبيحة في «كنيسة الخطيئة»، كنيستها القريبة، عما قامت به بنفسها أو عما جعلت الآخرين يرتكبونه. البارحة، في العاشر من أغسطس، في حضور أناس كثيرين، وبعد أن قامت بالاعتراف، ونالت المغفرة على خطاياها، انطلقت صوب مدينة آكس، لكي تنخرط في دير للراهبات. كما علمنا أيضاً أنها تخلَّت عن جميع ممتلكاتها، فوهبت دارتَيها، وأثاثهما، لمستشفيات مرسيليا. ها هي أعجوبة أكيدة!

(. . .) يوم الاثنين، في الرابع والعشرين من يناير من سنة 1814، كان الطقس رائقاً للغاية في مرسيليا، بعد أن كان المطر قد هطل مدراراً في يومي الجمعة والسبت الفائتَين. يوم الأحد تكشحت الغيوم، ومال الطقس إلى البرودة. في المساء، كان الهواء عاصفاً، ومع ذلك ظهر الجليد في الليل. إلا أن الطقس كان لعيناً يوم الاثنين: ظهرَ الجليد في جميع الشوارع المطروقة، على الرغم من

قوة الرياح وشدة البرد. سوق الخضار خلا من بائعاته، ومن تجار الزبدة والأجبان. ما بقي منه للنظر، اقتصرَ على المقاعد والطاولات المقلوبة، وعلى الجليد فوق الأرض، من دون بشري واحد يسير على قدميه. زادت شدة البرد حتى صباح الثلاثاء، فيما ظهرت الشوارع، وحتى الساحات العمومية، مغطاة بالجليد، إذ تجمدت مياه السواقي في كتل من جليد. خفَّت شدة البرد يوم الثلاثاء، على ما يبدو، وما لبثت أن زادت من جديد في المساء، وفي ليل الثلاثاء-الأربعاء، بينما كانت قد تراكمت طبقات الجليد. وكان يوم الأربعاء بارداً للغاية، ولكن من دون ريح.

(أعود إلى الضفة الأخرى من دفتري، بعد أن تأكدتُ من كوني لا يسعني كتابة كل شيء، أو ما أريد تدوينه من حياتي الحميمة فيه. من يُصدِّق حكايتي مع ملك إسبانيا، الذي غادر مرسيليا قبل أيام، على ما قرأت في جريدة «السيمافور»؟ حتى السيدة التي رافقتُها للقاء زوجته الملكة انتبهَت إلى نظراته المحملقة بي، لكنها لم تقبل روايتي عن اللقاء به، السابق على لقائها بزوجته. وحده السيد جيراردون صدَّق ما أخبرتُه به، أو تظاهر بذلك على أي حال، ما دام أنه لا يتورع عن قبول أي شيء أقوله أو أقترحه. أنا أعرف أنه يدين لوالدي بالكثير، إذ تكفَّل بتعليمه فن الرسم والتصوير وبعض أساسيات النحت أيضاً، كما جعله معاوناً له في محترفه، قبل أن يُلحقه به لما جرى تعيين والدي أميناً عاماً لـ«أكاديمية التصوير والنحت لمدينة مرسيليا» في السنوات الأخيرة من حياته. . .
جيراردون وجدَ في سلوكي رعونة معهودة لدي، بحسب رأيه. هذا طبيعي منه، إذ إنه اتَّكل على غيره فيما قامت عليه حياته: ألا ترين

ما يحصل لي في عملي؟ ألا تنتبهين إلى منافسة فنانِين قادمِين من مدن إيطالية لعملي في رسم الهيئات أو الأعمال الدينية للكنائس والأديرة أو لبعض المزارات؟ كان عليكِ أن تقبلي بالعرض. . . الفرصة لا تعوَّض.

ربما كان محقاً، بدليل أنني رحت أتخيل ما كان للملك أن يقوله لي من أخبار وأسرار. ولكن من يضمن أن علاقته بي ستقتصر على المكاشفة، ولا تتعداها إلى أمور معهودة في البلاطات بين المحظيات والعشيقات العلنيات أو السريات؟ أكان مفتوناً بي، وأنا لست أبداً بجمال النساء اللواتي يَدُرْنَ مثل الفراشات حول أنوار الشموع في ثريات القصور الملكية؟ ربما كان صادقاً في ما طلبَ مني، ولكن من يضمن أنني كنت سأمتثل تماماً لرغبته، وهي أن أتحول إلى كاتبة أسرار؟ هو يريد تنمية حياته الغنية أساساً، وأنا ماذا تجلب لي مهنة الاستماع إليه وتدوين مشيئته؟ أهذا ما أبحث عنه؟ أهذا ما يغني حياتي الخالية؟ أهذا يجعل كتابتي أغنى وأكثر شخصية؟).

(. . .) كرنفال العام 1814 أتى حزيناً للغاية في مرسيليا. أحدثَ غزوُ القوات الروسية، والبروسية، والنمساوية وغيرها لأرض فرنسا دهشة بالغة. جرى منع الحفلات الراقصة؛ ولكن، أخذاً في الاعتبار أن قوات الإمبراطور نابوليون أحرزت انتصارات عدة، على ما قالوا، جرى السماح لإدارة «المسرح الكبير» بإحياء حفل على طريقة أهل مدينة البندقية، في خميس المرفع، ما انتهى في الحادية عشرة ليلاً. كما جرى، يوم أحد المرفع، حفل راقص في الليل، ويوم الاثنين حفلٌ على طريقة أهل البندقية مع الأقنعة وغيرها، ويوم

الثلاثاء حفل راقص ليلاً، مقابل خمس وعشرين قطعة نقدية للشخص الواحد، ما لم يكن متاحاً لكثيرين، بسبب ضيق الأحوال.

لم يتمّ إعداد هذه الحفلات الراقصة بشكل موفق، لأن الناس الصادقين ما كانت لهم أي رغبة في الرقص في هذه الأيام: كلٌّ يبكي بسبب فقدان ثروته، أو أولاده. . . الضرائب تتزايد، ما يتمُّ مضاعفتها مثنى ورباعاً بين وقت وآخر؛ فيما تتَتالَى باطِّراد أوامر الرحيل للالتحاق بالجيش.

لم يكن يخفُّ عن الناس ضغط الجيش، إذ كان يُطلب منهم إيواء أعداد من الجنود أسبوعاً تلو أسبوع، ما كان يزيد من مصروف العائلة الدوري أربعاً أو خمساً من الفرنكات في الأسبوع الواحد. أخيراً، لم يبقَ سببٌ لإرهاق الناس إلا وحلَّ عليهم، ما جعل الجميع في حال من البؤس الشديد، هذا ما أفقدَ لدى الناس أي رغبة في الذهاب إلى الحفلات الراقصة، أو في ارتداء الأقنعة. ما زاد الطين بلة، هو أن البرد اشتدَّ للغاية، وظهر الثلج يوم أربعاء الرماد، في 23 فبراير، وغطَّى كل شيء، ما هو نادر واستثنائي في هذه المدينة. وما توانى الثلج عن التساقط طوال النهار، حتى إن «نزهة آرنك» أتت فاشلة هذه السنة.

في 11 أبريل، في العيد الثاني للفصح، تجمَّع ناس وناس فوق ضفاف «جاريه»، ما جعل منهم حشداً للاحتفال بأحد الأعياد. هذا ما ظهر في هندام الناس المتجمعين، في الحبور الذي بدا على محياهم، فما ظهر منذ حدوث «الثورة» فرح مماثل للجمهور. كان هذا ناتجاً عن الشائعات التي راجت وراحت تتأكد أكثر فأكثر. . .

يتمُّ الحديث عن أن قوات الحلفاء الأوروبيين ما بلغت أرض فرنسا إلا لوضع لويس الثامن عشر على العرش، وأنه دخل إلى

باريس معهم، وأنه سيتمُّ إعلانه ملكاً في القريب العاجل. ها هو السبب الداعي إلى مبالغة الشعب الطيب في التعبير عن فرحه، هذا الشعب الفرنسي حكماً، على الرغم من الأخطاء والجرائم البشعة التي دُفع إلى ارتكابها.

مع ذلك، لا نعرف أي شيء أكيد وإيجابي بهذا الخصوص. منذ انتشار النبأ عن سيطرة قوات «الحلفاء» على باريس، لم يصل أي خبر صحيح. الكل يتحدث على هواه، ويروي حكاياته حسبما تقوده مشاعره. حتى إن بعضهم بالغَ وتورط في ما قال، من دون أن يرتدع غيرهم... ولو طلب الواحد منا تأكيداً لما سمعه، لكان عليه أن يقضي فرحاً أو غماً، فيما لن أقضي، فيما يتعلق بي، إلا بعد نفاد صبري، بعد أن أكون قد علمتُ حقيقة ما يجري بشكل صحيح. ذلك أن ما نعايشه في هذه الأيام وضعٌ عنيف للغاية. فنحن قد نتبادل التهانئ على شيء لم يحصل أساساً، ولا نعلم ما إذا كان علينا أن نضحك أو أن نبكي من جرَّاء ذلك.

اليوم، في الثالث عشر من شهر أبريل من سنة 1814، حصلت حادثة غريبة في التاسعة صباحاً في «الكانوبيير». مزاج الناس علا واشتدَّ بعد سريان هذه الأخبار في الأيام الأخيرة. يُقال إن الفرقة الإنكليزية دخلت إلى تولون، وأن الجنرال ماسِّينا سلَّمَ المدينة وقلاعها لسلطة الملك لويس الثامن عشر. ويُقال أيضاً إن سلطات مرسيليا تبلغت، منذ السيطرة على باريس، بلزوم الخضوع للحكومة الجديدة، وإن عمدة المدينة وغيره من السلطات حاروا في أي معسكر يلتحقون.

أخيراً، في هذا النهار، انتبهَ الناس إلى وصول المنادي العمومي، الذي يتكفل بالإعلانات الرسمية، إلى «الكانوبيير»؛

وساورَ الناسَ الاعتقاد بأن السلطات المحلية اتَّخذت موقفها، وأنها التزمت بسلطة لويس الثامن عشر. مجموعات كثيرة من الناس تحلقت حول المنادي العمومي، كما أن نساء من الشعب أحطن به لتقبيله: كاد أن يختنق؛ بات مرفوعاً في الجمع من فرط التجمع حوله. صيحات متكررة، «عاش الملك»، ارتفعت من الحناجر، وعلا التصفيق وغيره من مظاهر الفرحة، ما لم يساعد الجمع على سماع ما له أن يقول لهم. أخيراً، استطاع قراءة نداء صاحبة الجلالة الإمبراطورية، الموقَّع في مدينة بلوا في 3 أبريل، والذي تعلن فيه أنها لاجئة في القصر، وأن زوجها يعارك أمام أسوار باريس طمعاً باستعادتها، وأنها تتمنى أن يساعده الفرنسيون في مهمته.

تراجعَت حمية الناس تماماً، إثر قراءة النداء، وتوقفت صيحات الفرح، وتفرق الناس حزانى. يا للشعب المسكين، كان فرحه العامر قصير المدة! لو جرى ذكر هذه الواقعة في أي كتاب بما يشكل مادة للتاريخ، فأنا متأكدة من أنه سيتمُّ تحريف الواقعة، وسيزعمون أن الشعب أبدى مشاعر سعادته إثر إخباره أن الإمبراطورة في أمان، وأن الإمبراطور أمام أسوار باريس. . . إلخ. إلا أن هذا كله غير صحيح. فأنا أشهد بعدم حدوث هذا، وأدونُه في دفتري من أجل ضمان الحقيقة، وسلامة الخبر لمستقبل الأيام، بعد أن كنتُ شاهدة عيان. فقد جرت الأمور كما كتبت، وما حرَّك مشاعر الناس فعلاً هو ما أصابهم، كما شرحتُ ذلك أعلاه.

أريد أن أنهي هذا الدفتر باستعادة هذه الذكرى الجديرة فعلاً بالحفظ. يوم الرابع عشر من شهر أبريل من سنة 1814 سيبقى منقوشاً إلى الأبد في مباهج مدينة مرسيليا. فمنذ انبلاج صبح ثورتنا، لم نعش يوماً مدهشاً كهذا؛ إنه يوم العظمة والانخطاف السحري. ما

آمل به هو أن يكون هذا اليوم ضمانة لسعادة فرنسا، وخاتمة نهائية للتمخضات الثورية.

يبدو أن اجتماعاتنا الدورية، المنتظمة، حول مائدة مدير الفندق ستنفرط بدورها. هذا ما تنبَّهتُ إليه تباعاً، من ارتباك المدير نفسه، لما وصلتُ قبل غيري، إذ فاتحني: ألا تعتقدين بلزوم تأجيل موعد العشاء إلى يوم آخر؟ لما حرتُ في الجواب، وهو صاحب فكرة هذا اللقاء، وصاحب المصلحة فيه، تابع قوله: ألا ترين ماذا يجري أمام بوابة الفندق، وفي «الميدان»؟ هذا ما تحققتُ منه بمجرد توافد هذا وذاك، إذ بدا القاضي جان ماسِّيه على غير ما كان يَظهر عليه، وكذلك التاجر فورييه والمهندس بريمان والضابط فردينان وغيرهم ممن تكشفت معاداتهم الأكيدة لبونابرت. تضايقتُ من مدير الفندق لما اعترض كلامي سائلاً: لمَ لا تُسَمِّه: نابوليون؟ لماذا تكتفين باسمه القديم؟ ألا يعني ذلك أنك لا تعترفين بكونه الإمبراطور؟

بدا كل شيء مثل مسرحية انتهت عروضها، وعاد كل ممثل إلى حقيقته، إلى وجوده، إلى ما هو عليه من دون بهرجة أو «أدوار» و«حوارات» مدبَّرة ومصطنعة. حتى الخادمة المصرية، التي تعمل في تنظيف بيتي، بدت غريبة ليلتها أثناء قيامها بتوزيع الأطباق علينا؛ بل انتبهتُ إلى جمل متقطعة، متوترة، بينها وبين مدير الفندق. ماذا عنى المدير - الجالس قربي على عادته منذ شهور - بقوله لها: ابقي في الفندق هذه الليلة؟ أهو يحميها أم يأمرها بالبقاء لملذاته الخاصة؟

لم يرافقني المدير إلى عتبة الفندق، بل تباطأتُ في نزول درجات السلم المؤدي إلى مدخل الفندق، منتظرة وقوفه إلى جانبي،

وإمساكه بيدي، مخافة وقوعي في العتمة الخفيفة، إلا أن ساعده لم يلتحق بي، ولا المشعل. لهذا ولغيره، بقيتُ فوق العتبة كما لو أنني أنتظر عربة للنقل تتقدم صوبي من المحل الملاصق للفندق، فيما كنت أنتبه لاحتشاد متعاظم أمامه، حيث يتجمع الفضوليون مثل بعض أفراد الحرس منتظرين وصول رسائل أو مسافرين من ليون أو باريس أو تولون وغيرها. كان الحشد أكبر وأعظم في ساحة «الميدان»، أو في الجموع الصاعدة أو النازلة على «الكانوبيير». بدا لي الشارع العريض من دون عربات، كما لو أنه أُخلي للمارة وحدهم، من دون أن أتبيَّن وجهة أكيدة، لا للصاعدين ولا للنازلين.

تماهلتُ في المشي؛ وجدتُ يومها أن فستاني الواسع يناسبني في حركاتي البطيئة هذه، على الرغم من كوني كنت حذرة في تنقلاتي، وبخاصة أنني كنت عرضة للسرقة ربما من عصابة السوء التي تهدد، بل تريد تشويه السلم الجديد القريب مع عودة الملكية.

هذا ما كتبتُ صبيحة اليوم التالي، بعد أن أمضيتُ قسماً واسعاً من الليل جالسة في برجي، وراء نوافذي الثلاث، أرقب طلوع الفجر الجميل في هذه الأيام الربيعية.

(باتت حياة السيد جيراردون ملازمة لحياتي. هذا ما اقتنعتُ به منذ أكثر من ثلاث سنوات، وهو ما جعلني أؤجل الكلام عنه مرة تلو مرة في الوجه الآخر من دفتري. بات مقيماً في بيتي منذ سنتين، على أنني طالبتُه بأن يحتفظ بمحترفه لإنتاج أعماله، إذ إن بيتي صغير، عدا أن بقاءه فيه يومياً قد يفسد هناءة أيامي. أحتاج إلى رجل في حياتي، ولكن شريطة ألا يفسد ما صارت عليه حياتي واعتياداتي.

قبلتُ بوجوده في فراشي منذ سنوات بعيدة... قبول متقطع،

فأنا أحدد له مواعيد قدومه من دون أن يبقى معي طوال الليل. هذا ما انقدتُ إليه، وما رضيتُ به مثل حلٍّ عاقل. فاتحَني أكثر من مرة بإعجابه بي، بوقوفه الحنون إلى جانبي بعد أن بتُّ وحيدة تماماً. كان يصعب عليَّ قبوله كعشيق، بعد أن اعتدتُ على وجوده إلى جانب والدي لسنوات وسنوات، حتى إنني خلتُه - من دون قصد - أخاً صغيراً لي. لم أبالِ به في عهدي الأول معه، إذ كنت أتوسم في الحياة زوجاً آخر، يحملني إلى قصر أو إلى دارة فسيحة، لا إلى محترف ضيق واقع على سطح إحدى العمارات. كان على شيء من الوسامة، لكن وسامته كانت قد خفَّت أو بهتت من فرط اللقاء به، والاعتياد عليه.

كان إلى جانبي في أي وقت. كنت بديلاً مكملاً له عن والدي، خصوصاً بعد وفاته. أنا دَعَوْتُه في نهاية المطاف إلى معاشرتي الجنسية، لكنني أبقيتُه لمرات ومرات عارياً وحسب في فراشي، إلى جانبي وأنا عارية. كنت أدعوه إلى اللحاق بفراشي بعد أن أكون قد تعريت، إذ ما أردتُ أبداً أن يرى تفاصيل جسمي. ولعلي رفضت بداية أي معاشرة معه لأنه طلبَ مني ذات يوم الجلوس العاري أمامه لتصويري.

اعتدتُ عليه عارياً في فراشي، قبل أن أسمح له بتذوقي. كنت أريد منه أن يُحيي جسدي، بهدوء، بالتذاذ، مثل من يمص حبة تين مصاً خفيفاً، ومديداً).

في هذه الصبيحة، في 14 من شهر أبريل من سنة 1814، تجمَّعَ أفراد حرس المدينة، المتحدرين من بورجوازية المدينة، وكبار التجار، حاملين سلاحهم بأمر من الجنرال كانوتوم، واستعرضَهم

الجنرال دو مي، والعمدة السيد مونكران، والمحافظ، أي - بكلمة مختصرة - جميع السلطات المحلية القائمة. كل هذا جرى في أحسن حال؛ وتمَّ الطلب من حرس المدينة المحافظةَ على الهدوء فيها، واحترامَ السلطات... إلخ. بعد ذلك، انسحب الجميع.

منذ الصباح، سَرَت في المدينة أخبارٌ ما محضَها الناس أي ثقة: قيل إن مجلس الشيوخ انعقد في باريس، وإنه أعلن سقوط الإمبراطور نابوليون، وسمَّى لويس الثامن عشر ملكاً شرعياً للفرنسيين؛ وأنه جرى إبعاد المدعو بونابرت إلى جزيرة «ألب»، حيث له أن ينعم بمعاملة مناسبة، شريطة أن يدع الكون يعيش بسلام.

إن مثل هذا الخبر جدير بأن يتمَّ التأكد منه، فيما لم تفارق الجميع وساوس الشك. إلا أن من الناس، مع ذلك، من اتجهوا منذ الساعة الثانية بعد الظهر، صوب بوابة آكس. وفي حوالي الساعة الثالثة، باتت الشائعة تميل إلى الصحة مع وصول بريد له أن يؤكدها ويثبتها. جرى الحديث عن السيد دالبتراس، الابن، وأنه هو صاحب الخبر، بعد أن وصل إلى مكان الحشد واضعاً غصن زيتون في قبعته، مستبقاً وصول البريد نفسه. إثر ذلك، راحت تتجه الجموع من المدينة صوب بوابة آكس، وراحت تتعالى صيحات الفرح التي بات يسمعها هذا وذاك؛ وكان الشعب في حشد متعاظم يتقدم في الوجهة ذاتها، أشبه بأمواج البحر في عاصفة هوجاء. كانت حركة الاحتشاد تتعاظم أكثر فأكثر، إلى أن وصل، في الساعة السادسة مساء، البريد السعيد، لأن الحشود كانت تمنع واقعاً وصوله لكثرتها وتدافعها.

كيف يمكن وصف حماس الشعب حين كان في «شارع آكس»، أو في الساحة العمومية! الناس الشرفاء، من دون تمييز بينهم، زينوا قبعاتهم على عجل بشارة من الورق الأبيض، دالة على مغزى

اجتماعهم، وحملوا مناديل بيضاء من أطرافها، وراحوا يلوحون بها دلالة على عَلَمهم الملكي. وشقَّت الصيحات السماء: عاش الملك، طالعة من قلوب الفرنسيين الحقيقيين... لا، لم تَهِب الثورة أبداً مشهداً مثل هذا! أحد المتجمعين أخرج من جيبه قطعة نقدية تحمل صورة الملك، وراح يعرضها على غيره، ما جعل كثيرين يتدافعون صوبه لتقبيل الرسم. لقد تألمتم كثيراً، كونوا سعداء في هذه اللحظة، وأصلحوا ما ارتكبتم من أخطاء ما استطعتم إليه سبيلاً!

أخيراً، وقد تعاظمت حمية المحتشدين، قررَ الشعب - السيد فعلاً في هذه اللحظة - التوجهَ صوب مقر المحافظ تيبودو، وهو الذي وقَّع مرسوم إعدام الملك لويس السادس عشر؛ لحسن الحظ، لم يكن المحافظ في بيته. جرى كسر بيت الحرس أمام مقدمة بيته، فيما جرى احترام بقية أفراد السلطات المحلية. بعد ذلك، انتقلت الحشود صوب عامود نابليون، وصعد أحد البحارة المهرة عليه، ووضع حبلاً على عنق التمثال النصفي لهذا الطاغية؛ ثم جرى شدُّه إلى أسفل، فيما كان الحبل طويلاً. أكثر من ألفي رجل عملوا على إسقاطه، ثم راحوا يجرجرونه أينما كان في سواقي المدينة.

فئات مختلفة تتبع الحشد، من المعتوهين وخفيفي العقول، بعد أن حملوا بقايا بيت الحراس، وراحوا يضربون بها رأس عدو الجنس البشري. يا لها من أمثولة، يا ربي العظيم، لكل الأشرار الذين يطلبون السيطرة بواسطة الخوف، لا المحبة! هذا الرجل، الذي كان يُرعب العالم كله حتى يوم أمس، بات اليوم متمرغاً في الوحل! أما رأسه، الذي جرى فصله عن صدره، فقد جرَّه الأولاد جراً حتى منطقة «بورتوكالو»...

تمَّ تخريب مكان النزهة، الذي كان يحمل اسمه الكريه، تخريباً بالغاً؛ وما بقي منه من أخشاب جرى إشعاله في مواقد تعبيراً عن البهجة. هذا ما جرى بعد ذلك في غير مكان في المدينة، بل أمام كل بيت تقريباً. أما النوافذ فقد أُنيرت بشكل تلقائي، وأفضل من أي مرة جرى فيها الطلب من الناس إنارة نوافذهم في عهد الطاغية. أما خُدام السيد تيبودو فقد جَلبوا معهم، إلى موقدة النار الأكثر قرباً منهم، المقعد الذي كان قد اعتاد الجلوس عليه، ثم اكتفوا بإشعاله!

يا شعب فرنسا الطيب، ها إني أتعرف إليك أخيراً! كنتُ أرتجف، مع جميع الشرفاء، من إمكان حدوث أعمال متطرفة، في حمية هذا الجنون، ولما تنبَّهتُ إلى كونهم كانوا يجرجرون نصبه، ساورَني الاعتقاد بأن هذا سيكون تمهيداً لحملات أخرى. لم يحدث مثل هذا أبداً. ففي بقية الليل، وفي اليوم التالي، جرت الأمور وسط فوران مواكب من الفرح الذي لا يوصف، من دون أن تهدر نقطة دم واحدة! لا ثأر، لا اعتداء على الممتلكات، في وقت كان فيه الشعب في أسوأ أيام البؤس! يا له من شعب طيب! ها إني أتعرف إليكَ أخيراً: العلم الأبيض، الملكي، يرفرف أينما كان، وأزهار الزنبق تزينه، فيما تتعالى صيحات: يحيا الملك، يحيا لويس الثامن عشر، من دون انقطاع في ست وثلاثين ساعة.

الجميع وضعوا الشارة البيضاء على قبعاتهم، رجالاً ونساء. ما من أحد استطاع النوم في الليلة الأولى. ولكن يجب التنويه بما قام به حرس المدينة، لأنه لولاهم لما جرى ضبط الوضع العام، بعد أن نجح الشعب في نزع النير الاستبدادي. حملَ هؤلاء الحرس أسلحتهم، ونظموا دوريات منتظمة، طوال الليل، وفي اليوم التالي، في 15 أبريل، جرى تحرير السجناء وسط صخب كبير، وكانوا

مأسورين في «القصر» بسبب ميولهم السياسية. كما رغبوا في تحرير السجناء المأسورين في «قصر إيف»، لكن آمر السجن رفض الإذعان لرغبتهم هذه في الوقت الحالي. جرى إطلاق إحدى وعشرين طلقة مدفعية على رصيف الميناء، وطلقة مدفعية واحدة في الساحة العمومية على شرف لويس الثامن عشر: عاش الملك!

قيل إن أحد الجزارين، لما عبرَ تمثال نابوليون النصفي أمام محله، مجروراً في الوحل، قام بحملِ طشت مليء بالدم، وأفرغَه فوق التمثال، وهو يقول له: خُذ، كنتَ تحب الدماء كثيراً، اشرب هذا الدم. ولكن ما بدا إيجابياً، وما كنتُ لم أشهده قط في السابق، هو أن بعض الرجال الأشداء، في ليلة الحماس الأولى، حملوا فوق أكتافهم قطعات خشبية، ووضعوا عليها براميل مشتعلة من الزفت، وراحوا يجولون بها في المدينة أربعة أربعة، وسط اشتعال نيران من الفرح؛ وهو ما كانت تعرفه المدينة في آلاف وآلاف من النيران المشتعلة (هذا ما أصاب كل بيت تقريباً، فيما أنيرت النوافذ طوال أيام ثلاثة متواصلة)، وسط مباهج الرقص، على إيقاع الطبول، في جميع الساحات العمومية. بدأت هذه الاحتفالات يوم الخميس في 14 أبريل، واستمرت أيام الجمعة، والسبت، والأحد، والاثنين، من دون أي ارتباك.

في مساء الخميس، رغبوا في إسقاط التمثال النصفي الموضوع في واجهة القصر البلدي، إلا أنهم خافوا من إفساد زينة الواجهة، فاكتفوا بوضع حبلٍ حول عنق التمثال، وأبقوه على هذه الحال طوال الليل. أتيح لكل واحد رؤية مظهره على هذه الحال، طالما أن أحداً لم ينم في مرسيليا في هذه الليلة، بين الرابع عشر والخامس عشر. وانتهى بهم الأمر إلى كسر التمثال النصفي، بعد أن عجزوا عن

انتزاعه من قاعدته. لقد قاموا بإزالة جميع النسور الإمبراطورية، ولا سيما فوق ينبوع المياه في «لاتور»؛ جرى مسح اسم نابوليون من كل مكان؛ وأُضيفَ اسم البوربون على طريق النزهة التي كانت تحمل اسم الطاغية الكريه.

يوم السبت، في 16 منه، خفَّ الحماس الشعبي إثر ورود أخبار مقلقة من تولون. قيل إن الجنرال ماسِّينا أوقف البريد الحامل خبر إسقاط بونابرت، وإنه أغلق بوابات تولون، وإنه أراد من ذلك حفظ المكان، وحماية الكنوز الموجودة فيه، لمصلحة الإمبراطور السابق. إلا أن مظاهر الفرح ما لبثت أن تغلبت على مشاعر القلق، على الرغم من هذه الجيرة السيئة، لكنها تحولت إلى مظاهر دينية.

في العاشرة صباحاً انطلق زياح في المدينة في اتجاه كنيسة السيدة...

فيما كان يجري هذا في جانب من المدينة، كان العمدة قد توجه صوب الفرقاطات الإنكليزية، التي كانت قد اقتربت من ضفافنا، واضعة العلم الأبيض، وتمَّ استقبالها بإحدى وعشرين طلقة مدفعية. بعد تبادل اللياقات والقبلات، أكد القومندان الإنكليزي بشرفه العسكري أن لا وجود لمرضى الطاعون بين صفوفهم، فتمت إذ ذاك دعوتهم للنزول إلى المدينة من دون المرور بالمحجر الصحي، للراحة والمشاركة في المراسم الدينية في مناسبة الحدث السعيد. قبلوا الدعوة، ونزلوا على اليابسة.

المدينة أتت برمَّتها إلى رصيف الميناء لمواكبة نزولهم على أرض المدينة. أما صيحات: يحيا الملك فكانت تنطلق من كل حدب وصوب. كان الجميع يتدافعون حول الجنود الإنكليز. كانوا

يرغبون في تقبيلهم علامةً على السلام والاتحاد؛ بل كادوا يخنقونهم من فرط العناق. . . وجدَ الجنود مشقة بالغة في الوصول إلى الكنيسة.

بعد المراسم الدينية، انطلق الموكب العام الذي شاركت فيه جميع السلطات المحلية، ما خلا تيبودو اللعين، الذي التجأ إلى تولون، على ما قيل، مخبراً ماسِّينا أننا قمنا بانتفاضة، وأننا نذبح بعضنا البعض. . . إلخ.

ثم انصرفَ اهتمام الجمهور إلى الإنكليز، فطلبوا منهم ركوب إحدى عربات الجنرال دو مي، لكي يتمتعوا بمباهج النزهة. كانت العربة مكشوفة، جلس فيها بعض الضباط الإنكليز مع بعض أهل المدينة، فيما كان يحمل هؤلاء العلم الأحمر، والإنكليز العلم الأبيض، ملوحين بها في الهواء، ما جعل الأعلام تختلط فيما بينها علامة على حصول السلم والاتحاد، وتتعالى صيحات الشعب صوب السماء: يحيا الملك، يحيا الحلفاء!

حشدٌ كبير يحيط بالعربة، فيما كانت الأحصنة أقرب إلى أن تكون محمولة، أثناء تنقّل الموكب في أنحاء المدينة المختلفة، من «الساحة» إلى «الكانوبيير» وغيرها. كان الضباط الإنكليز يقاسمون أهل مرسيليا هذه الفرحة العامرة، وكانوا يقفون في المركبة في الغالب، وهم يصيحون: يحيا الملك، ملوحين بأعلامهم البيضاء. . . كان المنظر رائعاً، ولا سيما في الساحة العمومية، حيث توقفوا مطولاً، ملبين طلبات الجمهور، الذي وزَّع عليهم بعض الأطايب، ولا سيما أمام «مقهى ميرنتي».

في يوم الأحد، في 17 منه، أبطلَ المطر مشروعَ إحياء قداس احتفالي في كنيسة السيدة. . .

الجنود الإنكليز يتجولون في المدينة على أرجلهم. هم أكثر هدوءاً من يوم أمس، فيما لا تفارقهم الحشود أينما حلوا، ولا الصيحات: يحيا الملك، يحيا الحلفاء...

منذ أربعة أيام، الشعب سيِّدٌ حتماً، ولكن من دون أن يفرِّط بسيادته هذه. منذ أربعة أيام، الجميع يحتفل بالعيد. ما يجعله، مع أعياد الفصل الثلاثة، عيداً متصلاً من سبعة أيام. هذا ما لم يحصل قط فيما مضى، وأعتقدُ بأننا لن نعايش شيئاً مشابهاً لحماس الأيام الأربعة الأخيرة.

يا لها من أيام سعيدة! يا لها من أيام لا تُنسى: 14، 15، 16 و17 أبريل من سنة 1814. فلتكن محفورة في تاريخ مباذخ مرسيليا، مثل فجر السعادة، بعد خمس وعشرين سنة من أيام السوء.

يُقال إن بونابرت مرَّ بآكس مساء 26 أبريل، لبلوغ مدينة فريجوس، ومنها إلى جزيرة ألب. في الليلة عينها، وصلت إلى مرسيليا عربة بأربعة جياد، ظنَّ البعض أنها تقلُّ بونابرت، فتجمعوا حولها، وراحوا يصيحون: يحيا الملك، وأرادوا التعرُّف إلى هوية راكبها، فإذا به أحد الكرادلة متجهاً إلى روما. أُنقذ رجل الدين من ورطة محققة، لأن الشعب مغتاظ للغاية من الطاغية.

يوم أمس، يوم الأربعاء في الرابع من شهر مايو، بلغنا خبر وصول محبوبنا الملك لويس إلى أرض فرنسا... وشهدنا في مرسيليا حدثاً قاسياً للغاية مما تعرفه هذه الأيام. راعية، واسمها باستريس، وضعَت طفلاً بطريقة سرية، خلف «شارع قصر بل-إير»، فيما كانت تبدو كبيرة البطن وحسب. حين تخلصت من الوليد، قتلَته ضاربة رأسه بحجر كبير، بل أكد البعض أنها طعنته بمقص، لعدم وجود أدوات مؤذية غيره في متناولها، ثم وضعته في فجوة، وطمرته

بأحجار كبيرة، ثم عادت لتنام في غرفتها في «شارع الرعاة». تنبَّه أطفالٌ، أثناء لعبهم، لوجود الطفل الميت، بعد أن استوقفَهم طرفٌ من قدمه، فراحوا يصرخون. تجمَّع الناس، واستخرجوا الطفل من موضعه، وتكفَّل حرس المدينة بالمسألة.

بعد العديد من الأسئلة، تكشَّفت بعض خفايا هذه القصة، فتمَّ الإتيان بالراعية، بعد أن كانت قد خرجت من غرفتها، لما علمت بانكشاف جسد الطفل، وراحت تعمل كما لو أن شيئاً لم يحدث لها. تمَّ استجوابها، فأنكرت فعلتها، إلا أن القاضي توصَّل، مع أحد الأطباء الجراحين، ومع قابلة قانونية، بعد الكشف الطبي عليها، إلى التأكد مما قامت به، فأذعنت للاعتراف. جرى نقلها إلى المستشفى، وسط حماية مناسبة، طالبين من ذلك أن يكون عبرة لغيرها، لأن مثل هذه الحوادث تتكرر كثيراً في هذه الأيام.

الفصل الثاني

ثلاثة أيام تكفي لقتل «مماليك» بونابرت

اختفى الطاغية، لكنه ما لبثَ أن ظهرَ من جديد، «مثل البرق الخاطف»، كما قال لي أحد مدعوي مأدبة السيد ريمون يوم أمس. وأخبرنا آخر، من ليون، أن كثيرين من أهل المدينة كانوا يتناقلون أخبار عودته الظافرة. لم ينقضِ عشاؤنا على خير، إذ بلغتنا من أمام الفندق أصوات رصاص: كانوا متجمعين، صاخبين، لما وصل إليهم أحد «المماليك»، وأخبرهم أن بستانياً ساكناً بالقرب من الفندق كتب على حائط البيت: يحيا الملك. عندها انطلقوا للبحث عنه، فيما كان البستاني المسكين مشغولاً بحراثة أرضه. سألوه، بداية، ما إذا كان هو كاتب الشعار، فأجابَهم إنه لا يحسن القراءة ولا الكتابة، ما يعني حكماً أنه ليس بالفاعل. طلبوا منه إذ ذاك مسحَ المكتوب، إلا أنه رفض، فبقروا بطنه بالسيف. وقعَ تعيسُ الحظ أرضاً، وسقطت أمعاؤه إلى جانبه... عندها دخل هؤلاء الشجعان إلى بيته، وسلبوا ماله، وخربوا الجنينة، ثم حملوا معهم كل أدوات الحراثة التي من حديد، وعادوا من جديد إلى مناصرة رفاقِهم، محطمي واجهات المحال التجارية.

في 26 مايو صباحاً من سنة 1815، استيقظنا مذعورين إثر

سماع ضربات مدفعية قوية. خلتُ أن في هذا استمراراً لمشهد ليل أمس... لكنه لم يكن كذلك. إنه عيد عسكري؛ سيتمُّ الاحتفال به من دون أن يكونوا قد أعلنوا عن ذلك، أو علّقوا إعلانات عنه؛ وهذا يعني بالتالي أن الشعب ليس معنياً بالقيام به. العسكريون وحدهم سيقومون بذلك، فيما يعلم الله وحده كم سيكون اليوم حاراً.

في واقع الأمر، صعدَت القوات العسكرية، من خيّالة ومدفعية، إلى الحقل الواسع، مصحوبين بأصوات الموسيقى العسكرية الحماسية تحديداً. كانت الشوارع خالية تماماً، إلا من قلة من الأطفال، ومن الشعب، في أعداد محدودة، ومن «المماليك»، والزنجيات، وبعض الأفراد المعروفين بأعمالهم الإرهابية. هنا أقاموا، وقاموا بحفلات تهريجهم، وزعقوا بأعلى الصراخ ما كانوا يريدونه... هذا فيما كانت كتيبة حرس المدينة متأهبة في مواقعها، مرتبكة من جراء أفعال هذه المجموعات، من دون أن تواجهها. إلا أن أزمة حادة أصابتهم لما راح هؤلاء الجنود، بعد أن أكلوا وشربوا ما طاب لهم إثر الاستعراض، يتوزعون في مجموعات صغيرة في المدينة، من مئتين أو من ثلاثمئة شخص، رافعين زجاجات الشراب بيد، والسيوف المسلولة باليد الأخرى، في حالة من السكر الشديد، زاعقين: ليحيا الإمبراطور، شاهرين السيوف فوق رؤوس المارَّة، داعين إياهم لمشاركتهم في احتفالهم الأخرق بعودة الطاغية إلى الحكم.

توزع حرس المدينة في مجموعات، كلُّ مجموعة من عشر أو اثني عشر جندياً في كل موقع، فيما كانت تتهددهم قوى متشكلة من ثلاثمئة أو أكثر من الجنود، في وضعيات تنذر بالشر المستطير،

فضلاً عن شراسة هؤلاء الجنود المعهودة، وقد ألهبتهم أحوال السكر وأحقادهم المعروفة. . . إلا أن هناك من الحرس من امتلكوا الحكمة والشجاعة، ورفضوا الإذعان إلى مناداتهم، وشعاراتهم، وأحدثوا بسلوكهم هذا معجزة هائلة إذ بقوا متأهبين من دون تهورٍ طوال الساعات الأربع والعشرين الأخيرة؛ بل رفضوا استفزازات الخيالة خصوصاً الذين قاموا بحركات بهلوانية مثيرة للاحتكاك العنيف.

في الوقت نفسه، كان ضباطٌ وجنودٌ يرفعون نصب بونابرت في مواكب جوالة في أحياء المدينة، تتقدمُهم الموسيقى العسكرية، والأغنيات التي راجت في عهد الإرهاب. أخيراً، انصرف الضباط إلى تناول العشاء، فيما عملَ جنود على تكسير واجهات المحال التي ما كانت تعلن في أسمائها الصفة «الإمبراطورية».

«شارع الكانوبيير» والساحة المحيطة ببيتي يغصّان بالجنود المشغولين بأفعالهم القبيحة، إذ كانوا يصعدون إلى الطوابق الأولى من كل بناية لنزع الإعلانات التجارية غير الموافِقة لهم. فيما كان سكان البنايات والمحال التجارية متحصنين في أمكنتهم، تبلغهم أصوات القرقعة، ولا سيما حينما كانوا يُقدِمون على كسر الواجهات، مقتطعين أجزاء منها، ولا سيما إن كانت من حديد، إذ كانوا سيقوون على بيعها وتحصيل بعض القطع النقدية الصغيرة من بيعها، وسط الصراخ الحاد: يحيا الإمبراطور. . . أمضوا فترة ما بعد العشاء في مثل هذه الأعمال.

(رافقني السيد ريمون إلى بيتي، وتنبَّهتُ إلى أنه ألقى التحية على أحدهم، وإذا بمتظاهرَين يرافقان نقلات خطواتنا المعدودة في اتجاه بيتي. لم أحتمل النظر إلى ما يجري، بل كنت أتحقق وحسب

من وقوع حذائي الهين فوق بلاطات الرصيف. لم أبادل السيد ريمون أي كلمة. . . لما وصلنا إلى مدخل البناية، أمسكني من ساعدي الأيمن، متفرساً في وجهي: لا تقلقي. . . أنا تاجر في نهاية المطاف؛ أنا صاحب فندق يرتاده أناس من الفريقَين، ولي أن أجد مع هؤلاء وأولئك علاقات تعارف. . . ثم توقفَ قليلاً عن الكلام، مبتسماً: هل السيد جيراردون في البيت لهذه الليلة، أم أنه مجنَّد في مهمة أمنية؟

لم ينقطع السيد ريمون عن التحرش بي: بالتفاتة بسيطة، بحركة مقصودة، بجملة نافرة، منذ تلك الليلة التي كدتُ فيها أن أنتهي في فراشه. لم أكن أعرفه في ذلك الحين، بل تحققتُ بعد وقت من أنه كان يعرفني، ويعرف بيتي. كان يعرف أيضاً أنني أرتاد الفندق القريب، الآخر، «فندق الأباطرة»، الذي كانت تديره السيدة سيسيل مرغريت بارو، زوجة روبين. في تلك الليلة البعيدة استبدت بي فكرة مجنونة، وهي السكر، قبل أن أواجه السيد بييزوني بالحقيقة القاسية، وهي أنني اكتشفتُ علاقته الغرامية بإحدى الممثلات. لم أشأ ليلتها الذهاب إلى المقهى القريب، ولا إلى الفندق الذي يقع إزاء بيتي، فمديرة الفندق تعرفني حقّ المعرفة وأتجنبُها. . . لم يبقَ غير الذهاب إلى الفندق الآخر، إلى السيد ريمون الذي استقبلني بترحيب أدهشني. هذا جعله يجلس إلى طاولتي، وراح يحدثني عن والدي الذي يعرفه حقّ المعرفة، بعد أن قام بتصوير هيئة والده، مؤسس الفندق، ووضعَها في صدر الصالون. أسلسَ الكلام معي، قادني إلى حيث اللوحة مرفوعة وحدها على الجدار، فيما توزعَت على الجدران الأخرى لوحات مناظر طبيعية و«طبيعة صامتة» ومنظر معركة بين خيَّالة. . . نسيتُ تماماً السيد بييزوني وحماقاته، ورحت أستعذب

ما يحادثني به السيد ريمون، الذي كان يتفنن في سرد حكايات وحكايات عن زواره العابرين، ممن يحلون لليالٍ قبل ركوب السفن إلى جهات بعيدة.

لم أحسن ليلتها عدَّ كؤوس النبيذ التي بلعتُها، إذ إنني لم أصُبَّ أي واحد منها، بل كان يسارع بخفة النادل في صبِّ الكؤوس تباعاً. هذا ما انتبهتُ إليه بمجرد وقوفي، بمجرد تهالك قدميَّ، إذ أراد مني رؤية لوحة أخرى لوالدي تقع في جهة خلفية من الصالون. أمسكني بيدي، ووجدتُني في غرفة نوم فسيحة، تتوسطها مدخنة مشتعلة. تداركني بقبلة قبل أن أتساقط على المقعد. لم أمانع، بل ضحكت ضحكة مديدة. كنتُ متمددة كما لو أنني جالسة. مدَّ يده إلى وجهي، فباعدتُها عني من دون قوة. . . كنت مسترخية، ملتذة بما كان يدبُّ في جسدي، من دون أن أتوقف عن الضحك. مدَّ يده إلى فستاني، وراح يرفعه إلى أعلى، فيما يتحسس قدمي اليسرى بنعومة بادية، وهو أشبه بالراكع أمامي. كنت مغمضة العينين. . . كان في مقدوره أن يطلب أي شيء مني، بل أن يفعل بي ما يشاء. حَرَجي اختفى من حيث لا أدري. كان في مقدوره، هو أو أي رجل آخر، أن يزور هذا الجسد المنسي، المهمَل، أن يتنزه فيه، لولا أن إحداهن دخلت إلى الغرفة من جهة خلفية: كوليت، الطباخة في الفندق.

لم ينجح السيد ريمون في إعادتي بعد ذلك إلى تلك اللحظة، حيث انقطعت حكايتنا من أولها. كنتُ في غفلة من أمري، لكنني اكتشفتُ أن لي جسداً، وأنه مجهول مني تماماً).

بات الوضع لا يطاق، إذ عمدوا إلى خلع الأبواب، وسرقة محتويات المحال، واعتقال بعض الأفراد ممن كانوا يتواجدون فوق

أرصفة الشوارع، فيما عمد بعض هؤلاء الجنود المهووسين إلى اعتقال ضابطَين من حرس المدينة، في الثالثة بعد الظهر، وإلى سوقهما مقيدي الأيدي، مثل مجرمَين شريرَين.

فيما يخصني، قررتُ، أمام هذه الأعمال الشنيعة، أن أخرج من بيتي، من دون أن أضمن سلامتي من سيف مسلول أو من اعتقال، بحثاً عن مأمن في حي أكثر هدوءاً. تنقلتُ من دون عائق، ولكن من دون أن تفارقني مخاوفي، عابرةً «شارع روما» بأكمله. كنت محظوظة لأنني لم أقع، في مساري، على أي من هذه العصابات المتوحشة، ونجحتُ في الاحتماء في مبنى عمومي، في «بوا دو لافارين»، حيث كنتُ على معرفة بأحد القيِّمين عليه. ولكن ما أن بلغتُ المبنى، وصلت إلى الشارع مجموعة من الجنود السكارى، وراحوا يهددون بعض الشبان الواقفين أمام بوابة المبنى، داعين إياهم إلى مشاطرتهم شعاراتهم الضاجة. ولم تنقضِ المواجهة بينهم قبل بقرِ بطون عدد من الواقفين أمام المبنى، فنشروا الرعب في هذا الحي كما في سائر أحياء المدينة. وما لبث البعض أن نجح في إقناعهم بأن المبنى حكومي، وأن عليهم احترامه، فأخلوا المكان مخلِّفين وراءهم عدداً من الجرحى.

خلال هذه المشاهد، كنا قد انعزلنا في داخل الشقق: زوجة مسؤول المبنى، والمربية، وسيدة أخرى، وأنا. كنا قد نصبنا في داخل الشقق حواجز بما استطعنا إليه سبيلاً، متوجسات وخائفات من اقتحام المكان في أي لحظة، من دون أي رجل إلى جانبنا، إذ كانوا في المدينة... ثم ما لبث بعضهم أن نجح في الالتحاق بنا، وأخبرنا أن الفوضى تعمُّ المدينة أكثر فأكثر، وأن الضباط مثل الجنود، المتعتعين سكراً، ينصرفون في صورة مزيدة إلى أفعال

شنيعة، من دون أن يصدر أمرٌ بانسحابهم من المدينة قبل الحادية عشرة ليلاً.

أمام هذه الحال، قررنا تمضية الليل معاً، فيما أعدَّ كلٌّ واحد منا أسلحته الخاصة بحيث يقوى على التضحية بحياته بأعلى الأثمان. أمضينا الوقت الصعب في تشجيع بعضنا البعض، وأخفينا مصادر الإنارة، وأبقينا النوافذ مفتوحة لسماع ما قد يحدث في الخارج. كانت تصلنا صراخات هؤلاء الأشقياء الكريهين، الذين زادت أعدادهم أكثر فأكثر، فيما كنا نميِّز، في زحمة الصخب، صراخ من كانوا يتساقطون قتلى أو جرحى.

ساورَني الاعتقاد، بعد سماعنا لطلقات رصاص غزير بين العاشرة والحادية عشرة ليلاً، بأن العراك بين حرس المدينة والجماعات المهووسة سيبلغ الأيدي، أو أن هذه القوات ستقوم بإعدام أعداد من الحرس رمياً بالرصاص من دون أي شفقة، أو أنها ستجتاح بيوت المدينة انتقاماً من أهلها... تأسفتُ لكوني لم أغادر بيتي، ومعي بعض المواد الشخصية الثمينة، من دون أن أكون أكيدة من سلامتي هنا أو هناك، ما دام أننا عرضة للسيوف أو الرصاص أو البلطات، إذ اشتركَ معهم أفراد من العاملين في إطفاء الحرائق.

أمضينا الليل كله على هذه الحال، بين الحياة والموت، مقتنعين بأن شوارع المدينة غاصة بالجثث، بعد أن بلغتنا لعلعة الرصاص لأكثر من خمسمئة طلقة. إلا أن الصخب خفَّ بعض الشيء بعد الحادية عشرة، واقتنعنا بأنهم فعلوا أفعالهم الشنيعة كلها، خصوصاً أننا لمحنا من شقوق النوافذ مرورَ العربات، في شارع «سان-فيريول»، التي تتولى عادة نقل الجثث. لم نعش سابقاً ليلة رهيبة مثل هذه، حتى في أيام «الثورة» نفسها، وهذا تحت أنظار الجنرالات:

برون، وفردييه، وموتون، وبيزانيه، وغيرهم ممن تمَّ تكليفهم حفظ الأمن في المدينة، وسلامة الناس، وترغيب الجمهور بمحبة بونابرت. بهذه الصورة جرى الاحتفال بالعيد العسكري، في 26 من الشهر الجاري، في مرسيليا. سيكون يوماً مشهوداً من دون شك في مباهج تاريخنا، ويشرِّف كل من له صلة نسب بفرنسا.

(في صباح 27 منه، كنت أتوقع سماع أخبار كريهة مزيدة عن أحداث الأمس، إلا أنه لم يبلغني شيء منها من السيد جيراردون، لما التحقَ بي في الشقة التي اختبأنا فيها، والتي تعود إلى أحد معارفه. قادني بنفسه إلى شقتنا، أي التي باتت شقته أيضاً، وقد تنبهتُ إلى كونه يعتني بي، ويخاف علي، لا مثل السيد بييزوني، الذي كان يخوض المغامرات العسكرية بحثاً عن نجوم جديدة، وعن من يعجبون ببريق نجومه من النساء الساذجات. يعتني السيد جيراردون بي، بامرأة تكبره سناً بأربع سنوات، ولا يستوقف جمالُها العابرين في شارع، فيما اعتنى السيد بييزوني بإغراء أكثر من خادمة!

وجدتُني، في الشقة، أعتني بدوري بالسيد جيراردون، إذ أخبرته بما قاله لي مدير الفندق، وكيف أنه يتدبر أمره مع زبائنه المختلفين. توقفتُ عن الكلام قليلاً، فيما كنت أراقب تعابير وجهه، وعندما لم يستكمل الحديث تابعتُ قائلة: يجب أن تنتبه بدورك إلى ما تقوم به مع حرس المدينة... من كان يصدِّق أن هذا المجنون سيعود إلى الحكم!

قبَّلني بهدوء قبلة واحدة، وأردف قائلاً: لعلكِ قبلتِ بي زوجاً من دون علمي؟ ضحكتُ، من دون أن أجيب. تابع ضاحكاً، هو الآخر: حالي أقل اضطراباً من حال السفير شارل ريفيير... انتُدبتُ

لحمايته يوم أمس: محتَجز في مرسيليا، لا يقوى على ركوب السفينة والإبحار إلى إستانبول لتقديم أوراق اعتماده. . . باسم أي حكومة عليه تقديمها؟! أينتظر سقوط الطاغية من جديد؟ هذا ما طرحتُه عليه من دون أن يجيب بدبلوماسيته المعروفة، إذ قال لي: أنا في خدمة الدولة في جميع الأحوال.

وحده السيد جيراردون اقتربَ مني، من جسدي، اقتراباً بطيئاً، عذباً، لدرجة أنني لم أمانع في بقائه إلى جانبي في أي ليلة يشاء. كان يصعب عليَّ قبول رجل في فراشي منذ زواجي. لم أسمح للسيد بيزوني بذلك في ليلة عرسنا، ولا في الليلة التالية. كنتُ أشبه بعشيقته في بيتنا، في هذا المرفأ الذي يحلُّ فيه لأيام في طريق العودة إلى مغامرة عسكرية أخرى. كان يستعجل في الإنجاب لسبب لا أعرفه. وكنتُ لا أحسن حينها التمييز بين الإنجاب وبين اللذة.

السيد جيراردون هو الذي جعلني أستمع إلى جسدي، بعد أن سمحتُ له - في مرات مختلفة ومتقطعة - من أن يتحسس جلدي، وأن يعزف بأصابعه على أوتاري، فيما تتعالى أصوات نشيدٍ ما كنت أعلم حتى بوجوده. . . علَّمني كيف أحب جسدي، إذ أقنعني بأنني كنتُ أكرهه، وأخجل منه).

مخاوفي الليلية لا تساوي على أي حال جردة حساب القوى الأمنية: وحده البستاني في الجنينة كان في عداد القتلى، على ما قيل لنا. أما عن طلقات الرصاص الغزيرة التي بلغتنا أصواتها فقد كانت رصاصات الابتهاج في الثكنات، على ما قيل أيضاً. أما السوء الأكيد فقد شمل عدداً من الجرحى، وأهانَ أفراداً وأفراداً، وكسرَ أبواباً وأبواباً، وحطمَ زجاجاً كثيراً، ونشرَ الهلع بين السكان. كما تحققنا

من وجود أربعة مدافع على مقربة من الساحة، قبالة بيتي، ومن وجود رجال وأحصنة في غير مكان قريب، وانتشار بين مئتي وثلاثمئة جندي في «الكانوبيير»، فيما المحلات مقفلة كما في الأمس، والسكان قابعون في بيوتهم، أو لاجئون في الريف، والمدينة محاطة من خارجها بمجموعات من الكتائب العسكرية. وكل هذا بهدف اعتراض أي نجدة قد تبلغنا من القرى القريبة، فيما تعلو فوق حيطان المدينة إعلانات تدعو إلى تجريد حرس المدينة من سلاحهم. . .

هذا ما كانت عليه الأوامر في 27 منه. في المقابل، تمَّ فرضُ رفعِ الأعلام الثلاثية الألوان على النوافذ، بما فيها نافذتا الواجهة في المبنى الذي أسكن فيه. ضباط وصلوا إلى المبنى، وطالبونا بزيادة عدد الأعلام في صورة عاجلة؛ وما استعادوا هدوءهم إلا بعد أن تأكدوا من رفع علمَين في كل طابق. على هذه الشاكلة أُرغمت المدينة كلها على صرف أموال لرفع هذه الأعلام «الثورية» بأعداد كبيرة، حتى إنني اضطررت إلى تدبير عَلَم بنفسي. على أي حال، كان يوم 27 منه أكثر هدوءاً من يومَي 26 و25 منه، لولا منظر الزينة الكريهة التي كانت تشمل الساحة و«الكانوبيير». إلا أن الحال كانت تختلف في المساء، إذ كان ضباط وجنود يُجبِرون سكان البيوت على إشعال المداخل على الرغم منهم في أحوال كثيرة. . . كما عمدوا بين الثالثة والرابعة والنصف فجراً إلى عزف أناشيد ثورية معروفة، ما أقلق الناس بصورة مزيدة من دون أن ينعموا بساعات النوم المستحَقة. كما علمتُ أنهم اعتقلوا السيد لاجيه-تمبيت.

يوم الأحد الواقع في 28 منه لم يكن عيد الرب، بل حلَّ الوجوم عينه أينما كان في المدينة. إنه اليوم الرابع على التوالي الذي

تُقفلُ فيه المحال التجارية. المدافع لا تزال في أمكنتها، مربوطة بأحصنتها، والجنود منتشرون أينما كان، ما يمنع في صورة مؤكدة قيام الزياح الاعتيادي في مثل هذا العيد.

مضى يوم الأحد بشكل هادئ: توجَّه كثيرون إلى القرى المجاورة، ومن بقي منهم في المدينة فذلك لعدم وجود مكان يحتمون فيه في هذه الأحوال. لا نرى غير الجنود في الشوارع. . . فيما جرى تنظيم موكب يتقدمه نصب الإمبراطور المحمول: كان مرفوعاً من قبل أربعة أفراد معروفين بهذه الأعمال، ويتبعهم أفراد من «المماليك» مع زوجاتهم، وبعض الزنجيات والأطفال الذين جرى توزيع قطع نقدية عليهم لكي يصرخوا: «يعيش الإمبراطور». إلا أن دهشتي كانت فظيعة لما انتبهتُ إلى سير الخادمة المصرية التي تعمل في بيتي وفي الفندق أحياناً مع المشاغبين: هل قبضَت بدورها بعض قطع نقدية لكي تشارك في الزعيق؟ أهي تعرف تماماً معنى الكلمات التي تتلفظها في الشعارات؟ هل بات في مستطاعها تحديد ما هو صالح لبلدي أكثر مني؟!

في المساء، في السادسة، تمَّ سحب المدافع، والقسم الأكبر من القوات، ثم انسحب الخيالة بعدهم. . . حتى الأشجار في الساحة تضررت بدورها، إذ إن الأحصنة عاثت فيها تقطيعاً وخراباً. جرى تنظيم الانسحاب بعد أن تأكدوا من خضوع المدينة، وبعد أن قام الحرس فيها بتسليم أسلحتهم من دون مقاومة تذكر. جرى سحب البعض، وجرى ترفيع البعض الآخر ممن أعلنوا ولاءهم للإمبراطور، فيما لم تُقبَل استقالات البعض الآخر. . . هذا ما يدعو إلى السؤال: أيٌّ منا هو الأشرف؟ أهو الذي أقدم على الكسر والخلع أم الذي قنعَ راضخاً لما يصيبه؟

لحظات من الهدوء، إذن، بعد هذه العاصفة التي وصفتُ. إلا أن مسلسل التوقيفات لم ينقطع: السادة باين، وتارديو، ولاغيه-تمبيت، وهم الثلاثة المعروفون أكثر من غيرهم، اقتيدوا إلى «شالون-سير-سون»، فيما جرى اقتياد غيرهم إلى حصن «لامالغ»، أو إلى «قصر إيف» وغيرهما...

يوم السبت، 3 يونيو، انسحبت أعداد كبيرة من جنود الثكنة، واتجهت صوب الحدود، حيث حشد «الحلفاء» قواتهم... نتنفس بعض الشيء في المدينة، إذ نرى هذه العصابات من المتوحشين تبتعدُ عنا... إلا أن خادمتي المصرية غابت اليوم، على غير عادتها: هل خافت من اجتماع «الحلفاء» العسكري وتهديدهم لحكم بونابرت؟ هل اكتفت بنقود الأيام الأخيرة في أعمال الشغب أم أنها انسحبت مع من انسحب من مؤيدي الطاغية؟ إن صح ذلك، فهي تكون أشبه بحقيبة محمولة: يحملونها معهم، عند رحيلهم من مصر، أو عند رحيلهم من فرنسا...

في ليل الاثنين-الثلاثاء في 6 يونيو منه، عاصفة هائلة أصابت المدينة، مصحوبة برعد شديد... لم يُحسن السيد ريمون جواباً عند سؤالي له عن غياب المصرية: غابت عن الفندق أيضاً... حتى الطباخة كوليت لم ترَها منذ أيام، مع اقتراب سكنيهما في «ميدان غوفيه».

(...) لا يزال الوجوم مقيماً في المدينة في 15 يونيو. مرسيليا مقفرة. لا نرى أحداً في الشوارع. النساء اللواتي لا يملكن أسباباً للخروج من بيوتهن، مثل الرجال، يقبعن في بيوتهن، فيما يتمُّ وضع مدافع وأسلحة هنا أو هناك لاتِّقاء هجوم وشيك، ذلك أن الشائعات

تجتاح المدينة بأن الجنرالات الحاكمين فيها عاقدو العزم على سحب أموالنا منا، وعلى تجنيد الرجال في المعارك القريبة...

ها هي، واقعاً، رغبات رجلٍ واحد، وهي تتعارض مع الكون بأجمعه.

بات السيد جيراردون «مُخبري» في هذه الأيام المضطربة، حتى إنه جلب معه ليل أمس جدولاً من الأحداث الأمنية والمتفرقة في المدينة؛ وأمضيتُ الليل بكامله في تدوين المعلومات، لكي يستعيد الجدول في الصباح، ويعيده إلى المديرية الأمنية:

- وجدوا لويز فيليام بونتو (26 عاماً) مشنوقة في غرفتها، في الطابق الثالث من المبنى رقم 2 في «شارع بوفو»، في 11 مارس من سنة 1815.

- أُعدم أندريه مارتيل (21 عاماً) رمياً بالرصاص، وجرى التحقق من موته في مستشفى «أوتيل ديو» في السادسة مساء من يوم 16 مارس.

- ماتت مرغريت بوريه (70 عاماً) في 17 مارس، بعد أن وقعت من الطابق الخامس، من غرفتها في 20 شارع «البئر الكبيرة».

- وقعت عربات البريد في مهوى سحيق، قبل وصولها إلى مرسيليا، ما تسببَ بعدد من الجرحى، فيما قضى واحد منهم.

- مات بروسبير موليه (65 عاماً)، التاجر السابق والمُرابي، بعد أن سقط جريحاً في 26 أبريل، وتوفي في اليوم عينه في مستشفى «أوتيل ديو».

- البستاني القتيل، جان فرنسوا روميزي، يقيم في 38 من «ميدان غوفيه»، وكان متزوجاً من أنجيليك ماريان جوزفين

روفاتو، أما قاتلاه فهما: جورج أنجيلي، وجان-جوزيف، من «المماليك». . .

كانت الليلة رهيبة. لعلعَ الرصاص في كل ناحية من المدينة؛ ومن كان منا محبوساً في بيته كان يتألم أكثر ممن كانوا يعيشون وسط المخاطر، لأنهم كانوا - إذ يبلغهم هذا الصخب - يكابدون الأوجاع ويتألمون من جرائها أكثر مما كانت عليه.

أخيراً انبلج الفجر، وخففَ من نواغصنا. عرفنا أن الفرقة انتقلت من مواقعها، وأنها تعرضت لهجوم من القوى العسكرية؛ وقد كان من الأفضل لو نجحت هذه القوة المؤيدة لعودة الملكية في تجريد الفرقة من سلاحها من دون أن تقتل أي واحد منها، بدل أن تتركها تُخلي أمكنتها حاملة معها أسلحتها وعتادها: اتجهوا إلى تولون، حيث لهم أن يتحصنوا؛ كما أن قادتهم اتَّخذوا الوجهة عينها، وأنقذوا أنفسهم مما تورطوا فيه. جرى إطلاق الرصاص، أثناء الانسحاب، على عربات فردييه ولوكونت وغيرهما من عملاء بونابرت، الذين ما لبثوا أن اختفوا من دون أن يلحق بهم أي ضرر، بل نجح فردييه في الردِّ على الرصاص الذي تعرضت له عربته. وحده السيد فروشو، محافظ المدينة، لم ينجح في الهرب في تلك الليلة؛ ثم رحل في اليوم الذي تلا، في وضح النهار، ورافقه الجمهور بتحيات الوداع لأنهم لم يتكبدوا من إدارته أي سوء.

في 26 من يونيو، كان الغليان قد بلغ أشده. الشعب، مدعوماً من القوات المؤيدة للملكية، راح يتقدم في اتجاه البيوت المعروفة بأن شاغليها ينتمون إلى حزب بونابرت (وهو ما أصاب عدداً من البيوت منذ ليلة أمس)، ألا أن التعرض للبيوت هذه زاد في هذا

النهار. كان يتمُّ رمي الأثاث من النوافذ، وتجري عمليات كسر، كما كانت تحصل عمليات حرق لكل ما كانوا يقعون عليه، فلا يبقى في البيوت سوى جدرانها... إلا أن غالب هؤلاء كانوا قد فروا من بيوتهم؛ ومن تمَّ اعتقالهم تعرضوا لمصير سيئ... أحدهم، بيسيير، المعروف بكونه إرهابياً منذ وقت بعيد، اعتقلوه في بيته، واقتادوه إلى الساحة القريبة، على الرغم من محاولات حرس المدينة الحثيثة لإنقاذه، بعد أن نجحوا في سحبه إلى مقهى مجاور؛ إلا أن الغاضبين اقتادوه من جديد إلى الخارج، وأعدموه بالرصاص في وسط الساحة من دون أي محاكمة. هذا ما شاهدتُه بأم العينين: شاهدتُهم يسوقونه إلى الساحة، ويُسقطونه قتيلاً. كما حاصر المهاجمون سيدتين زنجيتين - هما اللتان تبعتا نصب بونابرت حين تمَّ التجوال به في المدينة -، ولم يشفع بهما كونهما سارعتا إلى تقبيل التمثال النصفي للملك، الذي كانت البائعات في الساحة قد عرضنه من جديد في واجهات محلاتهن، من دون أن تنجح الزنجيتان فيما رغبتا في فعله، إذ إن البائعات أبعدتهما عن التماثيل لأنهما غير جديرتين بهذا الشرف. عندها، راحت الجموع تمعن في ضرب الزنجيتين؛ وجرى إعدام واحدة منهما في «ساحة مارُن». أما الثانية فقد راحوا يجرونها صوب «كي-دو-بوف»، وجرى رميها في المياه؛ وبما أنها كانت تمعن في المقاومة، فقد تمَّ رميها بالرصاص. قاموا كذلك بإعدام ثلاثة آخرين في الساحة. انقضى غالب النهار في عمليات مثل هذه. إلا أن المدفعيين، وقد استعادوا مواقعهم وأدوارهم بصورة شرعية، نصبوا المدافع في الساحة، لكي يفرضوا على الحشود التوقف عن أفعالهم. عاد الهدوء من جديد، إلا أن هناك إعدامات أخرى جرت في أمكنة بعيدة. نجح بعضهم في الهرب، مثل بلين الشهير، لكن

بيته لم يسلم من التخريب، فيما أشفقوا على حال زوجته لأنها لم تكن تشاركه عواطفه هذه.

(في صباح 27 منه، كان الوجوم مطبقاً على المدينة. عرفتُ، اليوم، من السيد جيراردون خبر وفاة السيد بيزوني في 13 يونيو منه، قبل أيام وحسب على خسارة قائده، بونابرت، معركته الأخيرة: أخيراً اختفى الطاغية الكبير، وانتقل إلى جزيرة النسيان والإهمال، وانتقل الطاغية الصغير إلى حساب ربه العسير، ما يجعل حياتي مقبلة على هناءة أكيدة.

أنا وحدي منذ أكثر من يوم، حتى إن السيد جيراردون مرَّ مرور الريح، ريح «الميسترال» في مدينتي: انقلبَ حكم الطاغية من جديد، والسلطات المؤيدة للملكية تستعيد مراكزها وهيبتها... لا يجوز أن يبدو عليَّ أي تلكؤ في مهامي.

لحسن الحظ توافقنا منذ زمن على مواقفنا، فلا يدخل الشقاق إلى سريرنا، كما عرفتُ عن أحوال بعض الزيجات. الطاغية لم يترك زاوية هادئة في أي بيت منذ عشرين سنة. البعض حملته الحمية، مثل زوجي، حتى إنه غامر مثله بكل شيء، لكنه مات قبل أن يشهد هزيمة قائده الحاسمة في واترلو.

سريري بارد. وأيامي تنقضي خلف النوافذ الثلاث، من دون أن أُسلِّم تماماً بما تقوله الصحف، إذ هي تنقل الشائعات، ولا تقوى بطبيعة الحال على سبر عقل رجل واحد، وعلى كشف خططه الجهنمية. زيارتي يوم أمس للفندق لم تخفف من مخاوفي، إذ لم ألتقِ فيه بالسيد ريمون: أهو هرب مع أتباع الطاغية؟ أشكُّ في ذلك... هو أدهى من أن يفعلها. لما طلبتُ أحداً في الفندق

لاستفساره عن الأمر، وجدتُ الطباخة كوليت تقف أمامي. لم تُحسن جواباً على ما سألتُ؛ لا تعرف ما تقول حتى عن الخادمة المصرية، جارتها في «ميدان غوفيه»...

وقفتُ مثل غيري أمام مبنى البريد، لصيق الفندق، أنتظر مجيء عربة حاملة لأخبار أكيدة، أو لتعليمات أو أوامر من الحكومة الشرعية... وجدتني أبادل هذا وذاك أقوالاً متقطعة، متفرقة، لا رابط لها، ما جعلني تائهة، بل بلهاء. وجدتني أنتظر، أبحث، أتفرس، ما دام أن وجهتي تترنح مثل السكير الذي وجدته، في صبيحة هذا النهار، يخرج من المقهى المجاور، من دون أن يبالي بشيء. كان يدندن أغنية فاحشة، معروفة، مكتفياً بتلفظ بعض ألفاظها، فيما يُسقط غيرها. اقتربَ مني بثقة لا تشير إليها قدماه المرتخيتان: أتصاحبينني في شرب كأس أخرى؟ وعندما لم أُجبْ، بل ابتعدتُ خطوات لتحاشي رائحته المتصاعدة، تابعَ دندنته، مغيِّراً وجهته، وهو يقول لمن يسمع من دون شك: يا لكم من حمقى! يا لكم من حمقى!

اجتزتُ بلاطات «الميدان»، واتجهت من دون قرار صوب «فندق الأباطرة». كان مقهاه الداخلي يعج بالنزلاء، بخلاف فندق السيد ريمون. السيدة المديرة خفَّت لاستقبالي، واستأذنتني بالجلوس إلى طاولتي. لم أعترض، إذ إنني كنت مشغولة برؤية زبائن وهيئات وحقائب لم أكن معتادة عليها. أمام تجوالي بين هذه الهيئات والأشكال، أجابت السيدة على أسئلتي المتدافعة في صمتي: أنا في ورطة... لم يكن محسوباً لأكثر من نزيل البقاء في الفندق طوال هذه الأيام، والأسابيع أحياناً... لا يقوون على ترك الفندق، ولا على ركوب السفن المغادِرة، ولا على دفع المتوجب عليهم أحياناً...

لم أبادلها سوى همهمات خفيفة، تاركة لها سرد ما تريد. كنت أشبه بمن يزدرد على عجل ما يقع عليه نظره من مشاهد أوجدتني في قلب أحداث كانت على مقربة مني، وبعيدة عني. كان في ودّي أن أستوقف هذا أو ذاك لسؤاله عما يترقبه من الهجرة. فأنا لا أملك مثل هؤلاء الرغبة أو الجرأة على الرحيل. لم أرغب حتى في الانتقال إلى بيت ابنتي في المدينة القريبة، ولو لأيام. كان في ودّي أن أدعو هذا أو ذاك للجلوس، على أن أدوِّن في دفتري، الذي لا يفارقني، ما خلَّفَه وراءه، أو ما يتطلع إليه في منتهى رحلته.

لم تَبقَ السيدة المديرة معي، وأنا لا أجيبها أو لا أشاركها أي محادثة، ظانَّة من دون شك أنني لم أغفر لها فعلتَها القبيحة مع السيد بيزوني، التي ترقى إلى سنوات بعيدة: لعلها تظن أنني غاضبة بعدُ على فعلتها، وهي أنها كانت تؤجر إحدى الغرف لزوجي لقضاء أوقات متعة مع إحدى الممثلات. لا، يومها كنت غاضبة من نفسي، من حماقتي، من قدرتي - حينها - على تصديق ما كان يقوله لي عن أنه يعمل في الاستخبارات، وأنه يواقع إحدى الممثلات بحجة استجلاب أخبار عن أحد النبلاء، عشيق الممثلة الرخيصة. كان في ودّي أن أقترب من السيدة المديرة، وأن أعتذر عن فعلتي السابقة، لولا أنني كنت أبية، لا مثله ومثل غيره ممن تحولوا إلى أناس ضعفاء، من دون كرامة أو إباء: يتحدثون عن العزة، وهم صغراء!

السيدة المديرة أتت بنفسها بفنجان شاي مع لطائف من الحلوى إلى طاولتي، من دون أن تتفوه بكلمة. كادت أن تبتعد لولا أنني ناديتُها، وشكرتها، وطالبتها بالجلوس: أنا آسفة لما قلتُه قبل سنوات... لم تكوني المقصودة... كنت أشتُم نفسي).

أخبار جديدة ومتناقضة تنتقل بين السكان في الأيام الأخيرة من شهر يونيو: ادَّعى البعض أن باريس أعلنت كونها جمهورية قائمة بنفسها، وأنه جرى في ليون إعلان تنصيب ابن بونابرت باسم: نابوليون الثالث، وأن مرسيليا ستشكل ناحيةً مدافِعة عن الملكية، وستواجه بالتالي القوات المتمركِزة في تولون وغيرها، فيما راجت أخبار أخرى، منها أن ليون لا تزال ترفع العلم الأبيض، وأن باريس لا تزال في انتفاضتها... وسط العتمة الكالحة، جرى إرسالِ رسالة إلى الإنكليز تدعوهم إلى مساندتنا.

في التاسعة صباحاً، جرى رفع الجثث فوق عربات، ومنها جثث عدد من «المماليك»، ممن جرى الكلام سابقاً عن أفعالهم في الساحة.

في 27 منه، تمَّ استدعاء حرس المدينة القديم في الساعة الواحدة بعد الظهر. كما استعاد الضباط والقادة رتبَهم من جديد، فيما هرب السابقون أو اختفوا عن الأنظار. أما من جرى تجريدهم من السلاح فقد ظهروا من جديد من دون أسلحة، على وعد أنهم سيتسلحون مرة ثانية. إلا أن رسالة وصلت من ليون، قبل قليل على استعراض القوات المشكلة من جديد، أفادت أنه جرى شنق بونابرت وسائر أفراد عائلته في باريس، و800 من أتباعه. عندها اندلعت الفرحة بين الجموع، وتوجهوا إلى حيث مكان العرض العسكري، وانطلقت معهم الأناشيد، والصيحات، والرقصات، وما أوقفَها قليلاً إلا ضربات المدافع التي أعلنت الإفراج عن سجناء «قصر إيف».

كان العرض رائعاً. كانوا يحيطون بالجنود، ويتبادلون معهم التهاني والقبلات... حالة الحماس شغلت الجمهور قسماً كبيراً من النهار، أما بقيته فقد خصصت لعودة السيد دو مونتغران الظافرة

بوصفه عمدة المدينة السابق، فيما كانت الحشود تحيط به، وتجرُّ عربته كذلك وسط الصراخ: «عاش الملك. عاش مونتغران». هكذا انتقلوا معه في أحياء المدينة المختلفة، ولا سيما في «الميدان»، قبل أن يعيدوه من جديد إلى بيته، من أجل أن يتأكد الجميع، ويفرح برؤيته وعودته؛ وهو شرفٌ مخصوص بأبناء الدم النبيل وحدهم، إلا أن عمدة المدينة نعمَ به اليوم لموقفه المؤيد للملك.

ما زاد من مشاعر الناس هو أن الطقس الرائع واكبَ حراكهم في الأيام العشرة الأخيرة: ريح «الميسترال» كانت، في ليلتَي 25 و26، أشبه بضربات مدفعية، ما زاد من هول الفاجعة. وهناك أناس ورعون، بل مهووسون بالسحر، اعتقدوا بأن الشياطين هي التي تملكت أرواح بونابرت وجماعته، وراحت تنتزع أعضائهم، ما يجعل الريح تصفر بهذه الشدة، ويجعل هذا الحراك عملاً خارقاً ومثيراً.

في 28 صباحاً، بلغتنا أخبار عن تصفيات دموية مزيدة حصلت في الليل، إلا أن حرس المدينة بذل مجهودات فائقة لإيقافها ومنعها. جرى سَوق المشبوهين، المعتقَلين، إلى «القصر» إثر مشقات كبيرة. اقتيدت هذا الصباح سيدة إلى الاعتقال، بعد غوبيه بالأمس، وهو المعروف مع غيره من عصابة السوء، فيما كان حرس المدينة يعمل على إحاطتهم في عمليات اقتيادهم مخافة تعرُّض الجمهور لهم، واضعين حرابهم حولهم في نوع من الحماية لهم؛ وهو ما لم يكن بالعملية السهلة والمضمونة...

(بليز غوبيه كنتُ أعرفه قبل أن ينبهني السيد جيراردون عنه أنه مخبر للشرطة، ويرتاد كثيراً فندق السيد ريمون و«فندق الأباطرة»

وغيرهما على جانبَي «شارع الكانوبيير» لتصيُّد مواقف الناس وآرائهم، ولا سيما المعروفين منهم. كان منظره منفراً، بقامته الكبيرة أشبه بعملاق من زمن مضى، وبوجهه وخديه العريضين، وبأنفه الأفطس، حتى إن والدي دفعَ له مبلغاً من المال طلباً لتصويره: قَبِل غوبيه المبلغ، إلا أنه كان يتهرب من أبي في كل مرة يلقاه فيها بالصدفة طبعاً. كان قد بلغ الخمسين من عمره وأزيد لما وقعتُ عليه في شارع قريب من حيث أسكن. زادت تقاطيع وجهه تغضناً، من دون أن يختفي عن عارفيه الكثر بهذه القامة المرعبة والكريهة. ظهرَ بعد أن اختفى، وبعد أن تقلَّب في مهن عديدة، على ما روى لي في «فندق القديس بطرس وروما»، ذات مساء، وإذ بي أكتشف أنه يعرفني وإن لم يُظهر ذلك سابقاً. اعتذرَ عن فعلته مع أبي، وأخبرني أن القدر لم يرحمه، إذ إنه عمل قواساً في كنيسة، بعد صناعة الصابون، حين تعرف إليه والدي، وفي مِهن أخرى لم يذكرها على مسامعي: هو مغامر آخر. لما أخبرت السيد جيراردون عن لقائي المفاجئ به، أعلمني عن عمله كمخبر، بعد أن نجحت الشرطة في اعتقاله إثر ضبطه في تزوير العملة، فكان أن اقترح مدير الشرطة عليه أن يكون «مخبراً» لقاء الإفراج عنه بعد شهور معدودة...

اقتيد غوبيه إلى السجن، ورافقه بصاق كثير وشتائم دنيئة ممن وقعوا عليه في الطريق، إذ أفشى بأخبار كثيرين، ممن انتهى بعضهم إلى مقصلة الإعدام).

كان النهار هادئاً بالإجمال، فيما سرى القلق في أحياء المدينة ليلاً. وصل إلى اليابسة مساءً أحد الضباط الإنكليز من دون أن تظهر

القوات الإنكليزية، المرابطة في فرقاطتها، والتي جرى الكلام عنها في الأيام الأخيرة. أما خبر موت بونابرت فلم يتأكد بعد.

في 29 صباحاً جرى إيصال مجموعة من «المماليك» ومن الزنجيات إلى المدينة بعد أن تمَّ رصدهم واعتقالهم فوق مرتفعات «مازارك» و«مونتردون»، إثر تعرضهم لقوات قريبة منهم محاولين الحصول منها على ما يسدُّ رمقَهم. حرس المدينة هم الذين توجهوا إليهم لاقتيادهم؛ وهو ما حصل، وجرى نقلهم إلى الحصن من دون أن يتعرضوا إلى أي أذى.

في الثلاثين منه، وبعده، الأخبار ليست مؤكدة، فيما تروج شائعات متضاربة، بين سعيدة ومقلقة، متأتية خصوصاً من تولون القريبة. أثناء ذلك عادَ محافظ المدينة، السيد دالبرتاس، إلى عمله؛ فيما جرى الطلب إلى السكان، من عمر الثامنة عشرة إلى عمر الستين، أن يتوجهوا إلى كل دائرة من دوائر المدينة لتسجيل أسمائهم، من دون أن تكون الأسلحة متوافرة لهم.

شائعات وشائعات في الأيام التالية من شهر يوليو. شائعات من مدينة «سان-مكسيم»، ومن غيرها. غير أن رسالة وصلت إلينا، بقدرة قادر، أخبرتنا أن الملك عاد إلى باريس على رأس أربعين ألف جندي. إلا أن علينا أن نُبقي هذا الخبر قيد الفحص...

أما الشيء الأكيد فهو أنه تمَّ ضبط كمية هائلة من الأثاث الجميل، كانت موضبة منذ وقت بعيد في إحدى شقق «شارع فونغات»، ومرشحة للانتقال، تحت جنح الظلام، إلى حيث يقيم أحد أفراد عائلة بونابرت. جرى اعتقال المكلف بالعملية، وضُبط الأثاث.

الفيكونت دو بروج حلَّ بيننا مبعوثاً من دوق أنغوليم، حاملاً معه ذخائر وأسلحة. سيبقى بيننا؛ نشر إعلاناً عمومياً يُعبِّر فيه عن امتنانه لوقفة أهل مرسيليا، ولمساندتهم قضية الملك، ولكونهم آخر من أسقط العلم الأبيض وأول من استعادَه، على الرغم من عسف الطاغية وأتباعه.

في 7 من يوليو، جرى القيام بأكثر من زيارة للجزيرة الواقعة إزاء «الكانوبيير» وسوق الفواكه، بعد أن جرى الاشتِباه بنزول ضباط في الجزيرة، قادمين من تولون، ومقيمين - بحسب الأخبار - عند أحدهم، المدعو فيراري من لومبَرديا، وهو يعمل في قلع الأسنان. جرى تفتيش البيوت، بما فيها السطوح، واعتُقل أربعة من سكان الجزيرة، بمن فيهم اللومباردي نفسه، ممن حامت حولهم شُبهات، من دون أن يسقط أي قتيل، على الرغم من إطلاق الرصاص على بعضهم. إلا أن الجنود قاموا بسَوقهم إلى السجن ليلاً، حفاظاً على سلامتهم، بعد أن احتشدت الجموع لمعاقبتهم.

(فاجأني السيد جيراردون، هذا الصباح، بقولٍ عالي اللهجة على الرغم من كلامه الهامس في العادة: أريد تصويركِ في لوحة. قالَها مثل من عقد العزم أخيراً بعد طول تردد، فسألتُه: لعلكَ تظن أن الأمر يتصل بك وحدك! فأجابني: لا، أبداً... ترددتُ لأنني أعرف حذرك، وتجنبك الظهور. قبَّلتُه عندها، ووعدتُه بالتفكير في الأمر.

ما لا يعرفه الفنان هو أن والدي طلب تصويري قبل ما يزيد على ثلاثين سنة. فرِحتُ بالأمر حينها، لكنني تمنعتُ بعد أن عرفتُ الداعي إلى التصوير، إذ بادرني والدي بالقول: أتعرفين، يا عزيزتي،

أنه يصعب علينا تصوير الهيئات، ولا سيما النسائية، إلا لمن يستدعوننا إلى قصورهن طلباً لرفع صورهن فوق الجدران؟ تملصتُ من قبول عرض والدي بعد أن وجدتُ أن سبب التصوير لدى والدي. . . مهني ليس إلا.

هذا ما أكتبُه في اليوم التالي على دعوة السيد جيراردون، وبعد أن جلستُ أول جلسة تصوير معه. هو الذي اختار وضعية الجلوس، وضعية الوقوف بالأحرى، إذ وجد أن تصوير هيئتي على هذه الشاكلة أفضل. لم أفهم السبب، بل أذعنتُ. كما أخبرني أنه قرر تصوير لوحتين: واحدة مصغَّرة على صفيحة فضية، وثانية ذات مقاسات طبيعية فوق لوحة قماشية. هو الذي اختار الفستان من خزانة ملابسي. لم أستفسر منه، لكنه ابتسم قائلاً: في الفستان ألوان مناسبة لبشرة وجهك. . . كما أنه يُظهر جمال الثديين، وهو مطلوب فنياً في مثل هذه اللوحات. نبَّهني قبل مباشرة تخطيط الرسم، الذي يسبق التصوير (حسبما شرح لي)، أن عليَّ اختيار الهيئة، أي تعابير الوجه، على أن تكون تلقائية، طبيعية، لأنه سيرسم اللوحة في أكثر من جلسة، في ثلاث على الأرجح. . .

امتثلتُ له تماماً هذا الصباح، إلا أنني وجدتُ، لما جلستُ إلى طاولتي، أن للكتابة إغراء مزيداً يفوق إغراء الظهور في رسم، في لوحة. فالوجوه والأجسام التي تتنقل في «شارع الكانوبيير»، وأراقبها من نوافذي، تمضي لكنها تثبت في دفتري، من دون حاجة مني لإعادتها إلى الخلف، أو إلى التوقف.

أذعنتُ، بل رضيتُ بما طالبَني به السيد جيراردون، لأن من سيقرأ «مذكراتي»، بعد وفاتي، قد يحتاج إلى التعرُّف إلى ما كنتُ عليه. إلا أن ما يربطني بالكتابة أشدُّ وأعمق، وما يجذب أصابعي

إلى دفاتري يربط أيامي بمدينتي، التي بدت أوسع من عائلة، وأبهج من بهرجة خطوط وألوان.

الكلمة أبقى مني؛ لن أهينها أبداً.

أفسدتُ حياتي من دون شك، لكنني لا أريد أن أفسد كتابتي).

يوم السبت في 8 يوليو، في الخامسة بعد الظهر، وصل بريد مرفوع فوق أغصان الزيتون، فيما يزعق حاملُه بأعلى صوت: «عاش الملك». أعلنَ على المتجمعين أن قوات «الحلفاء» دخلت إلى باريس، وأن بونابرت سلك طريق الفرار. عند انتشار النبأ، تحرك أهل مرسيليا بحسب عادتهم، مُحدثين الكثير من الصخب. حشدٌ كبير منهم اتَّجه صوب «بوابة آكس» لكي يلاقي وصول البريد القادم من باريس، ومن ليون، بعد توقفه لأكثر من يوم، ولرؤية السيد رينو دو تريت، الشجاع العائد من منفاه... وصلَ ساعي البريد فعلاً في السابعة مساء، وجَرَت مرافقته إلى بيته وسط هتافات التأييد من الجميع. استقبلته العائلة بدموع الفرح، وجرَت تسميته بطل مرسيليا، بعد أن رفض في السابق إعلان الولاء، وتلاوة القسم المطلوب من حرس المدينة ومن موظفي الدولة.

العربتان حاملتا البريد من باريس، ومن ليون، وصلتا في الوقت عينه، وما كانوا يحملونه من أوراق كان شديد الأهمية لنا. إلا أن قراءة ذلك تتطلب وقتاً أكيداً. جرى في الليل تعليق بيان يفيد أن قوات «الحلفاء» دخلت إلى باريس بعد معارك دامت لساعات، وأن الطاغية طلب من اللورد ولينغتون إذناً مضموناً بالسفر إلى أميركا، إلا أن اللورد رفض ذلك، فيما أذن له بالخروج من باريس. إنها غلطة سياسية فادحة، إذ لا يُسمح بالرحيل لمن قضى على الجنس البشري.

كان ليوم الأحد، في 9 يوليو، أن يُخصَّص لمباهج الاحتفال، لكنه تحولَ، على العكس من ذلك، إلى يوم من الخشية والحزن في مدينة مرسيليا . . .

اليوم أيضاً، في العاشر من يوليو، جرى كذلك نقل جنود من حرس المدينة إلى نواحٍ مختلفة، فيما كان الجميع يتهامس بالقول: إنهم، بذلك، يُخلون المدينة من قواتها . . .

إلا أن الغيوم ما لبثت أن انقشعت، لحسن الحظ، ويوم العدل اقترب. باريس استسلمت، والحلفاء فيها، والملك يتأهب للدخول إليها. وحده بونابرت نجح في الهرب، محمِّلاً فوق فرقاطتين ممتلكات ثمينة، مغتبطاً لكونه نجح أيضاً في إهدار حياة مئات الآلاف من الفرنسيين. . . يا لك من وحش بشع لم تنجح أي مخيلة مريضة في تخيل مخلوق مثله، فيما تبدو هيئات نيرون وكاليغولا وغيرهما إلى جانبه مثل مخلوقات ملائكية! أيجوز تركه، وإبقاؤه على قيد الحياة؟ أما كان هناك أحد في باريس لإنقاذ الأرض من مضطهدها؟

الماركيز دو ريفيير حلَّ بيننا في 10 يوليو، وسط صياح المستقبِلين من أهل مرسيليا الطيبين، الذين بكى غالبهم من الفرح، لما وقعت أنظارهم عليه؛ وهو أصابه بدوره التأثر، وانهمرت منه دموع الغبطة. جَلبَ لنا ما يزيد على عشرة آلاف بندقية، ومدافع وذخائر. كما يقال إن هناك آلافاً من الجنود الإنكليز سيحلُّون في المدينة، محمولين فوق مراكبهم.

(أنهى السيد جيراردون، اليوم، جلسات التصوير، فيما كان يسمح لي بمتابعة عملية التصوير المتتابعة، من خطوط قلم الرصاص

حتى ألوان الصباغة. هكذا اتَّخذ هيكلُ جسمي لحمَه، ونضح فوق خديَّ لونٌ وردي خفيف، فيما بدت على عينيَّ نظرة ساهمة، هادئة، هي التعبير الأكيد عن اطمئناني لما يقوم به، وله قبل أي شيء آخر.

سأسميه من اليوم وصاعداً باسمه الأول: إتيان نيقولا، وسيختفي من دفاتري اسمه العائلي. باتَ في إمكاني الزواج منه، وقد مات السيئ الصيت. فكَّرت في الزواج منه قبل سنوات، إلا أن هذا كان يقتضي مني قبول الطلاق الذي سعى إليه زوجي الراحل أكثر من مرة، من دون أن أقبل به: كنت أريد إزعاج زوجي، وإغاظته، فلا يستطيع تسجيل أبنائه بطريقة شرعية. ولكن لماذا الزواج من إتيان نيقولا؟ ما الحاجة إلى الزواج، وقد اعتاد جيراني عليه منذ سنوات، إذ ينتبهون حتى إلى خروجه صباحاً، أو وصوله ليلاً إلى شقتي في الطابق الثاني؟ ألا أكون - لو قبلتُ الزواج منه اليوم - أقرُّ بأن بقاء زوجي على قيد الحياة هو الذي كان يحول دون زواجي من عشيقي؟ لا، لن أفعل ذلك: أنا أقرر ما أشاء. سأجلب به - لو قبلتُ - غفراناً لا يستحقه. أنا قررتُ الإبقاء عليه محجوزاً حتى موته، وسيكتشف معارفنا أنني أردت هذه العلاقة - كما هي - قبل موته، وبعد موته. هذا ما سيجعلني متفوقة عليه في حساباتي.

هو لا يستحق المغفرة حتى بعد وفاته. رفضت دعوة ابنتي لمشاركتها مع أبنائها في وداعه الأخير. لعنتي تلاحقُه بعد موته، في هذه العبارات، فيما أتنعم بالحياة بعده، ومع إتيان نيقولا الذي أنعشَ حياتي، وجسدي قبل أي شيء آخر. اللذة التي تجمعني به حرة، أكيدة، من دون زواج أو إنجاب. فهو يصغرني، ما يناسبني؛ وهو لا يبحث في خفايا جسدي، مثل السيد بيزوني، عن أمٍّ أو مومس. فلو أحصيتُ وتتبَّعتُ هويات عشيقاته الشرعيات، بل أمهات أبنائه

الآخرين، لوجدتُ أنهن لا يتعدين كونهن: إما ممثلة، أي مومساً، أو أماً ثانوية، طالما أنهن، في غالبهن، ممن عملن في خدمته. هن انتقلن من خدمته برتبة متدنية، إلى خدمته برتبة أعلى. أما هو فماذا يكون قد فعل: ألا تبدو معاشرته لهن مثل فعل محرَّم، مثل معاشرة الأقرباء أو ربما الأبناء؟!).

يوم الأحد في الثلاثين من يوليو، نظَّمت المدينة حفلاً راقصاً في «المسرح الكبير»، على شرف أركان القوات الإنكليزية والصقلية. كانت زينة الصالة رائعة، وكانت مقدمات المقصورات تحفل بزينة من الساتان الأبيض، المربوطة بشرائط من الحرير ذي اللون الذهبي، فيما كانت المقصورات كلها حافلة بالسيدات المتزينات بالأبيض بدورهن، وكانت تتوزع في الصالة صبايا مرشحات للرقص بأثواب الحفل الخاصة المريحة والأنيقة.

الأميرال الإنكليزي، مصحوباً بعمدة مدينتنا، تنقَّل في الصالة وحيا السيدات كلهن، وحادثَهن. كانت المرطبات المخصصة للنساء متوافرة بكثرة، إلا أن بعض الشبان غير المهذبين قاموا بأفعال تخلو من اللياقة. حاصروا المقهى، وأجهزوا على كل ما فيه من الحلويات المخصصة للنساء، وللضباط الأجانب، ما جعل الضيافة ناقصة. في هذا اليوم، عمَّت الاحتفالات في شارع «روما» القريب... وانعقد في المساء حفلٌ راقص، شاركَ فيه العسكر الإنكليزي والصقلي، إلا أن بعض المشاغبين لم يتأخروا عن رشق نصب الملك النصفي بالحجارة، وعمدوا إلى إطفاء الأنوار، ما سببَ فوضى كبيرة، وجعلَ الحفل يتوقف قبل ميعاده.

تأكدتُ، اليوم، من مدير الفندق من أن المصرية سقطت قتيلة على الأرجح، من دون أن نعرف مصير ابنتها الصغيرة. أما إتيان نيقولا فقد مدَّني ببعض ظروف قتل الكثيرين، مثل:

- الجندي إيسباني، من حرس المدينة، سقط قتيلاً بطلقات نارية عدة بعد أن حاول حماية عدد من النساء والأطفال، بحسب تقرير البوليس بين 4 مارس و25 يونيو من سنة 1815.

- جان بايسيير أُعدمَ في 26 يونيو، وهو في الثانية والستين من عمره، مالك، أرمل ماري-تراز غيدون، مولود في مرسيليا ومقيم في الرقم 8 من «ساحة سان ميشال»، وهو ابن أبيه الذي عمل في الخدمة في مرسيليا، وما لبث أن أصبح متعصباً لبونابرت، ومناضلاً في «النادي اليعقوبي»، وعضواً في «لجنة المراقبة» التي تشكلت في العام 1793.

- الزنجيتان اللتان تمَّ إعدامهما «أثيوبيتان كريهتان»، بحسب تقرير أحد المُخبرين، إلا أنه لم يتم تسجيل وفاتهما في «دائرة النفوس»، وبقيت سجلات الشرطة صامتة على ذلك. وقيل عنهما إنهما ولدتا في «سانت لوسي» في جزر الأنتيل، فيما قيل أيضاً إنهما مصريتان متحدرتان من أثيوبيا، ووصلتا إلى مرسيليا في العام 1801 في عداد قوات بونابرت من «المماليك».

يبدو أن قتلى يوم 25 بلغوا 25 قتيلاً، من بينهم: جان-باتيست فرنسوا أنكليس، المحامي، 58 عاماً، المتزوج من بينوات انطوانيت فيير، المقيم في 19 «شومان نوف دو لا ماغدلين»، وكان من أصدقاء أركان بونابرت، وشغل بعض الوقت منصب الحاكم العسكري لإيطاليا. والثاني منهم: فرنسوا بيار، المزارع، 55 عاماً، المقيم في مرسيليا في 9 «شارع تروا-فور». وهناك الأخوان فرسيه،

ويعملان في صناعة الحلوى وفي شوي الدجاج؛ وتذكر الأخبار كذلك مقتل كاليبير كاديه، النجار... وقد قُتل هؤلاء، في «الميدان»، تحت ضربات العصي، قرب الينبوع. كما قُتل آنج تيرييه، الخباز في «شارع بانييه»، وابنه وشريكه في العمل، من دون أن ترِد أسماؤهم في السجلات. وممن تمَّ التعرض لبيوتهم: بلان، وأوغست موسي، وأومير غرانيه، وكايول، وفورنييه، وميغي، وجوف، وبايان، والمفتش جان-باتيست رينييه.

كما تمَّ التعرض لبقالة لور، الجندي السابق؛ ولبيت دوفو، وهو بائع تبغ، الذي قال ذات يوم إنه «يريد أن يزن في الكأس الكبيرة رؤوساً من جماعة الملكية أكثر مما وضع فيها من عيدان التبغ».

أما سجلات قيود الدولة فتذكر في 4 يوليو من سنة 1815، وفاة أحدهم في 26 يونيو، وهو «رجل قيل عنه إنه مصري، من دون أن نعرف شيئاً عن اسمه، أو عن عمره، أو عن مكان سكنه». كما ذكرَ تقرير 1 يوليو موتَ جوزف ميشال، المنفي المصري، 90 عاماً، المتوفى في 27 يونيو في «حي لابالود»؛ ويفيد تقرير الشرطة في 30 يونيو أن المتوفى كان يسكن في بيت المملوكي جوزف كافيتيني، وتوفي من جراء إطلاق نار أصاب أسفل بطنه، بعد بروز مجموعة من المسلحين في بيته، في 27 من يونيو.

كما ورد، في سجل الشرطة عينه، ذكر منفي مصري آخر، جوزف مصطفى، 47 عاماً، المولود في هنغاريا، والمقيم في 12 شارع «المطرانية»، الذي حصلت وفاته في مستشفى «أوتيل ديو» في 24 يوليو، ما يعني أنه تعرَّضَ ربما لاحتضار طويل.

ذكرت جريدة **صغير مرسيليا** اسم أكثر من قتيل من «المماليك»: جورج ضاهر، سعاد العراي، جوزف غبريال، جوزف مكلي، جورج

مرتار، جاكوب نازو، ميكياس سيداريوس، جوزف سليمان، إبراهيم توتنجي، فضلاً عن أسماء أربعة نساء: آنا كوتاي، هيلين تريكا، والزنجيتان المذكورتان أعلاه. . . وهناك غيرهم مِمَّن تُعرف أسماؤهم، ولم يتمّ العثور على جثثهم.

في هذه الأيام التي تحمل مفاجآت ومفاجآت، ظهر السيد بيار كلود ديمازور من جديد بيننا. لا نحسن بعدُ تحديد هويته: أهو كاهن؟ أهو ضابط في سلاح الهندسة؟ أهو خطيب متطرف؟ ذلك أنه فعل هذه كلها من دون تردد، بحماس لا يناسب مرتدي العباءات السوداء. ما لم يتردد فيه، هو نزعته الملكية الأكيدة والمعلنة، إلا أنه دافعَ عنها في أعماله وعظاته مثل «ثوري» إرهابي، إذا جاز القول، ما دام أنه أرفقَها دوماً بحماس مخيف.

ظهرَ بعد أن أُدخِل السجن غير مرة في العهد الإمبراطوري، ولا سيما بعد وساطته الشهيرة بين شارل الرابع، ملك إسبانيا، وبين البابا بيوس السابع. ظهرَ لكي يُلقي في كنيسة سان-مرتان في مرسيليا، وفي تولون، خطبةً رنانة في مدح الملك لويس السادس عشر.

هذا ما ظهر عليه في الجرائد المحلية، بعد خطبته، وبعد تعرّضه للسرقة خصوصاً، أثناء عودته إلى البيت، من قبل ثلاثة جنود إنكليز.

لوحتي تتصدر صالون البيت، فيما وضعتُ اللوحة الصغيرة فوق مكتب الكتابة.

أنعمُ مع إتيان نيقولا بأيام سعيدة، وبليالٍ ما عدت أتورع في بعضها عن دعوته إلى عدد من مسارح المدينة، بعد أن استعدتُ متعتي السابقة، سواء في حضور الاحتفالات العامة والمشاركة فيها، أو في مشاهدة العروض المسرحية التي عاودت ظهورها في المدينة،

بل بتُّ لا أتورع بنفسي عن دعوته لتمضية ليلة بكاملها في ممارسة الجنس، مصحوبة بكؤوس النبيذ، والتي انتهت بي إلى الرقص عارية.

هذا ما أخبرني به إتيان نيقولا في هذا الصباح، فضحكتُ من بقايا ضحك الليلة المنصرمة.

هذا ما قررتُ كتابته من دون حرج، من دون العودة إلى الوجه الآخر من الدفتر، أو إلى دفتر آخر. إلى متى أختفي عن نفسي؟ عن جسدي؟ أيجوز أنني أتنبَّه إلى أي شاردة وواردة في مدينتي، في هذه الأيام العصيبة، فأتسقَّط أخبارها وأسجلها بدقة يحسدني عليها حبيبي ورفاقه في دوائر الشرطة؟ أيجوز أنني أطلب أن أكون مؤرخة ليوميات المدينة من دون يومياتي، ولحياتها من دون حياتي؟ أأكون كاتبة علنية في سبيل خدمتها وأكون عشيقة سرية لكتابتي الحميمة؟ أأكون مغامرة، و«ثورية»، من دون علمي؟

«دفاتر» أنطونيو دو باسكالينو

(صيف 1815)

الفصل الثالث

أنطونيو دو باسكالينو يتكفل بـ «التحقيق»

«بعد السلام، أعتذر عن لغتي الفرنسية الركيكة، فأنا أُقدِم على الكتابة بها، وأتوجه بها إلى صحفي مرموق لأول مرة. حاجتي إلى الكتابة فاقت عندي التزامي بالبلاغة، أو بصحة تركيب الجُمل. هي حاجتي إلى التنفس، ما دام أنني لا أكتب إلا بعد خلاصي من موت أكيد. أعرف أن أحداً غيري لن يسارع إلى إفشاء الظلم الذي لحق بنا طوال أيام ثلاثة، وبعدها أيضاً، في شوارع مرسيليا أو في مرتفعاتها القريبة. فكثيرون منا لا يُحسنون الكتابة أساساً، لا في الفرنسية ولا في أي لغة أخرى. وكثيرون منا - ممن بقي على قيد الحياة - لا يتجاسرون حتى على التكلُّم عما جرى. فهم امتنعوا عن الكلام، واختفوا عن أعمالهم المعهودة، ويعيشون أشبه بالفارين فيما لم يقترفوا أي جرم.

أنا أعرف تمام المعرفة أنك تعرف أعداداً منا، بل انتقلت مع بعضنا فوق سفينة واحدة من الإسكندرية إلى تولون. أنا لم يحالفني هذا الحظ، ولا هذا الشرف، إلا أنني عرفت من أحد الكهنة أنك تكتب في الصحافة الشريفة، وأن حميَّة المساواة والشرف والعدالة تُحرِّك ريشتك ومواقفك، فلا تقبل بالظلم المجحف بحقنا. لعلك لم تسمع بما جرى لنا في وضح النهار، وفي ضوء المشاعل المنيرة في

الليل. . . لعلّ ما جرى في «ميدان غوفيه» ومرتفعات «مازارك» وغيرها في مرسيليا لم يحدث في باريس. . . لعلكَ كنت بعيداً عن مجرى الأحداث، لكنني تأكدتُ قبل أيام، بمجرد وقوعي على جريدة في أحد مكاتب التجارة في «شارع الكانوبيير»، من أن ريشتك لا تزال مسنونة للدفاع عن الحقِّ.

أنت تعرف ربما أكثر من غيرك، أستاذ أنطونيو دو باسكالينو، أن فرحة المصريين كانت عامرة لما عرفوا بوصول قوات فرنسية في العام 1798 إلى أرض الفراعنة، بل قادت الحمية بعضهم إلى الالتحاق - عن خطأ ربما - بقوات الجنرال المقدام بونابرت. ولم يجدوا حرجاً، بل حماسة، في البقاء إلى جانبه عندما قرر الانسحاب من مصر. كنا آلافاً من المغادرين فوق سفن القوات الفرنسية، تاركين وراءنا عائلاتنا وأعمالنا وعلاقاتنا، مندفعين وراء قيم الثورة الفرنسية. وجدنا في مرسيليا آلافاً من المهاجرين وصلوا قبلنا إليها، من إسبان وطليان ويونان وكاتالان وغيرهم. هذا ما تستطيعه مدينة مثل مرسيليا، إذ كانت تستقبل ملكاً إسبانياً مخلوعاً، وقائداً ثورياً مثل بوليفار، فيسكنان على مسافة أعداد من أشجار الزيتون.

نحن، يا أستاذي، نعود إلى مدن مختلفة، مثل القاهرة والإسكندرية وحلب وبيروت ويافا وغيرها، واجتمعنا في صورة مزيدة أشبه بمدينة أو بحي كبير في مرسيليا. لم يكن هناك أحد لكي يستقبلنا. مساعدات حكومة نابوليون لم تكفِنا، لكننا باشرنا بالعمل في بناء بيوتنا بما تيسر. أتت بيوتنا من دون سقوف في الغالب، فلا يقوى بناؤها الخفيف على تحمل طابق آخر فوقها. كانت تفضي

البيوت، من جهة، على الشارع، على جادة عريضة مشجرة، «ميدان غوفيه»، ومن الجهة الثانية، على جنائن، ما لبث العديد منا، ممن تمرَّس في الزراعة، أن أنبت الخضار والفواكه فيها، مثل الفول والبصل والكوسا والبطيخ والذرة والبامياء خصوصاً.

كنا نعيش على عجل في انتظار العودة، في انتظار أن يغلب الإمبراطور العثمانيين. فكنا نأكل كما لو أننا نعيش في مدننا، وننام بألبسة النهار، كما في القاهرة، واضعين فوق أسرَّتنا ستائر خفيفة لحمايتنا من الحشرات والذباب.

نحن فلاحون، كما تعرف، نقلنا معنا عاداتنا، فلم نرِد إزعاج أحد. انتقلنا مثلما ننقل نخلة من مكان إلى آخر، بجذعها، وسعفها، وثمارها. غير أننا حملنا معنا أخبار بطولاتنا مع جيش بونابرت، وكنا نتذاكرها، ولا سيما السيدات من نسائنا ممن كنَّ يجلسن على عتبات بيوتهن مع جيرانهن، ويحكين القصص من جديد فيما يتدبرن حساء المساء.

سنة بعد سنة، اعتدنا، يا أستاذي، على «ميدان غوفيه»؛ باتت لنا فيه جذور وبراعم، ما دام أن العشرات، بل المئات منا، ولدوا فيه، فلا يعرفون دمنهور أو الجيزة أو «القلعة» أو بولاق أكثر من أحياء مرسيليا، أكثر من أشجار الأكاسيا، التي باتوا ينتقلون منها في اتجاه المرفأ للحاق بمرفأ تولون للتجنيد، أو إلى مولان، التي تعرفها جيداً (على ما قال لي أحد الكهنة ممن كان يتنقل بين باريس وبينها)، والتي حلَّ فيها قسم محظوظ من أهلنا، من ضباطنا وجنودنا.

ما كنا نستعيد أخبار الانتصارات، بل أخبار الخسارات، ولا سيما مقتل الجنرال كليبير، الذي يبقى في نظر كثيرين منا حاكماً عادلاً. أصبحنا، يا أستاذي، شعباً واحداً. فقد تزوج الجنرال مينو،

خليفة كليبير في حكم مصر، إحدى المصريات، وأتى معنا في البحر ولده منها: سليمان، بل يقال - لعلك سمعت بذلك - إن لنابوليون حبيبة مصرية... كما لنا نَشيد مشترك، وضعه لنا الشاعر نقولا الترك، يخلِّد انتسابنا إلى حلم الثورة ووعودها الإنسانية.

كان «ميدان غوفيه» أشبه بمركز أساسي لنا، فيما كانت تتوزع عائلاتنا على أحياء وقرى عديدة، مثل: «سان-مرغريت»، و«لا كابوليت»، و«مونتريدون» وغيرها. كان البعض منا يتذكر رشيد أو دمياط، القريبتين من البحر، كما هنا، إلا أن بعضنا الآخر اعتاد على تلقي دروس عربية وفرنسية، مثلك في «المعهد الماروني» بروما، كما قيل لي عنك. كما اعتاد بعضنا على العمل في ممثليات تجارية، فيما تكفّل البعض الآخر بتسهيل معاملات السفر لمن يحلون في مرسيليا طالبين الإبحار إلى أميركا، من دون أن يُحسنوا التكلم لا بالإنكليزية ولا بالفرنسية. نعم، يا أستاذي الشريف، بتنا جزءاً ملازماً لحياة مرسيليا. بتنا نساعدها في أعمالها، مثل أعمال النقل الثقيل في المرفأ، أو بعض أعمال الخدمة في فنادقها العديدة. أعرف أن كثيرين منا كانوا يكتفون بتلقي المساعدة المالية الشهرية، فتراهم جالسين على عتبات بيوتهم يتسامرون أو يدخنون بإفراط طوال النهار، فيما ينظرون إلى البحر، إلى أفق جديد لهم. إلا أن كثيرين منا ماتوا فوق أراضٍ مجهولة منهم، دفاعاً عن فرنسا... أتذكر الجنرال يعقوب، كبيرنا، الذي مات في السفينة قبل أن يطأ حتى أرض فرنسا العزيزة؟

مرسيليا، التي احتضنتنا، تنكرت لنا بمجرد سقوط الإمبراطور. مرسيليا التي أعطت فرنسا نشيدها الثوري تجاهلت ماضيها القريب.

لا أعرف كيف يمكن لها أن تكون ملكية، لا جمهورية، وهي تضم أقواماً من اليونان وإيطاليا وإسبانيا والبلاد العثمانية المختلفة. . . هذه شعوب لا يجمعها في مدينة واحدة غير العلم الجمهوري، أليس كذلك؟ لعلّ مرسيليا ابتعدت عن حلمنا، عن حلمها، لأنها مدينة تجارية، لا مدينة حربية، مثلما جنَّدها الإمبراطور. . . ماذا لهم أن يفعلوا في الحرب، وهم اعتادوا على الصيد والإبحار، مثل أناس كثيرين على ضفاف المتوسط؟

أكتب هذا كله، أيها الأستاذ المميز، مثل من يبتعد عن قول ما يغصُّ به حلقُه على الرغم من مرور الأيام والأسابيع المعدودة. قالوا في مرسيليا إن من ارتكب الجريمة أناس مأجورون من أصول إيطالية، مثلما يتمُّ استئجار فَعَلة للنقل في المرفأ، أو لإلحاق الأذى بجنينة أحدهم، أو لإشاعة أخبار كاذبة عن متجر أو مقهى. . . لا، يا أستاذي الإيطالي، لم يقم الإيطاليون بهذه الأفعال الشنيعة في يونيو من سنة 1815، ذلك أنني شهدتُ كثيراً من هذه الأفعال بأم العين.

كنتُ بالصدفة على مقربة من «ميدان غوفيه»، لما انتبهتُ إلى أفراد راحوا يتجمعون، كما في رقصة «الفارندول»، ويشبكون الأيدي بالأيدي، نازلين في الشارع، رافعين العلم الأبيض، فيما كان العلم الثلاثي الألوان يرفرف بعدُ فوق المباني الرسمية. كانوا يتفقدون البيوت بيتاً بيتاً، داعين الناس إلى الالتحاق بهم. كانت قد بلغتني أصوات صراخهم، فما تحركتُ من مكاني متوقعاً وصولهم على مقربة مني. كانوا قد بلغوا المئات، قبل أن ينتهوا إلى آلاف، مثلما قيل لي بعد أيام، بعد انكشاف الجريمة. كانوا يتقدمون كما لو أنهم

حيوان مفترس بآلاف الأقدام والأيدي، بصوت واحد: عاش الملك! عاش الملك! وحين وصلوا، على مقربة مني في «الشارع الكبير»، وأمام «مقهى مارنتييه»، حيث كنتُ موجوداً منذ نصف ساعة، اعتقلوا من أمام بوابة المقهى الأخوين فيرس والمواطن غاليبير، من مناصري الإمبراطور المعروفين؛ ثم أجهزوا على المحامي أنكليس الذي ظن أنه قادر ببلاغته على إيقافهم، على تحكيم العقل فيما يُقدِمون عليه.

خرجتُ يومها من المقهى، وسلكتُ طريقاً أخرى طلباً لبيوت «المماليك»، كما يسموننا على الرغم من انقضاء أكثر من أربع عشرة سنة على وجودنا في فرنسا. كنت أتوجس من وصولهم، وإن لم يكن لي أي رابط عائلي بمن كانوا يسكنون في هذه الأحياء الفقيرة. ما استطعتُ إليه سبيلاً هو أنني أبلغت أحد المسنين ممن عرفوا والدي في مصر بلزوم الهرب، إذ إنني كنت أسارع الخُطى للوصول إلى «شارع الكانوبيير»، إلى حيث أعمل في أحد المكاتب التجارية. كانوا يحملون عصياً، في الغالب، والبعض سيوفاً، فيما يقتلع غيرهم بلاطات الشوارع التي يندفعون فيها، مثل «شارع نواي» أو «ميدان سان لويس».

دعاني صاحب المكتب إلى الاختفاء في جهة خلفية من المبنى، لكن الأخبار كانت تصلني من الزبائن وغيرهم ممن تدافعوا أو طلبوا الحماية فيه.

أخبار الزنجيتين المبقورتين في الشارع، على مرأى كثيرين، وبمشاركتهم، بلغت القاصي والداني في مرسيليا، إذ شارك غير متظاهر في غرز طرف سيفه أو حربة بندقيته في جسدَيهما. كانتا تتلقيان الطعنات، وتركضان، وإذا بي ألمحهما من على سطح البناية

لما اتجهتا مذعورتين، جريحتين، في اتجاه المرفأ. اختفيتا تماماً عن نظري، فيما علمتُ بعد وقت أن الثانية منهما ماتت صريعة، برصاصة في رأسها، ونجحت في الوصول إلى المياه ولكن قتيلة.

يبدو أن المصريين لم يتحركوا أبداً. ومن بلغَهم الخبر لم يصدِّقوه من دون شك. حتى خبر الزنجيتين بقي أسير الزنجيتين، فلا يخص المصريين أبداً، ما دام أنهم أقل سواداً من سحنة هاتين. كان للخبر أن يصل إليهم، وبخاصة أن الجموع تنقلت بين شوارع كثيرة، مثل «بوفو» و«ساحة لاباي» و«بارادي»، مروراً بمقر البلدية، قبل أن تخرج من حدود المدينة لتبلغ الأحياء الفقيرة. كانت قد مضت ساعات طويلة، بطيئة، منذ انطلاق التظاهرة صباحاً، قبل أن تصل الحشود في نهاية بعد الظهر إلى أمكنة سكن المصريين، ومنها «ساحة كاستيلان».

كان رفاق الغربة مشغولين بأمر آخر، ما انتبهتُ إليه عند مروري العجول بحيِّهم، وهو الاحتفال بزواج أحدهم من صبية مصرية لا تسكن عائلتها بعيداً عن عائلة العريس. احتفال غنائي، قبل مراسم الزواج، في انتظار «ليلةِ الدخلة». العريس قبطي، إبراهيم المنصور، الذي كنت أعرف والده، والعروس ماريا دمنهوري.

تأكد الجمع السعيد من هول ما يتهددهم في الساعة السادسة مساء. لم يكن أمامهم سوى الهرب، من دون تَلكؤ، فيما احتارت زوجة بما تفعله بزوجها المُقعَد، أو أمٌّ بطفلَيها الصغيرَين، فيما لم يجد بعضهم الآخر في أقدامه ما يمكِّنه من الركض السريع.

كانت تصل أصواتهم المزمجرة قبل وصولهم، على ما أخبرني عنهم من نجحوا في الإفلات من رصاصهم الملعلع في تلك السماء الصافية. هربوا، وما لبثوا أن تجمعوا في ممر «ميدان غوفيه»،

وتدبَّروا على عجل إقامة حاجزين، مثلما فعل بعض المصريين في بعض شوارع القاهرة لمقاومة جيش بونابرت، فيما كان عدد آخر منهم يسلك شوارع أخرى تؤدي إلى البحر أو إلى مرتفعات «مازارك». كانوا أينما ينتقلون أو يهربون معروفين: بألبستهم الشرقية، التي تعيق حركتهم من دون شك، وبعمائمهم التي يتمسكون بها فيما تتساقط من رؤوسهم، وبسحناتهم المحروقة التي تزداد لمعاناً مع الشمس الغاربة، وبأحذيتهم الخفيفة التي تساقطت من أرجلهم. هكذا أتيح لي رؤية بعضهم من السطح، وهم يتدافعون هاربين وسط «شارع الكانوبيير» في اتجاه المرفأ، كما لو أنهم يعودون - أخيراً - إلى أوطانهم البعيدة.

أمضيتُ ثلاث ليالٍ في مكتب الشركة طوال الأيام الثلاثة التي استغرقتها هذه المجرزة. كانت تكفي المتظاهرين إشارة بسيطة، وشاية حقيرة، لكي يجهزوا على العامل في مخبزة، أو عند بقال. وكانت هيئات الهاربين المغطاة بألبستهم الخاصة مثل أدلة جريمة. ومن كان قد نجح في الهرب من بيته، أو من قضى فيه، ما كان يحتاج إلى العودة إليه، ولا إلى مقبرة، إذ ما لبثت فرق من المحتشدين أن عادت إلى هذه البيوت لتفقدها، لسرقة المتبقيات الفقيرة فيها، ثم لحرقها تماماً.

لكن أعداداً منهم نجحوا في التخلص من المقتلة بعد أن نجحوا في اجتياز الفرسخين تقريباً، اللذين يفصلان المدينة عن مرتفعاتها، فوجدوا في أشجارها الكثيفة ما يعينهم على التلطي، على الاختفاء، على التقاط الأنفاس، وعلى تضميد بعض الجراح. فيما كان الأقوياء منهم ينظرون صاغرين إلى حريق بيوتهم، فيودِّعون بالنظرات، بالدموع، جدَّهم العجوز، أو قريبَهم المُقعَد أو

الأعمى. . . ظلوا حتى اليوم الثاني يتابعون مناظر الحريق، ويبلغ مسامعَهم عويلٌ متقطع. قام المهووسون بالعودة إلى حيث خربوا وقتلوا لكي يخربوا ويقتلوا من جديد، بينما سعى البعض الآخر، في فرق مرتجلة، إلى تصيد «مماليك» آخرين. لم يُبقوا أحداً في متناولهم من دون أن يعذبوه ويقضوا عليه. كم هاربٍ دفعوا به إلى السقوط من فوق الصخور التي اختفى خلفها! كم مزارعٍ قضى معلقاً في الأغصان التي كان يرعاها ويسقيها! وما لم ندركه عياناً، لا أنا ولا غيري، اكتشفناه بعد أيام على شاطئ «مونترودون»، إذ لفظ البحر الصافي جثثاً كثيرة معتمة. فيما أبصرتُ في اليوم الثالث على المجزرة أكثر من عربة عابرة كانت تتكدس فيها الجثث قادمةً من «ساحة كاستيلان». . . وماذا عمن هربوا من دون أن تحميهم أشجار الصنوبر العالية، فانتقلوا من قرى إلى قرى، واختفوا تماماً في اتجاه مدن فريجوس أو نيس أو تولون؟ ماذا عن العريس المنصور والعروس دمنهوري اللذين اختفيا تماماً من دون أن نعلم شيئاً عنهما حتى تاريخ كتابة هذه الرسالة؟ يؤكد البعض أنهما تمكنا من اللحاق بالجنرال برون في تولون، الذي بقي الحصن الأخير لمناصري نابوليون. . . ولكن ماذا فعلا بعد مقتل الجنرال في أفينيون إثر استسلامه؟ لعلهما عادا سباحة إلى الإسكندرية لكي يبسطا هناك مأدبة عرسهما الناقص والدامي. . . هذا ما اعتقدَ به كثيرون، على منوال أخبار «ألف ليلة وليلة»، التي تغريهم ويتناقلونها من دون أن يصدقوها.

أتساءل، أيها الأستاذ العزيز، رفيق رحلتنا، أكانوا يقتلون أهلنا المساكين والطيبين أم ينتقمون من عظمة ذلك الرجل الأسطوري، الخالد، الذي سينجح من دون شك في إعادة الكرامة إلينا، وإلى البشرية جمعاء؟ أتعلم أن البعض متأكد من أن له ابنة مصرية، من

دون أن نعرف شيئاً عن مصيرها، بعد أن قيل إن المشاغبين قتلوا والدتها وشنعوا بجثتها، بعد أن بلغَهم خبر علاقتها بنابوليون الساحر. ما لا يعرفه هؤلاء المجرمون السذج هو أن الرجل الخارق أفاق البشرية على الحرية، على المجد، ليس في فرنسا وحدها، بل في الربوع المحيطة بها. أتكون جريمة هؤلاء أنهم شهدوا معه، وصدقوا ما قاله لهم، وهو يتأمل أهرامات مصر؟ ألا يعلمون أن الرصاصات حين تنطلق ضدّ الأفكار، فإنها هي التي تتضرر وتصاب وتنفجر، لا الأفكار نفسها؟

في انتظار انتصار جديد للإمبراطور، أودّعك، أيها الأستاذ الجمهوري، والمتلهف من دون شك لمعرفة أخبار من شاركتهم خروجهم من مصر صوب الأنوار الساحرة».

هذه الأوراق المعدودة لا تفارق حقيبتي الجلدية، في «مقهى العالمَين»، حيث استعذبتُ الجلوس منذ أن نصحني به المواطن ألفريد مونوتبان، شريك عربة الجياد التي أقلّتنا سوياً مع سيدة وابنتها الصغيرة من مدينة آكس إلى مرسيليا. كما ترافقني النسخة الفرنسية المنقحة التي استعدتُ بها الكتابة الركيكة التي بلغتني في الجريدة بباريس قبل ما يزيد على أسبوعين. أمضيتُ ليالي بأكملها أفكر في الوجوه التي تقع وراء هذه الكلمات من دون أن أتبيَّن أي واحد منها ما خلا الجنرال يعقوب الذي قضى نحبه فوق الفرقاطة الإنكليزية «بالاس» في عرض البحر. غير أنني تعرفتُ على أشكالهم وعاداتهم، التي لم تفارقهم على الرغم من مرور السنوات، ومن بُعدِهم عن مصر. . . يبدو أن الأقباط منهم لم يتخلوا، ولم يحرروا العبيد الذين اصطحبوهم معهم من أثيوبيا خصوصاً.

أعدتُ كتابة الأوراق المعدودة، من دون أن أعدِّل نبرات الأسى والتظلم التي فيها، ولا الأمل بعودة ظافرة لنابوليون. لم أنشر شيئاً منها، لا في الجريدة التي أكتب فيها أحياناً، ولا في غيرها. نصحني أحد أصدقائي في «المحفل الماسوني» بنشرها تحت اسم مستعار، مثلما فعل أحدهم، من بيرن، ممن تخفى خلف اسم «مواطن» لكي ينشر قاذوراته ضدّ نابوليون.

جئتُ إلى مرسيليا على نفقتي الخاصة، بعد أن رفض مدير الجريدة مجرد فكرتي: القيام بتحقيق عن مجزرة «المماليك»: أيامنا صعبة، والعيون تترصدنا عند ارتكاب خطأ، كما قال لي، فيما كانت تروج عنه، بين أهل المهنة، أخبار انتقاله من ضفة إلى أخرى، إذ نقل بارودته إلى الكتف الآخر، بعد أن سمع رنين الذهب، وهو يتساقط في خزنته. إلا أنني أخفيتُ عنه مرادي حين استقلتُ، فأعلمتُه إنني قررت البحث عن «الثورة» في ربوع أميركا، إذ هي منيرة فيها بينما خمدت في فرنسا.

في انتظار وصول مونتوبان في اليوم التالي على وصولنا، ووفق موعدنا المتفق عليه في العاشرة صباحاً، نقلتُ على ورقة مستقلة مجموعة أسماء ساحات وشوارع طلباً لتفقدها ولملمة ما علق فيها من آثار الجريمة المدوية. كان في ودّي الانتقال منذ لحظة وصولي بعد ظهر أمس إلى بعض هذه الأماكن، وخصوصاً أنني وقعت سريعاً على فندقي، ما دام أنني وجدتُه بمجرد نزولي من عربة الجياد التي أقلَّتنا: لم يكن عليَّ سوى نقل خطوات معدودة بين مجموعة الحمالين والسواقين والفضوليين، وبين عتبة «فندق القديس بطرس وروما». صبية صغيرة كانت تقف على عتبة المدخل الخارجي من دون أن أفهم سبباً لوقوفها، وهي تمسك كرسي جلوس صغيرة بين

يديها؛ وإذ اقتربتُ منها رفعَت الكرسي الخشبية في وجهي كما لو أنها تحتمي بها مني. . .

تأخرَ السيد مونوتبان في الوصول، من دون أن تفارقني كلمتا: الذكرى والحقد، اللتين كتبتُهما أكثر من مرة على الورقة الدعائية التي جلبتُها معي من فندقي، والدالة على عنوانه. حفظت مكان الفندق بيسر، وميزته عن غيره، وهو يقع على مسافة أمتار قليلة من «شارع الكانوبيير»، ومن بيت السيد بيزوني. أمضيتُ قسماً من ليلة أمس في التجوال بين موقع المقهى في الشارع نزولاً إلى البحر، وبالعكس. كما لو أنني أتمرن واضعاً نفسي في عداد خطوط المسافرين أو الواصلين. لم أكلف نفسي عناء السؤال عن المكاتب التجارية التي تَتَالى في الشارع، طلباً للتعرف إلى هوية كاتب الرسالة. كنتُ أُسرِع الخُطى أحياناً من دون أن أبلغ بلا شك سرعة خُطى الزنجية التي رمت بجسدها في البحر، قبل أن يعيدها الرصاص المنهمر عليها إلى البحر من جديد، جثة مثقوبة ومنفوخة. كما كنت أتمهل الخُطى فاحصاً البلاطات عن آثار دماء مبقعة، أو عن طرف جلابية مصرية، كما عهدتُها في «خان الخليلي».

لم يرغب مونتوبان في الجلوس، طالباً تعويض الوقت الذي خسرناه بسبب تأخره في المجيء: كنتُ في البلدية، أحتاج إلى وثيقة ميلاد لأحد أحفادي، فانتهى الأمر في تحقيق عن سبب غياب ابني عن المجيء بنفسه: ألا يكون هارباً مثل جماعات بونابرت المتوارية عن الأنظار؟

دفعتُ بورقة أسماء الساحات والشوارع إلى دليلي، فلم يكلف نفسه عناء قراءتها: كلنا حفظنا ما جرى في أيام 25 و26 و27 من شهر يونيو الأخير. . .

تأكدتُ، أثناء المحادثة، من أن شريك خطواتي لم يكن في مرسيليا في تلك الأيام الرهيبة، بل كان قد انتقل إلى مدينة آكس، وبقي فيها، فيما كانت تبلغه من البورجوازيين الذين التحقوا بمدينة النبلاء هذه، أخبار مرسيليا وأهلها. قادني مونتوبان إلى مرسيليا القديمة، إلى أخبارها المجيدة، فأوصلني إلى تمثال هوميروس، على مقربة من «شارع أوبان»، قبل أن يعيدني من جديد إلى «شارع روما»، إلى مكاتب التجار المتلاصقة، ولا سيما من تجمَّعَ منهم في «مقهى مازاتي»؛ ثم أوصلني إلى مكتبة الأخوين كاموين الأدبية، التي يتقاطر إليها كل أديب في مرسيليا. وقعتُ في هذه المكتبة على جرائد: «اليومية»، و«المناقشات»، و«المُحافِظ»، من دون أن يقترب أحد منها... كما وقعنا في زيارتنا على لوتييه، الذي يشغل حالياً منصب السكرتير الدائم لـ«أكاديمية التصوير والنحت لمدينة مرسيليا».

عدنا القهقرى إلى «مقهى مازاتي»، بعد أن تحججتُ بالتعب، طالباً معرفة المسار الذي قادني إليه دليلي من دون أن ألتقي بمهاجر واحد. ولما سألتُه عن سبب ذلك، راح يحدثني عن عبد الرحمن: أتعرف عبد الرحمن؟ إنه ابن صاحب مخبزة في مرسيليا، اعتقلته سفينة تركية، وأَسَرَته، فعملَ في أدنى رتبة يبلغها ملاح فوق سفينة: كان يُطلب منه تنظيف سطح السفينة، أو مقصورة الربان، أو الصعود على أعمدة السفينة لترتيب أشرعتها، أو نقل مواد الأكل من مستودع التموين... توصَّل عبد الرحمن، بعد اعتناقه الإسلام، إلى ارتقاء المناصب الرفيعة وحملِ النجوم اللامعة، فأصبح باشا جزيرة رودس، وأميرالاً في البحرية العثمانية، قبل أن يجندله حبل، وهو واقف على كرسي، في العام 1706.

لما عبَّرتُ عن ضيقي، عن تبرمي بالأحرى مما يحدث لي، فأنا

لست بسائح، ولا بهاوي أخبار قديمة، حدجني السيد العجوز بنظراته: أنتَ من جماعة بونابرت من دون شك... أنت عجول مثله... أيامي مملة، لا أقع فيها على من أحادثه في أخبار الأمم والسِّيَر، وأنتَ تريد نقلي إلى أيام مشؤومة يجب أن تمحى من ذاكرة الناس قبل الجرائد والكتب.

حِرْتُ فيما يجب عليَّ فعله، وقد بددتُ صباحي هذا اليوم من دون جدوى. غير أنه أمسك بيدي ودعاني إلى تدوين ما سيقوله لي: بلى كنتُ هنا، لم أنم في بيتنا ليلتها، بل التحقتُ ببيت أحد أقاربي على طريق تولون، استعداداً لأي طارئ. كانت قد بلغتنا أخبار قبل الظهر عما يجري في «ساحة كاستلان». وجدتُ عربة لنقلي، بعد أن وقعتُ على حوذي يطلب الرحيل بدوره من المدينة ولكن مدفوع الأجر... في الليل بلغنا صوت الرصاص: كان بعض المشاغبين قد اختفوا على جانبَي الطريق... كانوا يعلمون من دون شك، أو يتوقعون هرب جماعات مؤيدة لنابوليون عبر هذا الطريق... وهو ما حصل فعلاً. توفقوا بأكثر من جندي وهارب، ما اكتشفناه عند انبلاج الفجر. وجدنا الجثث في الطريق من دون أن يكون في حوزة الجنود أي سلاح. وجدنا جثث البعض مشوهة، وأحد الأعلام الثلاثية الألوان ملطخاً بالدماء... حتى السيد أنكليس كابفيك، المحامي، لم يسلم منهم في طريق عودتهم إلى المدينة: كان ينتقل في عربة مع أمه وزوجته وأولاده، لما أُوقفت عربته، وطُلب منه النزول منها. جروا العربة ومن فيها إلى طريق مقفر محاذٍ لحاجزهم، وراحوا يسألونه أسئلة قبيحة، فيُنكرها، ما جعل أحدَهم يضربه بأسفل بندقيته، فيما أكمل الآخر عليه بعد طرح سؤال آخر... كان أفراد عائلته يتابعون ما يجري باكِين، صارخِين، من دون أن يبلغ صراخهم

أحداً في هذه الساعة المتقدمة من الليل. ثم قرر رئيس المجموعة نقل صاحبنا إلى السجن، فأخبر مجموعته بذلك، فكان منهم أن انهالوا عليه بضربات من خناجرهم، قبل أن يصل أحد الضباط (وقد بلغته صرخات الاستغاثة والعويل)، ويطلق الرصاص في اتجاههم، فيذعنون إلى الفرار. نجح الضابط في نقل الجريح المدمى، إلا أنه ما لبث أن فارق الحياة بعد ساعتين. . .

كنتُ أكيداً من أن السيد مونتوبان يعرف الكثير عما جرى، لكنه يتجنب سردها. ففي روايتها ما يوسخ سيرة المدينة التي يُحب. أراه مثل كثيرين غداة الجريمة يُقبل بدوره بعدهم على مسح ما تبقى، على إنكار ما حصل، أو على ذكره بالتقسيط. تنبَّهتُ بعد خروجه من المقهى إلى أنني أخطأت في السلوك مع هذا العجوز المحترم، الذي يرفض، في نهايات عمره الوشيكة، أن يلطخ في صورة مزيدة سيرة مرسيليا الحبيبة. لعله لا يفهم، لا يقبل، ما حدث في السنوات العشرين الأخيرة، بل قبلها. . . نحن وجدنا فيها انطلاقة العمر الأكيدة، فيما نظر إليها من دون شك بوصفها تداعياً لعالم متين وبراق. أما في شأن ما سقط من ضحايا، فلعله يريد القول إن كثيرين قبل هؤلاء ماتوا بالجملة والمفرق، وتداعت حيواتهم في مقابر مجهولة في أراضٍ لم يعلموا حتى أسماءها.

عقدتُ العزم بعد الغداء أن أبادر من سأقابلهم بمقادير أوسع من الحذر والهدوء. لستُ في صدد تحقيق صحفي عاجل، وإلا فإنهم سيظنون أنني محقق شرطة، ولو بعد شهور معدودة على وقوع الجريمة.

لن يعرفوني من دون شك لو اقتربتُ من بيوتهم في «ميدان غوفيه»، ولو حادثتهم بلغتي العربية الفصيحة أو عاميتي المصرية المتعثرة. فقد مضت سنوات وسنوات منذ إبحاري معهم فوق سفينة الرحيل من مصر. كانت السفينة مخصصة لأهل البلد، مع زوجات بعضهم وأولادهم وبعض خدمِهم ممن طلبوا اللحاق بهم في فرنسا. هل يسعفني الحظ بلقاء بعض هؤلاء الخدم والخادمات؟

لم يكن التنقل سهلاً في «ميدان غوفيه». لا تزال بعض الأكواخ المحترقة متروكة لخرابها، من دون أن يعبث بها أحد، على ما يبدو. تعمدتُ الوصول إلى الحي بعد الخامسة مساء: أهل مرسيليا، ولا سيما بعض الشبان منهم، ينتقلون للتنزه في «الكانوبيير»، أو للتمدد على جانب الضفاف طلباً للمسامرة وإلحاق الشتائم والكلمات الفاحشة بمن يتجرأ من النساء على التجوال من دون مرافقين. أما أهل الشرق فتراهم يجلسون على عتبات بيوتهم، مثلما لقيتُ بعضهم، وهم يستغرقون في التدخين. تمشيتُ بخطى هادئة من دون أن ألتفت إليهم، من دون إزعاجهم، آملاً بالطبع أن ينادي أحدهم باسمي، أو باسمي الآخر: سينيوري، كما كان يناديني به غير شرقي، ولا سيما أعضاء «الديوان» من علماء الأزهر.

واقعاً، لا أعرف المصريين تماماً، ولا الشوام كذلك، مع أنني أمضيت بينهم أكثر من سنة، منذ أن اصطحبني معه الجنرال بونابرت من «المعهد الماروني» في روما قبل حلوله العسكري في أرض الفراعنة. كنتُ متفاخراً بقرار بونابرت، على الرغم من أنني لم ألتقِ به، إلا في أول اجتماعات «الديوان» بعد تشكيله في القاهرة. اصطحبني يومها مع طالبَين اثنين من جبل لبنان، كانا يتعلمان في

«المعهد» اللاتينية والإيطالية، فيما كنت أتعلم العربية الفصيحة من أحد الرهبان مع غيري. الجنرال كليبير خفف من حماستي لما أخبرني، بعد أن تسلم مسؤولية الحكم بدلاً من بونابرت الذي استعجل العودة إلى أروقة باريس مخافة تداعي «الثورة»، أن بونابرت ما كان يعرف شيئاً عني؛ أبلغه يومها الكاهن الإيطالي، مدير «المعهد»، عن وجود ثلاثة طلاب مميزين، مفيدين له من دون أي ريب في حملته الشرقية: سأبقى مدى الحياة ممتناً لهذا الجنرال الذي انتشلني من فقري، من أصلي المتواضع، إذ جعلني أشارك في تدوين كتاب **التاريخ الكبير**، ليس بأفعالي أو بمآثري العسكرية، وإنما بريشتي ومحبرتي، إذ كنتُ كاتبه وترجمانه، حسبما تقتضي حاجاته، هو أو كليبير أو مينو. سأبقى وفياً له، إذ أخرجني من عتمة الدير إلى رحاب الأرض الواسعة. . .

لم يستوقفني أحد في نزهتي، حتى إن أحداً لم تستوقفه عودتي للمشي في الحي مرة ثانية. اقتربتُ من أربعة رجال كانوا يجلسون فوق مصطبة، بينما يلعب اثنان منهما في «طاولة الزهر»، كما يسمونها. لما بادرتُهم بلكنتهم المصرية: السلام عليكم. . . توقفوا عن اللعب، بل وقفوا لتحيتي، من دون أن يُحسنوا الإجابة عليها. ولما عاودتُها بالمصرية، ردَّ أحدهم السلام بالمصرية، فيما أحاط بي اثنان منهما سائلين بالفرنسية: من تكون؟

لم ينفع حديثي معهم. ظلوا واقفين من دون دعوتي للجلوس معهم. لم ينفع حديثي بالمصرية، بل جعلَهم يرتابون مني متسائلين بالفرنسية: من أرسلكَ إلينا؟ أين تعلمتَ المصرية؟ أتعلمتَها في مرسيليا؟ بل زادت خشيتهم، وغضبهم بالأحرى، عندما فاتحتُهم بأحداث يونيو المنصرم.

لم أنجح في محادثة غيرهم، بعد ثلاثة أكواخ في الحي، إذ ما أن اقتربت من الكوخ، حيث كانت تجلس سيدة مع ثلاثة أطفال، حتى علا صوت أحدهم من خلفي صارخاً: جاسوس... جاسوس... جاسوس...

•

لم أتابع حديث البائع، في سوق الخضار، إذ بدا لي تكراراً لخطاب كاهن أعور، أو مرتزق في صفوف الشرطة، فقد حادثني عن ورع الناس والتحاقهم بالكنائس من جديد. لحسن الحظ، هناك شبان نشطون في المدينة، بعد أن قرأتُ في إحدى الجرائد أن بعضهم أقلقوا حياة المصلين فيها، فكان أن عمل المطران على تقسيم الكنائس بين رجالية ونسائية؛ وتكفلَ حرس المدينة بتخصيص مجموعات منهم للسهر على تطبيق هذا الإجراء، وبكل حزم.

لحسن الحظ، الحياة الحقة تسري بعدُ في دماء هؤلاء الشبان، مثلما تحققتُ من حماقاتهم في المسرح ليلة أمس: لا يتوانون عن القيام بأعمال سخف وحماقة وصخب ومضايقات وغيرها: صرخوا يوم أمس أكثر من الممثلين، بعد أن توزعوا في مجموعات بين عشرة واثني عشر شخصاً، مانعين المتفرجين من سماع حوارات المسرحية، شاتمين من يعترض على أفعالهم هذه. كما سمحوا لأنفسهم القيام بأعمال منافية للأخلاق مع الشابات، المتواجدات في الصالة، كما تصرفوا مع السيدات الرزينات على هذه الشاكلة. وقعتُ عليهم يجلسون أمام السيدات رافعين قبعاتهم، بحيث لا تحسن الجالسات خلفهم رؤية خشبة المسرح. وإذا تجرأ أحدهم وأبدى ملاحظة على تصرفاتهم، تراهم يقومون بأفعال قبيحة، أو يردُّون ردوداً جارحة. تراهم يُقدِمون على الصفير لأداء الممثلين من

دون أن يتذوقوا عرضَهم، ويحكمون على المسرحية بالسوء، فيما يَتَسلُّون بتقليد أصوات الكلاب والقطط وطيور عديدة.

كنا على موعد مع مسرحية «تارتوف»، إلا أن قمة العرض أتت قبل نهايته، لما علا الصراخ بدعوى حصول حريق في المبنى، ثم تبيَّن أن هؤلاء الشبان توزعوا في أمكنة متفرقة من الصالة، فكان أن استبد الروع بالنساء، وتدافع بعضهن صوب باب الخروج، قبل أن يتحققن من المهزلة المدبرة. . .

لم يكن الوصول إلى بيت الخوري جبرائيل طويل بالصعب، أو «دون غبرايل»، كما درجت تسميته بين الفرنسيين أيام الحملة. لا يزالِ عازباً بطبيعة الحال، يعيش في بيت متواضع، مثلما أخبرني أحد أصحاب المكاتب التجارية قرب فندقي: لن تجد صعوبة في الوصول إليه. . . له بيت ملحق بالثانوية، ويأكل فيها حتى. . . ذلك أن الخوري الدمشقي، من طائفة الروم الكاثوليك، مكلف بتدريس العربية في ثانوية مرسيليا، منذ العام 1808. هذا ما وصلني من أخباره في باريس، حتى مكتب عملي في وزارة الخارجية. لم أبدِ حينها دهشتي من هذا القرار، بعد أن سخرَ وتذمرَ أكثر من مصري في باريس من قرار التعيين هذا. الخوري عرفتُه بمجرد حلولي في القاهرة، بل قبل ذلك، لما حدَّثني عنه، أثناء دراستي في «المعهد الماروني»، قريبي الكاهن عمانوئيل، العامل في أحد المكاتب الملحقة بالكرسي البابوي في الفاتيكان: اسعَ، بمجرد حلولكَ في القاهرة، للاتصال بالخوري الدمشقي، فهو مقيم في القاهرة منذ سنوات بعيدة، وكانت له صلات موفقة معي، ومع غيري من المعنيين في روما بأحوال الطوائف الشرقية في المشرق العربي. . . يمكن أن

تتكل على أمانته، وعلى رجاحة عقله وعلاقاته في ذلك البلد المجهول منك ومني. . .

عَرَفني ما أن دخلتُ إلى مكتبه؛ نزع النظارة عن عينيه لكي يتحقق من أثر السنوات على هيئتي. احتضنني، ومسح يده اليمنى على خدي الأيسر: أين لحيتك الطويلة؟ فأجبتُه على الفور: إنها تفتقد لحيتك، من دون أن أبادر بالطبع إلى تحسس ذقنه الحليق.

«دون غبريال»، كما بات يُسمّى بشكل تلقائي، قام من وراء مكتبه، وجلس قبالتي في نوع من الاحترام لشخصي، بعد أن بلغه من دون شك عملي في وزارة الخارجية. حتى إنه سعى للقاء بي، في العام 1806، حين قَدِم إلى باريس للقاء المستشرق، أستاذ العربية الأول في فرنسا وأوروبا، سلفستر دو ساسي. لم يقوَ على اللقاء بي أثناء مقامه الباريسي، إذ كنتُ حينها في مهمة عاجلة، بل «سرية» في إسبانيا، تتعلق بالملك الإسباني.

ترددتُ قبل مفاتحته بسبب مجيئي إلى مرسيليا، وهو لم يبادر إلى سؤالي مخافة سماع ما لا يعجبه: مهمة خاصة، مهمة «سرية». تركَ لي أكثر من فرصة، أكثر من وقفة في الكلام، لكي أبادره بالحديث عن «مهمتي»، وعن زيارتي له، بحكم أنني بتُّ أرفع رتبة منه، وأقوى نفوذاً من دون شك. هذا ما وجدتُه فيه من حذر منذ لقائنا، وعملِنا معاً أحياناً في الترجمة، في «ديوان» بونابرت، إذ أتيتُ مع الجيش البونابرتي، بصحبة علمائه الكبار ومترجميه، فضلاً عن كوني من أسرة إيطالية ذات نفوذ لدى الكرسي البابوي: هذا ما راج عني في القاهرة بين المسيحيين البلديين، ممن وجدوا في مقامي بينهم، ومعهم، ما قد يقوي من مكانتهم قرب بونابرت نفسه. ولم

يخفف من هذا الكلام ما كان يردده الطالبان من جبل لبنان عن كوني طالباً معهم في «المعهد» ليس إلا . . .

تباهى الخوري أمامي بعرض بعض الإنتاجات الكتابية التي أسهم فيها مع علماء «معهد فرنسا» من أمثال عالم الكيمياء مونج أو جوفروا سانت-هيلير، لكنه ما لبث أن توقف متنبهاً من دون شك إلى كوني أعرف هذا كله، ولا سيما لقربي من هؤلاء وغيرهم بحكم صلاتي القديمة والمستمرة. لا يزال الخوري القديم على حذره المتمادي، وهو ما راق لبونابرت فيه، حسبما سمعتُ عنه في مجلس خاص، إذ قال لكليبير على مسامعي: تعرف، يا كليبير، أنني أعمل بقوة وسرعة، وتعوزني دائماً حكمةٌ وحذرُ من يتعاونون معي، على الرغم من أن القرارات تبقى قراراتي، ومن أنني أبقى في الغالب متمادياً فيما أُقدم عليه. . . هذا ما يعجبني في دون غبريال. . . كلهم من البلديين شجعوني على مباشرة الحملة على الأماكن المقدسة، إلّا هو. . . رافقني إلى هناك، شهدَ معي حصار عكا، وفشلي أمام أسوارها، من دون أن يذكِّرني ولو مرة واحدة بما كان قد نصحني به. . .

سألتُه عن حاله في التعليم، وقد انقطع عن الترجمة، على ما أظن، فانطلق الخوري في حديث طويل، بل في شكوى طويلة مما يعايشه من أحوال، ما كان له أن يتوقعها لما قرر المجيء إلى فرنسا: أتعرف أنني ترددتُ في المجيء، إذ إنني كنت معتاداً على القاهرة، ولي صلاتي فيها التي تقيني من أي مكروه، وأقوم بدور مناسب مع رعيتي التي كانت تتنامى سنة بعد سنة. إلا أنني كنت أريد استكمال الحلم الذي انقطع أمام أسوار عكا، قبل حواجز المتمردين في أزقة

القاهرة. . . كنتُ أعرف أن الزمن بطيء للغاية لدينا، نحن الشرقيين، فيما زمن بونابرت عجول، بسرعة البرق الخاطف. . .

منذ سبع سنوات يدرِّس الخوري دروس العربية لمن يرغب فيها من أهل مرسيليا أو غيرهم، على الرغم من تقدمه في السن، إذ يبلغ الحادية والستين من عمره. إلا أنه يعايش الزمن البطيء هنا، في الثانوية، بعد أن وجد الحكومة لا تتَّبع سياسة نشطة في هذا المجال، على الرغم من قراراتها، وقرارات المحافظ والبلدية: سسلفستر دو ساسي يؤكد دوماً لطلابه، كما لأصحاب الشأن في باريس، لزوم تعلم العربية، كما قال لي بنفسه، لما التقيتُه في باريس. . . حتى التجار في مرسيليا يُشدِّدون على تعلم اللغات، ولا سيما العربية والتركية والفارسية. . . إلا أن عدد الطلاب يتناقص من سنة إلى أخرى.

الخوري يتمسك بعمله، ويستفيد منه، إذ تنبَّهتُ إلى كونه يتقاضى ما يزيد على ثلاثة آلاف فرنك في السنة، من دون أن يبددها في أي متعة أو واجب أو عائلة: أنتَ أفضل حالاً من كثيرين من المهاجرين، أليس كذلك؟ فأجاب بنعم، وهو يخفض الرأس، على عادة الخوارنة حين يخجلون من أمر، ويعترفون به على أنه من خطاياهم الصغيرة. لم يبدِ اعتراضاً أو امتعاضاً حين بادرتُه بالكلام عن مجازر الأسابيع الأخيرة. كان له جواب دبلوماسي: إنه أمر مؤسف. وعندما سارعتُ إلى ذكر الفظاعات وأعداد الضحايا، أجابني: قُتل عدد كبير من الفرنسيين أيضاً. . . نابوليون بالغَ في حروبه، حتى إنه كان أسيراً لها. . . أنتَ تعرف أكثر من غيرك من يكون لي، لكنه أفرطَ في الحروب. . . مهما عدَّدوا له من قبائح وفظاعات، فإنه جعل للفرنسي مثالاً هو الحرية. . . حتى لو ارتكب

أخطاء باسم الحرية، فإن فكرة الحرية لن تختفي معه، حتى مع أعدائه، حتى مع أي ملك سيحكم فرنسا بعده!

عاد الخوري إلى عظاته «الثورية»، وإن يخالطه حذرُه، فأوقفتُه لكي أستفسر منه عما حدث له أو لمعارفه، فلم يتردد في الإجابة: لعلك لا تعرف... سَكَنِي ملحق بهذه الثانوية، ولم يتمّ التعرض لها أبداً. احتمت فيها ثلاث عائلات، التي أُدرِّس عدداً من أبنائها دروس العربية... على مدى أكثر من أسبوع أقاموا وبسطوا فُرشاً وأسِرَّة في الصفوف نفسها، في الليل طبعاً، ولم يتخلف أي من أولادهم - بخلاف عاداتهم في التغيب - عن حضور صفوفي التي لم تنقطع...

لم أجد في تعابيره أسى أو حزناً. لم يذكر لي اسماً واحداً من معارفه ممن قضوا في المجزرة. لم يحدثني حتى عن المسيحيين وعن أداء صلاة الجنازة على الموتى... أخبرتُه أنه يشبه المصريين والشوام الآخرين في كونهم يمتنعون عن ذكر المجزرة:

- أنا أفهم ما يُحرِّكُهم، ما يخيفهم، بمجرد أن يتذكروا ما عايشوه، ما تخلصوا منه بقدرة قادر... غير أنني لا أفهم برودة حديثك عنهم.

- لهذا حكاية طويلة... أنا تغيرتُ، حتى إن موقفي من نابوليون تغيَّر... الثورة ارتكبت أخطاء كثيرة بحقِّ الثورة نفسها... هذا لا يعود إلى حذري، كما قد تظن، أنتَ أو غيرك... هذا يعود إلى كوني عشت تجارب وتجارب، وتعلمتُ فيها أننا، من دون تعليم، من دون كتاب، لن ننجز أي ثورة... الثورة في فرنسا أفلتت شهوات الناس من بواطنها؛ وفي مصر عاد المصريون إلى أسوأ مما كانوا عليه قبل مجيء بونابرت إليهم... الثورات الوحيدة، الأكيدة، هي ما أقوم به في الصف...

- وهل نجحتَ فعلاً؟

- أتعرف أنني خرَّجتُ طلاباً هم من أحسن العلماء؟ أتعرف غارسان دو تاسي؟ أتعرف هاغوب؟ أتعرف ألبران؟ إنهم درسوا العربية في هذا الصف، وهم مرشحون لأعلى المناصب وأبهر الإنجازات. أتعرف جورج سكاكيني؟

- ولكن من يكون أيٌّ واحد منهم إلى جانب دو ساسي؟

- أتعرف أنه عجز عن إكمال المحادثة معي في العربية في مكتبه بباريس؟

كدتُ أن أجيب الخوري بجملة أمسكتُ عن تلفظها: أتعرف أنك لا تزال تتعثر في التكلم بالفرنسية؟

لم يكن اللقاء بالخوري سيئاً، مثلما انتهت إليه محاورتي معه. عرفتُ منه، قبل وداعه، أنه تضايق كثيراً لما بَلَغته أخبار المتظاهرين من المصريين والشوام والخدم الذين هللوا وتظاهروا إثر عودة نابوليون إلى الحكم، ورفعوا تماثيله في الشوارع بشكل استفزازي أحياناً؛ وهو ما بلغني من أفواه فرنسيين عديدين ممن كانوا إلى جانب نابوليون: بدا على هؤلاء المتظاهرين أنهم منتفعون ليس إلا . . . أين هو اندماجهم في المجتمع الفرنسي، وهم على مبعدة منه؟

بدأ الخوري بعظة ثانية، أو استكمل عظته السابقة، ما جعلني أعتذر منه، فكان أن استوقفني: أتعرف السيد جورج سكاكيني؟ إنه يعمل في مكتب تجاري قرب «الكانوبيير». . . اتصل به من قبلي. . . سيُعرِّفك إلى كثيرين. . . إنه أحد طلابي المميزين. ثم كتبَ على ورقة صغيرة عنوانه.

بحثتُ عن رفاق رحلتي القديمة أينما كان، حتى في المقهى المجاور، والفندق القريب، من دون أن أنتبه إلى الفندق الذي أقيم فيه، وهو يقع على تقاطع بين «شارع روما»، الموصول في نهايته بـ«ساحة كاستيلان»، و«شارع الكانوبيير»: ألم يشهد صاحب الفندق، المواطن ريمون، بعض المشاهد الدامية، إذ عَبَرَ كثيرون، من دون شك، من المتظاهرين الغاضبين أو من الهاربين البؤساء من أمام الفندق، أو حلوا فيه لدقائق ربما قبل أن يعاودوا درب الآلام؟

هذا ما قلتُه بصيغة أقل حدّة لمدير الفندق، قبل مجيئي إلى الدير، حيث قامت الثانوية. إذ دعاني إلى مشاركته العشاء مع جملة من معارفه: لعلك تتعرف فيه على السيدة جولي بيزوني... إنها تكتب مذكرات عن المدينة.

كنتُ قد التقيتُ أكثر من مرة زوجها، السيد بيزوني: سواء في إيطاليا، إذ حادثَني عنه قريبي الخوري في الفاتيكان، أو في مرة تالية عندما انتقلتُ إلى نابولي بطلب من مديري في وزارة الخارجية للتأكد من صحة الأخبار عن انتفاضات محتملة، بل وشيكة فيها؛ ثم في مرة ثالثة لما زارنا في الوزارة بطلب من مديري نفسه، حيث كان لي معه حديث طويل، في أكثر من جلسة. أعجبني السيد بيزوني - وقد كان يكبرني - باندفاعته الحارة لحماية الثورة... كان مثلي وغيري من الإيطاليين الذين وجدوا في شخص نابوليون، في مشروعه، في تطلعه، ما يجعلهم بلداً واحداً، لا متفرقاً بل متمزقاً، بل ما يجعلهم يلاقون شعوباً أخرى في حلم واحد. إلا أنني لمستُ كذلك، في شخصه، ما يبعده عني... كنت أكثر حلماً منه، وكان أكثر واقعية مني: هذا ضروري في السياسة، قال لي مديري، لا في الثقافة ربما...

السيد بييزوني غاب منذ زمن عن مدير الفندق، منذ أن انتقل إلى بيت آخر، بعد انفصاله عن زوجته. ولم يعد المدير يأمل حتى في رؤيته بالصدفة بعد أن قضى نحبه قبل أسابيع معدودة. حدَّثني المدير في كل شيء، إلا في المجزرة، بل بدا عليه الارتباك حين عاودتُ السؤال عليه: أحداث مؤسفة... بالغوا في أخبارها. تعرفتُ إلى بعض أحداثها من نوافذ بعض الغرف في الفندق، إذ شاهدتُ، مع بعض نزلاء الفندق، مشاهد الهرب والملاحقة... لكن أحداً من هؤلاء وأولئك لم يصعد إلى الفندق. لعلّ الأجانب منهم ما كانوا يعرفون ربما بوجود الفندق... مدخل الفندق لا يوحي بأنه فندق، كما تعلم، إذ يظهر في أسفل المبنى سلم بدرجات قبل أن تصل إلى مكتب الاستقبال.

لم أتابع المناقشة معه، إذ بدا أكثر من متحفظ معي، وهي علامة أكيدة في سلوك أصحاب الفنادق، كما اعتدتُ عليهم في رحلاتي بين إيطاليا وإسبانيا. وما أظهرَ خشيتَه مني هو سؤاله لي: ألا تعرف السيد جيراردون؟ لما أجبتُه بالنفي، عاود الكلام: إنه صديق السيدة بييزوني... صديقها الحميم. وهو مصور وضابط في الشرطة المحلية. لكنني لا أعرف ما إذا كان يعمل في التصوير بدوام كامل أم جزئي...

كنتُ أتأمل تعابير وجهه، التي ما كانت تخلو من سخرية خفيفة. ولما لم أجِب منتظراً المزيد منه، تابعَ كلامه: لعلك تلقاه في العشاء هذا المساء مع السيدة بييزوني. في أثناء هذه المناقشة ما كنت قد انتبهت إلى وجود البنت الصغيرة، ذات الكرسي الخشبية الصغيرة، على مقربة منا: هي نفسها التي وقعتُ عليها عند نزولي من عربة الجياد التي أقلَّتني من آكس... كانت تجلس على كرسيها في

زاوية في صالة الطعام، وهي تنظر إلينا، من دون أن تقوم بأي حركة. ولما سألتُ السيد المدير عنها، اكتفى بالقول: إنها قريبة الطباخة في الفندق.

كدتُ أن أقترب منها، إذ كانت توجِّه نظرها صوبي. وجدتها في الزاوية من دون حراك، شادة على فستانها فوق ركبتيها، متجمعة على جسدها الصغير، فيما ينهض القسم العلوي من رقبتها، وتشخص بعينيها إلى ما تريد أن تراه. من أين خرجَت؟ أأتت من المطبخ الذي يقع خلف صالة الطعام؟ نهضتُ طالباً الاقتراب منها بهدوء، فوجدتُها تقف بدورها بسرعة فائقة، وتحمل الكرسي الصغيرة مثل ترس أمام صدرها، كما شهدتُها يوم وصولي. إلا أنني، بدل أن أتوجه صوبها، اتجهتُ إلى طاولة الاستقبال القريبة، للإتيان بملصق دعائي ورقي عن الفندق. وما استعادت الطفلة جلستها من جديد، إلا بعد أن جلستُ من جديد لاستكمال فطوري. عدتُ إلى مقعدي، لكنها أبقت نظراتها ثابتة، كما في برج مراقبة. ولم يقطع هذا المشهد الصامت والمتوتر سوى صوت الطباخة، إذ دخلَت على عجل إلى الصالة منادية: نور... نور. أأنتِ هنا؟ فأجبتُ بدلاً منها: إنها هنا في الزاوية. ضحكت الطباخة فيما كانت تقترب مني: هل حادثتكَ؟ ولما أجبتُها بالنفي، سألتني من جديد: وكيف عرفتَ اسمها؟

ما كانت تفارق الطباخة ابتسامتها، وهي تحادثني. واتضح من كلامها أنها تعرف اسمي: كيف تعرفين اسمي؟ فأجابت: هذا سهلٌ لي، فأنا عاملة في الفندق، وليس في المطبخ فقط... أعرف حتى ملابسك وأوراقك، فأنا مكلفة بتنظيف الغرف أيضاً. ولكن كيف عرفتَ اسم: نور؟ فأجبتُها بالعربية: نور على نور. لم تفهم ما قلتُ. ولما صمتَت، وأدركتُ سوء محادثتي لها، أجبتُها بالفرنسية: النور

يشعُّ من وجهها. فكان أن اختفت ابتسامتها فجأة: وكيف تعرف أنها عربية؟!

انقطعت محادثتنا في صورة مفاجئة، عنيفة، إذا جاز القول، إذ أدارت ظهرها، ومضت إلى حيث تجلس نور، وأمسكت بيدها اليمنى، واقتادتها بشيء من القسر إلى حيث اختفت وراء جدران الصالة. مضت نور معها، ممسكة بكرسيها، فيما تدير رأسها صوبي من دون أن تفارقها نظرات المراقبة القوية. ثم عادت الطباخة من جديد، واقتربت مني: أنا كوليت... أنا في خدمتك. كادت أن تدير ظهرها من جديد، لكنها اقتربت مني كما لو أنها تهامسني، عارضة ابتسامتها الجميلة والواسعة من جديد: أتسمح لي برتق أحد بناطيلك؟ ثم أردفت قبل أن أبلع دهشتي من كلامها: وقعتُ عليه بالصدفة أثناء ترتيب الغرفة. شكرتُها لاهتمامها، فكان أن مدَّت يدها صوبي للتحية: أنا كوليت... لا تنسَ.

كانت يدها ناعمة، طرية، بخلاف ما كنتُ أتوقع لطباخة وعاملة يدوية مثلها.

لم يكن اللقاء بالمواطن جورج سكاكيني صعباً بخلاف أفراد جماعته. انتظرتُه لبعض الوقت قبل التحاقه بالمكتب في شارع خلفي متفرع من «شارع الكانوبيير»، إذ لا يعمل وفق دوام منتظم، بخلاف غيره من الموظفين. يعمل لساعات، على ما قال لي، في ترجمة ما يحتاجه المدير أو الزبائن من أوراق أو معاملات، من العربية إلى الفرنسية أو بالعكس. كما يتّكلون عليه في ترجمة المحادثات التي قد يحتاجها المدير مع أحد المسافرين، أو مع أحد التجار الذي يحلون في مرسيليا، لعمليات بيع أو شراء.

كان جورج فرحاً عندما أخبرتُه عن كوني أعرف أخاه غبريال في باريس: أنا بدوري أحلم بالانتقال إلى باريس مثله... مرسيليا ميناء استقبال ورحيل... وصلتُ إليها مع عائلتي، لكنني أرغب في الصعود إلى باريس... لكن الخوري دون غبريال لا يشجعني على ذلك، بل يعدني بأن أحلَّ مكانه في الثانوية لتعليم العربية.

جورج هو صغير الأخوة سكاكيني، والثاني منهما، نيقولا، ينشط في التجارة في مرسيليا، من دون أن تكون لي معرفة به. أبدى جورج دهشته لما أنكرتُ معرفتي بأخيه: أما حضرتَ أو سمعتَ بزواج ابنته، وردة، من السيد جوزف عطية، قبل ثلاثة أعوام؟ كان أجمل عرس عرفته جماعتنا، هنا وهناك، حتى إن جريدة «المناقشات» كتبت عنه.

لعلي التقيتُ بجورج فوق متن السفينة عينها، التي أبحرنا فيها في المتوسط، إلا أنه لا يتذكرني، ولا أتذكره، لأن عمره ما كان يتعدى وقتها السابعة أو الثامنة من عمره على الأرجح... بعمر الطفلة نور اليوم، على ما أظن. هذا ما كاشفتُه به فزادت ثقته بي: هذا صحيح، أنا من مواليد العام 1794 في القاهرة.

خرجتُ مع جورج من المكتب بعد أن بات وجودنا فيه، ولا سيما محادثتنا، ثقيلة بعض الشيء على من يروحون ويجيئون من موظفين وعمال. إلا أنني لم ألبِّ دعوته لزيارة بيت أهله، ووعدته بإجراء الزيارة في الغد. كان جورج يقيم مع أهله في «حي لابلاين»، الذي وجد فيه بعض الأثرياء الشرقيين حياً راقياً يناسب ثرواتهم المحمولة معهم من مصر، والتي زادت بفعل إقبالهم النشيط على أعمال التجارة. حدثني المواطن عن الحي لما انتقلنا إلى مقهى مجاور، فسألتُه عن خالته التي عرفتُها، إذ أمضت بقية الرحلة معنا،

وهي تبكي فوق متن السفينة فقدان زوجها الجنرال يعقوب. كثيرون من أمثال عائلته يسكنون في الحي، مثل عائلات: حموي، وحمصي، وزيدان، وغيرها: لم نشهد شيئاً من المأساة... وصلتنا أخبارها مثل غيرنا، وخصوصاً أن لبعضنا علاقات مع أنصار أسرة «البوربون»... خالتي ماري تألمت كثيراً لِما جرى... لعلها كانتْ تشعر بمسؤولية دائمة، متنقلة، بعد وفاة زوجها، إزاء هؤلاء المساكين الذين جنَّدَهم زوجها أثناء حملة بونابرت، وانقادوا إليه لما قرر الالتحاق به... لعلكَ تعرف من دون شك وطأة هذه المسؤولية، إذ كان زوج خالتي الوحيدَ بين العسكر الشرقيين الذي فاز بلقب: «الجنرال».

لم أشارك كثيراً في مناقشات العشاء. كانوا فيما بينهم، يتابعون أخباراً متصلة بهم. إلا أن مدير الفندق شرَّفني بأن جعلني أجلس على يمين السيدة جولي بيزوني، فيما جلس قبالتها على الجهة الأخرى من المائدة رفيقها المصور جيراردون. أبديتُ أسفي للسيدة جولي لغياب زوجها، فشكرتني باقتضاب. ولما طلبتُ التوسع في سرد ما جمعني به أكثر من مرة بين ميلانو وروما وباريس، ابتسمَت ابتسامة خفيفة، من دون أن تعلق على ما قلتُ، بل قطعَت كلامي بالقول بلهجة حازمة: انقطعَت صلاتنا قبل سنوات على موته، ولا أحسن بالتالي معرفة أو متابعة أخباره حينذاك. ثم قدَّمتني إلى المواطن المصور جيراردون بوصفه تلميذ والدها الراحل في الفن، وسكرتيره في «أكاديمية التصوير والنحت لمدينة مرسيليا»، فكان أن أخبرته بأنني التقيت قبل ثلاثة أيام بالسكرتير الدائم الجديد، غداة وصولي إلى مرسيليا. كما أخبرتُ السيدة جولي أنني التقيتُها في اليوم

نفسه، في «مقهى العالَمين»، حيث استوقفني يومها مشهدها، وهي تكتب: النادل هو الذي حدَّثني عنكِ. . . قال لي: أنتَ مثلها، على ما يبدو، ما أن تجلس في مقهى تُخرج دفتراً للكتابة عليه.

كان في حديثنا هذا ما ربط الكلام بيننا، نحن الثلاثة، حتى إن مدير الفندق لم ينجح في إخراجنا من حديثنا، ولا في دعوتنا إلى المشاركة مع مدعوِّين آخرين ممن يهوون لعبة «الويست». ولم يكن بغريب، لما قررت جولي ورفيقها مغادرة الفندق، أن أطلب منهما موعداً؛ وهو ما اتفقنا عليه عند غروب اليوم التالي. لم أكن أحب لعب الورق، ولم أكن مستعداً لتعلم هذه اللعبة الإنكليزية الرائجة للغاية في أماسي العائلات، ولا سيما بين الذكور منهم.

انتحيتُ طاولة صغيرة في الصالة، وأخرجتُ دفتري من حقيبتي الجلدية، فيما كانت الطباخة كوليت تعمل على رفع الأطباق والصحون من على المائدة الكبيرة؛ وما أن وقعَ نظري عليها حتى وجدتُها تنتظرني بابتسامتها العريضة، بل الجذابة، ثم أرفقتها بانحناءة من رأسها. وما تابعَ ابتسامتي لها، هو أنني، بعد ثوانٍ قليلة، انتبهتُ إلى خروج نورٍ من تحت المائدة، ولكن من دون كرسيها؛ ولما وقعَ نظرها عليَّ، ابتسمَت هي الأخرى، ومضَت على عَجل.

لم أخطئ في عدم ذكر كوني أرغب في كتابة مقالة عن «المجزرة»، عند حديثي عنها مع السيدة جولي ورفيقها، بعد أن انشغلتُ فيها أبعد مما كنت أظن: كنتُ قد قدمتُ إلى مرسيليا لغرض آخر، وهو التحقق مما جرى، بعد أن وجدت في الرسالة التي وصلتني ما يشكل دعوة للإنقاذ. تتحدث اللغة الفرنسية عن رسالة موضوعة في زجاجة مرمية في البحر، عمن يرسل رسالة يائسة، فيما

وجدت في الرسالة التي بلغتني رسالة محكمة الإرسال، ولصاحبها الأكيد. ما كان يعرف مُرسلها من دون شك مقدار ما أحدثته فيَّ القراءة التي استعدتُها أكثر من مرة، ولا مقدار ما فعلتُه بها إذ استعدتُ كتابتها وأصلحتُها لغوياً من دون أن أبدل نبرتها، ولا تعابيرها. عقدتُ العزم على المجيء إلى مرسيليا، كما لو أن رفاق رحلتي البعيدة طلبوا وفاء أخيراً لِما جمعنا في تلك الليالي المقمرة التي تحولت، بعد وفاة الجنرال يعقوب، إلى جلسات عزاء وألفة بيننا. كما لو أنهم يريدون مني ما أقوى عليه من دون غيري، وهو أن أشهد لِما جرى لهم، بعد أن لم يجدوا أحداً يكتب عنهم، ويعيد إليهم كرامتهم المهدورة. لعلهم سمعوا من فتات النقاشات المتساقط من موائد الصحف عن محاكمة أحدهم، جورج أنجيلي في مدينة آكس... حتى اسمه وَرَد في صورة خاطئة، مثل أسماء كثيرة غيره، فيما الصحيح إيراده كما هو: إنجليل، بعد أن اتُّهم بأنه قَتل مع غيره أحد المزارعين البسطاء، في حديقة بيته، في هبَّة الجمهور التي أعلنت عودة نابوليون إلى الحكم... تلك العودة الناقصة، والتي استمرت أقل من مئة يوم، مثلما أحصوا أيامها.

لم أذكر ذلك أمام السيدة بييزوني، إذ علمتُ ما أن وصلتُ إلى بيتها، وعند توقفي أمام النوافذ المطلة على «شارع الكانوبيير»، أنها رأت الكثير، وهو ما أكَّدَته لي. هذا ما كتبَت عنه في «مذكراتها» التي تزمع نشرها على غرار ما فعلته السيدة المشهورة باسمها الفني: «المعاصرة».

إشارة السيدة جولي إلى السيد جيراردون كانت كافية وبسيطة، فخرج من الصالون وأتى بعدد من الدفاتر من جهة خلفية واقعة خلف الصالون. كانت الإشارة دليلاً على كونها مزمعة على مشروعها...

وكانت دالة خصوصاً على أن رفيقها يقيم معها، بدليل أنه يعرف مغازي ما تشير إليه من دون أن تقوله، بل أنه أدنى من عشيق لها، طالما أنه يأتمر بها واقعاً.

غير أنني تحققتُ، في الحديث معها، من كونها لم تقابل أحداً من أهل الضحايا، ولم تسعَ إليهم. كانت تراقب سقوطهم من مكانها العالي، فلا تتعرف على وجوههم، بل على أشكال ثيابهم وحسب. وكانت - بكل أسف، ومن حيث لا تقصد - تتصيَّدهم وتُسقطهم في الكتابة مثلما فعل الأشقياء قبلها بهم، إذ تنبَّه هؤلاء وحسب إليهم من بعيد: حيث يقيمون ويتجمعون، فأحرقوا البيوت، بل الأكواخ، من دون أن يلقوا نظرة في داخلها.

لعلي ظلمتُ السيدة جولي فيما أكتب عنها، وقد سارعتُ إلى غرفتي في الفندق لتدوين ما استفدتُ منها، بل من رفيقها خصوصاً، بعد أن مررتُ بمكتب جورج سكاكيني وأبلغته بلزوم تأجيل زيارتي لهم إلى الغد.

اقترحَ جيراردون، في أحاديثنا المتفرقة في بيتها، تفسيراً لاندلاع شرارة العنف، ووجدتُ في كلامه شيئاً من الصحة: لو لم تقُم السلطات بحجز مئات الأجانب المهدَّدِين لكانت الجريمة أفظع... والسبب هو أن الجنرال فردييه، المكلف بأمن مرسيليا، سحبَ قواته منها في 25 يونيو من سنة 1815، تاركاً المدينة عرضة لاعتداءات عصابات السوء، ممن ادَّعوا حماية الملكية، فيما كانوا يرغبون في السرقة والتعدي. أما ما بقي من قوات أمنية في المدينة فما تعدى سبعمئة جندي...

كان في ودّي، حين سمعتُ هذا، أن أسأل المواطن جيراردون: لكن أحداً ممن قُتلوا لم يتم التدقيق في هويته، في ميوله، في

أفعاله. . . قُتلوا بعد أن دلَّت ثيابهم عليهم. . . قُتلوا لأن فرنسيتهم الرديئة لم توفر لهم خطابَ دفاعٍ مقنع. . . جرت مطاردتهم، ومعاقبتهم، بوصفهم ألواناً وأشكالاً، أليس كذلك أيها المواطن. . . المصور؟

كما كانت له تتمة لحكايته الضعيفة: جرى نقل المهدَّدين إلى «حصن سان-إيف» لحمايتهم، فيما جرى اعتقال كثيرين بسبب مواقفهم، في قصر العدل بمرسيليا.

كان في ودّي أن أقاطعه، أن أسأله: أليس صحيحاً أن محافظ المدينة بقي مصرّاً على القول بعد أكثر من أسبوع على وقوع المجزرة: يجب الإبقاء عليهم في «الحصن»، لأن أهل مرسيليا يشعرون بأن حياتهم لا تزال مهددة من خروج الهاربين؟ أليس صحيحاً، أيها الضابط، أنه طُلب من بعض هؤلاء وضع إشارة فوق ثيابهم تفيد باللغة المحلية لمن هم سُمر الهيئة: «لستُ بزنجي»؟

أقفلتُ دفتري، وإذا بي أنتبه إلى وجود وردة حمراء فوق طاولة الكتابة: من تركَها لي؟ أهي عادات الفنادق الراقية في نوبة بعد الظهر؟ ربما، غير أنهم يتركون قطعة شوكولاتة في الغالب، لا وردة قانية بلون الحب.

الفصل الرابع

أنطونيو دو باسكالينو يطالب بوقت مزيد

قررتُ عدم كتابة مقالٍ عن «المجزرة»، بعد أن جمعتُ أخباراً متناثرة ومتقطعة عنها. ما أقوم به يشبه على الأرجح ما قامت به السيدة جولي وتقوم به، أي: يوميات؛ وقد تصلح هذه ذات يوم لكتابة مذكرات عما عشته، عما شهدته. فأنا، مع غيري، نشهد انقفال كتاب كبير على دفتيه، من دون أن نعلم ما سيكون عليه مستقبل الأيام القادمة. أسنشهد تكوّن كتاب كبير آخر أم مجموعة من الأوراق المتناثرة والمدعوكة؟

منذ ما قبل مجيئي إلى مرسيليا رحت أشهد انفراط الخيوط التي كانت ترزم أقسام الكتاب الكبير. هذا ما عشته في الوزارة من فوضى، وهو ما شهدتُه من هرب البعض أو من اختفائهم... هذا ما تأكد حتى في الأيام المئة التي عاد فيها نابوليون إلى الحكم. كنت أعرف، من مكتبي في الوزارة، أن أوروبا كلها باتت تعادينا، وهو ما ترسمه حركة جيوش «الحلفاء» الداهمة على أراضي فرنسا. هذا ما زاد من حركة الإبحار من مرفأ مرسيليا؛ وهو ما فعله كثيرون حفاة أو على أحصنتهم أو في عربات جياد من فرنسا إلى بلدان مجاورة...

هذا ما انتبهتُ إليه خصوصاً في هذه المدينة، بعد أن صرتُ في موقع الشاهد، المراقب، الفاحص، إذ تأكدتُ من أن الناس قد

يُقبِلون من دون رادع على أعمال خرقاء أو شنيعة، أو هذا ما يدعوهم إلى التكتم، إلى الحذر المزيد، عند العاقلين منهم، أو إلى انفلات العواطف السلبية، عند الضعفاء فيهم.

وماذا عني، وقد بدت عليَّ حركات وسلوكات ما كنت أعتني بها أو أُقدم عليها فيما مضى. أنا في السابعة والثلاثين من عمري، من دون زوجة، أو ولد. هذا ما أطرحه على نفسي من جديد، بعد أن أقدمتُ على الزواج بسرعة، وعلى الطلاق بسرعة، لتدبيرٍ ما أردتُه، وهو أن أحصل على جنسية فرنسية، فلا أبقى في عداد «المهاجرين» أو «المماليك». أَأُقبل على حياة جديدة لو سافرتُ إلى أميركا أم أُسارع إلى شيخوخة مبكرة؟

وماذا عن ولعي القديم بالكتابة، بالتنقل بين اللغات والآداب؟ أَأَنتهي إلى «مُخبر» في نهاية المطاف؟ أيتحول عملي في وزارة الخارجية إلى عمل «جاسوس»، إلى عمل «سري» أجريه لصالح وزارة الحربية، فيما يتراجع الطلب على خبراتي اللغوية، وعلى خبراتي الدبلوماسية التي حصَّلتُها؟

اقترحَ عليَّ فولني تزكية ترشيحي إلى وزارة الخارجية، وهو ما قبلتُه مكرهاً في سنواتي الأولى، قبل أن أستسيغه إذ بتُّ أتبيَّن أن الدبلوماسي، وإن هو يقضي الوقت في قراءة الجرائد، و«التقارير» الدبلوماسية من عواصم مختلفة، قد يصنع التاريخ قبل غيره، ويرصده في انتقالاته الداخلية، قبل الصحافي وقبل المؤرخ أو كاتب «المذكرات». فكيف إن اقتضى عمل الدبلوماسي استقصاء الأخبار نفسها، ومكاشفة هذا الوزير أو ذاك عن ميوله الباطنية أو عن مواقفه فيما قد يُقبل عليه لو جرى تغيير هذا المسؤول أو هذا الملك؟ كنتُ قد تعلمتُ ذلك، وخبرتُه، ومارستُه، في أكثر من «مهمة سرية»، ما

بدا عملاً مشوقاً، قريباً مما عايشته في القاهرة، وإن اقتصر دوري فيها على الترجمة الوظيفية وحسب. هكذا انتهى عملي، في جانب منه، إلى أن أصبح «جاسوساً» على رفاق رحلتي من مصر إلى فرنسا، ولا سيما الشبان منهم ممن يتطلعون إلى أعمال ومواقع أعلى ما بلغَها آباؤهم. قام ذلك، في أوله، على طلب «مشورة»، أو «نصيحة»، أو «رأي»، من مدير مكتب وزير الحربية، وأحياناً من مدير مكتب وزير الداخلية، للتأكد من «مصداقية» فلان، أو من «أهليته»، أو من طبيعة علاقاته بهذا أو ذاك. وهذا كله يتأتّى من كوني أعرفهم وعلى مسافة منهم. أأنتهي «مخبراً» عنهم، ولو بالمفرَّق، بعد أن كنا نتشارك في حلم «الأمة الكبيرة»؟ وقد يكون إقفالي للكتاب الكبير يعود إلى أنني أفتح دفتراً خاصاً بما أقوم به وأشعر به، فهل سيكون كتابي؟

لم أبدل اسمي، حتى وأنا في القاهرة. لم أجد حاجة إلى ذلك على الرغم من كوني ابتعدت كثيراً عن أصولي، عن منابتي. بونابرت انتزعني بالقسوة من ديري، مثلما كان قراصنة وعسكريون يفعلون هنا وهناك في مدى المتوسط. خطفني بهذا المعنى، لكنني وجدتُ في طموحه الأوروبي الواسع أكثر من بطاقة هوية جديدة؛ وجدتُ فيه روحاً بجناحين؛ ينقلني فأجد نفسي بيسر شديد مع من جمعني بهم. هم أكثر من عائلتي ما دام أنه تدبَّر لي طريقاً للتخلص منها؛ هم مواطنو إنسانيتي الطائرة التي تشدني منذ أكثر من سنة إلى أميركا.

تابعتُ، في عملي في وزارة الخارجية، المفاوضات التي سبقت وأدت إلى مؤتمر فيينا، في السنة الماضية، وتحققتُ من بلوغ الأمم الأوروبية «حدوداً» لها، هي حدود الأسر الحاكمة فيها، فيما بقيت

إيطاليا «ممزقة»، مكتفية بأنها تقرأ كلها **الكوميديا الإلهية** لدانتي. . . وانضمت إلى الإيطاليين شعوب أخرى، جرى «تمزيقها» في حدود تتعداها أو تخترقها، مثل الشعوب البلجيكية والبولونية والنروجية. . . فيما كانت تندلع، هنا وهناك، تظاهرات معادية مضادة لهذه الحدود، ومطالِبة بتطلعات «جمهورية». هذا ما اكتشفتُه بنفسي في أكثر من مهمة «سرية» جرى تكليفي بها: تأكدتُ - لا حباً بنابوليون - أن ما رسمه من تطلعات فعلَ فعلَه في أكثر من شعب.

هكذا لم أجد فائدة ولا متعة للقاء أهلي، وعائلتي، فانقطعت تماماً عنهم، بمن فيهم الخوري، قريبي، الذي اكتشفتُ منذ سنتين وفاته. لماذا أعود إليهم؟ ألكي أتابع حياة «ممزقة» هي الأخرى، بين رجالها الذين يغادرون للصيد الموسمي، لمدة شهور فوق ضفاف المتوسط، فيما تنتظر الأمهات على عتبات بيوتهن من دون أن يكن أكيدات من أن أزواجهن سيعودون إليهن بالضرورة، بفعل الموت، أو الوقوع في الأسر من قبل القراصنة؟ هذا ما عرفتُه مع والدي، وأخي البكر، وعمي وأولاده الثلاثة، إذ يختفون سنوياً متوجهين إلى الشواطئ المقابلة لاصطياد الأعشاب البحرية والاسفنج والمرجان وغيرها من مؤن البحر. كنا ننتظرهم لكي نسمع منهم أخبارهم في تلك البلاد البعيدة، والتي كانت قريبة واقعاً: كانوا يحلُّون في الغالب في خلجان مهجورة، ويُخزِّنون صيدَهم فيها، ويجففون شباكهم فيها، ويُمَلِّحون أسماكهم ثم يعودون من جديد إلى البلدة. . . ما كانت لهم بيوت هناك، بل كانوا يتدبَّرون فيها سكنهم بما يتوفقون به، أو كانوا ينامون في المراكب بعد تجفيفها، في الصيف خصوصاً.

كنا نعيش في ليفورن، إلا أن صيادينا كانوا يلتقون بصيادين من

توري ديل كريغو خصوصاً، فيما علمتُ، بعد سنوات، في وثائق وزارة الخارجية، بوجود مراكب صيد عديدة تعود إلى أهل كورسيكا، وتوسكانة، ونابولي، وصقلية وغيرها.

كانوا يأخذون معهم كل ما سيحتاجون إليه في رحلتهم الجنوبية، حتى إنني كنت أساعد أمي، منذ فصل الشتاء، في إعداد مواد الغذاء المجفَّف لهم، ولا سيما اللحم المقدد، وأدوات الصيد، فيما كانوا يبادلون أحياناً السكان المحليين، من جزائريين ومغاربة وتونسيين، بعض المواد. كانوا ينتقلون ليعودوا، فيما لم أعد إلى بلدتي بعد أن انتقلتُ إلى روما... حتى إنني سمعت في باريس هذه الجملة أكثر من مرة عن هؤلاء المهاجرين الموسميين، وهي أنهم «كانوا يأخذون (من الخليج الذي يحلُّون فيه)، من دون أن يأتوا إليه أو إلى أهله بشيء».

لهذا لم أعد إلى ليفورن بعد هزيمة جيشنا في مصر، بل ركبتُ في الفرقاطة، التي أعدَّها الإنكليز لنا، ووضعتُ نفسي مع أعداد من المصريين و«الشوام» والسودانيين والأثيوبيين واليونانيين واليهود في بُهمة الليل المتوسطي، مكتفين بنجمة عالية كانت تنير طريقنا من بعيد: خرجنا مهزومين من مصر، من الشرق، لكننا كنا نتلهف إلى الوصول إلى بلدنا الجديد. كان شعوري حينها أقرب إلى شعور أهل البلد، مني إلى شعور الفرنسيين. وقد يكون في هذا ما جعلني أختار الرحيل معهم فوق الفرقاطة عينها... ولما واجهني الضابط الإنكليزي بالسؤال، عند عتبة السلم الصاعد إلى السفينة، متبيناً علامات وجهي، أجبتُه بالعامية المصرية.

غير مسافر فوق السفينة بدَّل اسمه بمجرد حلوله في مرسيليا أو

مولان أو باريس، كما لو أنهم مواطنو بلد جديد، بلد مكتَسب: عبد الله حسبون بدَّل اسمَه بعد زواجه من فرنسية، وأصبح: عبد الله دو بون، ما يشير إلى اسم نبيل؛ بل راح يروِّج كونه - هو الفلسطيني الأصل - جديراً بوراثة المُلك فيها... أما «جبرائيل» فقد أصبح «غبريال»؛ و«جرجس»، «جورج»؛ وعائلة نعمة الله تحولت إلى عائلة «نعمه»... غيَّرَ البعض أسماءهم، من دون أن يغبروا عاداتهم البلدية، بدليل أنهم طلبوا مُلكاً أو لقباً، فضلاً عن الإعاشة الدورية، التي ما كانت تتعدى الفرنكين أو الفرنكين ونصف الفرنك في اليوم الواحد. أما يوسف حموي فادَّعى بدوره أصلاً نبيلاً، فوجد أنه يتحدر من «بطريركية أنطاكية»...

لكنهم لم يبدِّلوا أسماءهم فقط، بل بدَّلوا سِيَرهم أحياناً. ففي مولان، في ضاحية باريس القريبة، انقسم عسكر نابوليون بين ملتحِق بأسرة «البوربون» العائدة إلى الحكم، وبين من طلوا أوفياء للإمبراطور، على قلَّتِهم، بل أعيدت أعداد منهم إلى الخدمة العسكرية في العام 1814، ممن سُرِّحوا من الجندية وعادوا إلى مرسيليا... رستم رضا الشهير، مملوك بونابرت نفسه، لم يلتحق به فوق درب المنفى، بل انتقل من فونتينبلو (حيث جرى تجميع المسرَّحين من الجندية والمجندين من جديد) إلى باريس، وفتح محلاً لبيع أوراق «اليانصيب»، ما أدهش حينها رئيس الشرطة الملكية في باريس، وما بلغ جدران وزارة الخارجية، التي تُعنى بأخبار الداخل، لا بأخبار الخارج وحدها.

أما يوسف حموي فقد فعل ما هو أدهش، إذ استعجل في الوصول إلى باريس، وأعلن ولاءه للملك، قبل أن يرحل نابوليون من فونتينبلو إلى جزيرة المنفى الأخير؛ بل قام أو قال ما هو أوجع

(على ما أخبرني مديري في الوزارة نقلاً عن الكونت سمللي)، إذ تعهد - إن رغب الملك في ذلك - بأن يأتي برأس نابوليون «في كيس»، متكلاً من دون شك على أن الإمبراطور يمحض مماليكه ثقة كبيرة، ويعهد إليهم بحمايته الخاصة، وبحماية قصوره العديدة.

هذا ما قاله الجنرال ناي بدوره، إذ تعهد بجلب نابوليون نفسه في «قفص من حديد». لم يلتحق حموي بنابوليون، بعد عودته من جزيرة ألب، بل هرب صوب الحدود الإسبانية للتخلص من الحرس المدني والعسكري. هذا ما آلمني للغاية، إذ كنت أعرف حموي منذ أيام القاهرة، وقد شغل منصب المسؤول العسكري عن الشوام في أيام الحملة في مصر. . . بل عرفت، في مرسيليا، أنه ترك أولاده الستة من زوجته الفرنسية، وابنه البكر من زواج سابق، في هذه المدينة، لكي يقيم في باريس، منذ عامين على الأقل. . . كما علمتُ من جورج سكاكيني، نقلاً عن خالته، أن حموي هو الذي عمل على إقناع أعداد من الجنود والضباط المماليك بالالتحاق بالسلطات الملكية الجديدة.

هذا ما يُذكِّرني ببيت شعر للشاعر الفارسي الرائع سعدي، إذ يقول ما معناه: «لو كان الطاعون يمدُّ الناس بإعاشات، لكان الطاعون قد وجد له دعاة وخدماً».

لبستُ صباحاً البنطال الذي أصلحته الطباخة، ووجدته ينتظرني على سريري عند عودتي مساء أمس. كان جورج ينتظرني بدوره ببنطاله وسترته في المكتب التجاري. . . لعله خرج من مصر بالجلابية الصغيرة، هو مثل أخوته ورفاق الرحلة، وانتهوا إلى ارتداء الزي الأوروبي، من دون القبعات العالية بطبيعة الحال. قد لا يعرف

جورج أن بونابرت ارتدى اللباس المصري في أيامه المصرية الأولى، ثم عاد من جديد إلى لباسه الفرنسي. . .

كان هاغوب ينتظرني في مكتب جورج، بعد أن أبلغه الخوري طويل بوجودي في مرسيليا، وجورج بموعدنا المتفق عليه. كما أخبراني أن ثالثاً، أنطوان ضاهر، من جبل لبنان، سيلتحق بنا في المقهى القريب، بعد وقت، بعد انقضاء نوبة الأخير في «المحجر الصحي».

كان في ودّي سؤالهما عن هوية مُرسِل الرسالة، لكنني امتنعتُ مدركاً أن من أراد إبلاغي الرسالة لم يتعمد ذكر اسمه، عدا أن انتقالاتي بين الشرقيين قد تخبره بمجيئي: لعله أراد التنكر عمداً. . . من يضمن لي أنه لم يتنكر وراء هوية مصري لكي يستدرجني إلى ما يخطط له من دون علمي؟ أشك في ذلك، ما دام أنه أورد معلومات تخصني، وتخص خروجي مع أهل البلد من مصر. . .

لم يكن في حسابي إثارة قلق هؤلاء الشبان، إذ يواجهون مع أهلهم أزمة دقيقة تضع على المحك ديمومة علاقتهم وإقامتهم في هذه المدينة. لعلي كنت أفكر فيهم كما لو أنهم يسألون أسئلتي أنا بنفسي، فيما كانوا غير مبالين بها: إنهم مشغولون بفرنسا، بباريس. . . يحلمون بـ«الصعود» إليها، مثلما قال لي جورج في لقائنا الأول. هذا ما خلصتُ إليه أيضاً من كلام هاغوب: لا أعرف كيف سأجد فرصة للانتقال إليها؟ لعلك تعرف من دون شك أن مجرد الانتقال إليها، ولو لأيام، ومن دون إذن من السلطات، يعرِّضنا لقطع الإعاشة الشهرية. . . لعلك تعرف، من دون شك، أن السلطات الجديدة قطعت الإعاشة عن أهلنا. . . لم يقبض أحدٌ منا

مرتبه في مطلع الشهر الجاري، وها نحن نشرف على نهاية شهر يوليو من دون أي استلام، من دون أي خبر أكيد. . .

جوزف هاغوب، أو جوزف هاغوبيان بالأحرى، أرمني الأصل. كان في عمر جورج حين انتقل مع عائلته معنا، من دون أن يتذكرني بطبيعة الحال. كانوا شغوفين باللقاء بي: لهم أن يستدلوا مني عما فاتهم. . . لهم أن يفهموا مني ما لا يُحسن أهلهم شرحه، وهو سبب مغادرتهم لمصر. . . لهم خصوصاً أن يستبينوا مني حقيقة الصعود الثقافي والاجتماعي لو انتقلوا إلى باريس، بعد أن بلغتهم نجاحات: مخايل صباغ وروفائيل زاخور والياس فرعون والياس بُقْطُر وغيرهم.

كانوا فرحين بلقائي، بطرح أسئلة وأسئلة عن الدرس في باريس، عن الصحف والكتب فيها، عن تدريس اللغات وأعمال الترجمات، فيما اعتنى ضاهر بسؤالي عن إصدارات الشعر: كان يختلف عن رفيقَيه في كونه انتسب إلى مدرسة خاصة، وتابع دروسه فيها مثل أي ولد فرنسي، لما حلَّ أهله في مرسيليا. . . فجأة بدا لي أنهم ولدوا في فرنسا، لا في مصر، وأنهم يختلفون عن آبائهم العسكريين أو المساكين.

لم أجد فيهم الحذر بل الاندفاع، وخصوصاً أن الأيام قلقة ومضطربة. لا يتأخرون عن إخباري عن مشروعاتهم القريبة، أو عما يحلمون بعمله: جورج قد يَقبل في نهاية المطاف الحلول محل الخوري طويل في التدريس؛ وهاغوب تستهويه الترجمة والأدب وبلوغ باريس؛ فيما استوقفني مشروع ضاهر أكثر من غيره إذ يلامس عملي الكتابي. ينوي الكتابة عما جرى، وهو ما باشره أمامنا، إذ راح يصف مشهد الزنجية القتيلة في ضفاف البحر: لما سقطَت في الماء،

كانت ترفع ساعدها الأيمن من دون أن نعرف ما إذا كانت ترفع شارة النصر أم تستكمل شكواها. لعلّ أنطوان ضاهر يريد كتابة رواية، لا تحقيقاً... كما روى لنا أنه ساعد الجنود في الصعود إلى المرتفعات والروابي لطمأنة الفارين، وجلبهم إلى المدينة: مجموعة من حرس المدينة انتقلت في العاشرة مساء للعناية بهم. تشرفتُ بكوني التحقتُ بالمجموعة من دون أن أكون جندياً، إذ إن في ما أقدمتُ عليه بعض العزاء في أيام الحداد هذه. هؤلاء الناس البسطاء والفقراء، الذين روَّعتهم جماعات السوء في سواد الليل، ارتاعوا إذ وصلنا إليهم. أحدهم اقترب مني بلهفة وعانقني؛ وهو ما فعلَه كثيرون بعده. كانوا صامتين... ولما حصلوا على الأمان شرعوا في العويل، وركعوا طالبين الحماية. وما لبث صراخهم أن خفتَ، لما تحققوا من الرحمة التي نعاملهم بها، سواء المسنين منهم أو الأطفال.

لم يكن في مقدوري إخبارهم بما جرى لأهل الرحلة المصرية في باريس. فنجاح هذا وذاك لا يغيِّب سواد اللوحة أبداً. هذا ما أشرع في كتابته بعد مغادرتهم المقهى، وبعد أن بلغني من ضاهر نفسه أن الترجمان الشهيرِ الخوري روفائيل زاخور حلَّ في مرسيليا قبل يومين، على ما علم من زميله في «المحجر الصحي»، وهو ينوي العودة إلى القاهرة في أول سفينة مبحِرة. ما لا يعرفه الثلاثة المراهقون هو أنني، مثله، أستعد للرحيل، فيما هم يتوثبون لبلوغ كراسٍ شاهقة - على ما يأملون - في أعلى سلم الثقافة الباريسية.

ما لا يعلمه الشبان الثلاثة المتوثبون هو أن الخوري زاخور يرحل، ما يجعل كرسيه الجامعي في باريس شاغراً، وهي أعلى كرسي بلغها أحد منا: ترجمان بونابرت، ومثقفه الشرقي الأول،

يرحل وقد انتهى عهد نابوليون. الأب زاخور محنَّك ومجرب، من دون شك: لم يترك مصر في عداد القوات الراحلة، بل بعد سنتين، لكنه يخرج من فرنسا قبل غيره، عائداً إلى مصر.

لم أودّع أحداً في باريس عندما قررتُ المغادرة. خرجتُ منها بصحبة ثلاث حقائب وحسب، مما اكتفيتُ به من سنوات الترحال: حقيبتان لثيابي، وثالثة لكتبي ومخطوطاتي وأوراقي الثبوتية. كان لي أيضاً هذه المرة، وعلى عجل، أن أصرف من حياتي، من بيتي، ما لا حاجة له... أي أن أقرر ما أحتاجه منها، وما أتلفه، أو أُسقطه إلى الأبد من مقتنياتي. أبقيتُ في الصالون سجادتي الفارسية التي انتقلَت معي، وفي أدراج المكتبة، في غرفة النوم، كتباً بأكثر من لغة، مكتفياً بكتاب **روح القوانين** لمونتسكيو، و**كانديد** لفولتير، وقصائد متفرقة لفيكتور هوغو، وشعراً لسعدي الفارسي، وكتاباً لفولني وغيرها. أنهيت عملية الاقتناء والتلف في أقل من يوم، بعد أن كنتُ قد خصصت لهذه العملية ساعة أو أكثر بقليل، فإذا بي تصيبني الدهشة لما جمعتُه في أقل من خمس عشرة سنة، متنقلاً في باريس بين بيت وآخر.

في بيتي الباريسي الأول، أي في غرفتي الشديدة العفونة، جعلت من سجادتي سريراً لي فوق السرير البالي والكريه. كان منظر «فندق النورماندي» كريهاً، ولا يبعد سوى خطوات عن دير قديم، ما ذكَّرني بديري السابق. كان الوصول، بل الصعود إلى غرفتي شبيهاً بوصولي إلى غرفتي في ديري القديم، إذ كان عليَّ أن أصعد السلالم الرتيبة، ثم أن أعبر ممرات طويلة قبل بلوغ الغرفة التي تشع منها روائح كريهة بحكم عتمتها المطبقة.

في هذا الفندق البائس حللنا، أنا وجبران مهنا ومخايل قبرصي

وغبريال داتي وغيرنا. وهو ما أعاده على مسامعي جبران لما زارني بعد سنوات في مكتبي في الوزارة، طالباً مني التدخل بعد أن اكتشفَت السلطات وجوده في العاصمة من دون إذن يسمح له بالانتقال من مرسيليا إليها. لم أنجح في مساعدته، إلا بتسديد إيجار عشر ليالٍ عنه في الفندق اللعين...

رفاق الرحلة حلَّ أكثرهم في مرسيليا، بوصفهم «منفيين»، فيما جرى تسجيل العسكر منا في مولان، في الضاحية الباريسية، وما سُمح إلا لعدد قليل منهم بإمكان الانتقال إلى باريس، إن نجحوا في أن يكونوا «نافعين» ولهم عملٌ في العاصمة. يوحنا شفتيشي، القبطي، انتقل إلى باريس بعد وصولنا إلى مرسيليا في العام 1801، بوصفه خادماً في كنيسة مار روكز في باريس، من دون أن ينقطع عن قبض إعاشته من مرسيليا... جوزف مسابكي، رفيق «المعهد الماروني» في روما، لم ينجح في إيجاد عمل في باريس، فعاد إلى مرسيليا... جبران مهنا فشل، هو الآخر، في إيجاد عمل في الترجمة أو في اللغات، فالتحق بجيش الحملة على إسبانيا في العام 1810 بوصفه «بائع» مواد للطبخ والأكل، أي ملحقاً بالجيش بهذه الصفة: هناك التقيتُه، ذات مساء، في إحدى «مهامي السرية»، وأخبرتُه بافتتاح مكتب خاص بهم في «ساحة فاندوم» بباريس، يمكن لهم قبض إعاشاتهم فيه بدل النزول إلى مرسيليا كل شهر لتسلمها: أتعرف أنني عبرت المئتي فرسخ وأزيَد بين مرسيليا وباريس، في العام 1802، مشياً على الأقدام، إذ كنت أخاف من اعتقالي في إحدى عربات الجياد، وفي نقاط التفتيش؟

كانت الحملة مؤلمة في إسبانيا، أقرب إلى أعمال فرق وعصابات منها إلى عمليات عسكرية للجيوش. كان الإسبان يكرهون

«المماليك»، إذ كانوا يذكّرونهم بالمسلمين في الأندلس، الذين يعودون اليوم في ركاب نابوليون، وفي هيئة «محرري» إسبانيا: تعرَّض بعضهم لجلد عمومي في مدريد في 2 مايو من سنة 1808 أثناء انتفاضة أهل المدينة...

أما أنطوان سيوفي فقد التحق بنا بعد وقت، وجرى تسجيله في مرسيليا فيما هرب إلى باريس باحثاً عن عمل، وأجبرته السلطات على الذهاب إلى مرسيليا لتحصيل إعاشته... لم يجد في العام 1809 حجة لعدم الذهاب وإمكان قبض مرتبه في باريس سوى أنه مريض في سفارة بلاد فارس في «شارع فريجوس».

الفقراء منهم كانوا يقيمون في «شارع باك»، في «ممر العجائب»، جنباً إلى جنب مع المجرمين وعصابات السوء، صامدين وصبورين، في انتظار عمل، والبقاء بالتالي في باريس... أما تجمعاتهم فتوزعت في باريس حول «القصر الملكي» وحدائق «التويليري»، وحول «جسر سان-ميشال» على الضفة اليسرى من نهر «السين»، وعلى مقربة من «الأنفاليد». أما الخدم والخادمات فقد توزعوا في مساكن مؤقتة، أو في غرف في عالي البنايات المطلة على نهر «السين»، ولا سيما الأثيوبيات منهن، أي جماعة «حليمة» كما كنت أسميهن: بعد أسبوع على زواجي، انتقلتُ مع زوجتي إلى أماكنهم للتعاقد مع إحداهن؛ وبعد الاتفاق مع إحداهن، المسماة «حليمة»، عدنا في اليوم التالي لاستقدامها معنا إلى البيت، فلم نحسن التعرف على مكانها، ولا على هيئتها، فيما كانت كل واحدة منهن تبادرنا: أنا حليمة... أنا حليمة... عدتُ إلى البيت مع زوجتي من دون خادمة، فيما كنت أخبرها ضاحكاً بالمثل العربي المعروف: عادت حليمة إلى عادتها القديمة...

وجدتُ الطباخة تنتظرني لما حللتُ في مطعم الفندق:

- متى يمكنني اللقاء بكَ؟

- بما يمكنني إفادتكِ؟

- الأمر ضروري ويحتاج إلى شرح طويل... هل يمكنني المجيء إلى غرفتك أم تلتقي بي في بيتي يوم الاثنين، يوم راحتي؟

كانت مصممة على ما تريده. وهو ما بدَت عليه كذلك حين قرعَت على باب غرفتي في الوقت المتفق عليه، في الحادية عشرة ليلاً. دخلَت متجهة إلى الكرسي الوحيد أمام الطاولة الصغيرة، التي انتهت إلى أن تكون مكتبي المتواضع: أصحيح أنك تحقق في مجزرة «المماليك»؟ أجبتُها أنني لست محققاً أبداً، وإنما أعمل على تدوين أخبار ومشاهدات بعضهم، بما أنني عرفت كثيراً منهم في مصر، ثم في فرنسا. لم تتمالك كوليت دهشتها، لما عرفت أنني، أنا الإيطالي، أكاد أن أكون أكثر شرقية من هذا وذاك. راحت تسألني عما اكتشفتُ، عما عرفت، عما دونت... ولما سألتُها عن سبب اهتمامها بهم، هي الفرنسية القادمة إلى مرسيليا من مونبلييه القريبة، أجابت: لعلي أفيدك بشهادتي... ولما سألتُها عن مصدر شهادتها، أجابتني: أنا أقيم في الفندق، وأنام فيه، منذ اندلاع الأحداث، وأعود إلى بيتي مساء الأحد... ما لا تعرفه بطبيعة الحال هو أن بيتي يقع بين «ساحة كاستيلان» و«ميدان غوفيه»...

كانت المفاجأة مدهشة، واتفقنا على مغادرة الفندق سوياً في الليلة القادمة، الليلة التي تعود فيها إلى بيتها... كانت عيناها تبرقان بضوء غريب لما رافقتُها إلى باب الغرفة. توقفَت قليلاً وتماهلت في الخروج، ثم اقتربت مني: هل تسمح لي؟ ثم قبَّلتني قبلة على خدي، وغادرت من دون أن تلتفتَ إلى الوراء.

أعادتني كوليت من جديد إلى الملف الذي كنتُ قد نسيته، أو أبعدته عن مرمى نظري بحكم كوني لم أحصل على معلومات أو شهادات قوية: لعلّ السيدة جولي أخذت منها ما يكفي، عدا أن السيد جيراردون يساعد عشيقته، من دون شك، ويوفر المعلومات لها.

لعلّ السيد مدير الفندق هو الذي أخبرَ كوليت بصلتي بالأحداث، بعد أن فاتحتُه بها، وبعد أن وجدني أدوّن فوق دفتري المعلومات المقتضبة التي حصَّلتُها منه. في سلوكها ما يحير، ما يثيرني أيضاً: كيف لطباخة مثلها أن تعتني بما جرى؟ أتكون «مخبرة سرية»؟ هذا صعب. أتكون معجبة بي؟ أتساءل، وقد وجدتُ، بعد رحيلها، وردة حمراء أخرى فوق سريري، على الجهة الأخرى منه، ما دام أن الغرفة معتمة، ولا ينيرها تماماً الشمعدان الذي كنت قد أشعلتُه بمجرد عودتي من المطعم. كما انتبهتُ إلى أمر آخر، وهو أن أحداً فتح أو تفقد محتويات حقيبتي الأخرى، المركونة في الزاوية، والتي وضبتُ فيها كتبي ومخطوطاتي وأوراقي الثبوتية، أي ما لا أحتاجه في حياتي اليومية. كيف لكوليت أن تقرأ ما فيها، وهي لا تحسن القراءة والكتابة، على ما علمتُ يوم وصولي إلى الفندق، عند تدوين بطاقة تسجيلي؟ أَفتَّشَت الحقيبة طمعاً بأموالي؟ ربما، لكنها لا تدرك أنني أخفيها في زناري - هذا الزنار الذي لا يفارقني منذ القاهرة، حين علَّمني الشيخ عبد الرحمن الجبرتي الطريقة المُثلى في إخفاء الأموال حيثما نتنقل: أنا لا أسافر مثلك، يا أستاذ دو باسكالينو، لكنني عرفتُ بما بدأ يفعله أحد كبار التجار من بولاق، بعد تعرضه للسرقة من قبل بعض العربان...

كانت مفاجأتي أكبر، في الليلة التالية، لما وجدتُ الطباخة كوليت تنتظرني مع نور، ومع كرسيها الصغير، أمام مقر البريد بجانب الفندق. كانت تريد الانتقال مشياً على الأقدام من الفندق إلى البيت، إلا أنني فضلت استئجار عربة بجوادَين للانتقال إلى حيها: جلسَت مقابلي وهي تمدُّ صوبي ابتسامتها العريضة كما لو أنها تُفسح مكاناً واسعاً لاستقبالي، فيما كانت نور تراقبني كعادتها، من دون أن تبادلني أي تعبير.

أخبرتُها أنني عبرتُ «شارع روما» هذا أكثر من مرة في الاتجاهين، بعيد وصولي من باريس. وأن أكثر من شهادة جمعتُها حدثتني عن أن الشارع كان مسرحاً مفتوحاً لمشاهد الفظائع في الليالي الثلاث الرهيبة. لم تُجبني كوليت، أي لم تشاركني فيما كنتُ أُخبرها به... كانت تنظر إليَّ بإلحاح قبل أن تقول لي: من أين أتيتَ؟ كيف حللتَ بيننا وفي الفندق عينه؟ لم أقوَ على إجابتها، إذ وصلت بنا العربة إلى بيتها. ماذا كان في إمكاني أن أقول؟ أأقول لها إنني لا أعرف شيئاً عن المدينة، وإنني اخترتُ فندقي بمجرد توقف العربة إلى جانبه، وبمجرد معرفتي من الحوذي أنه يقع على مسافة عشرات الأمتار من المرفأ، ومن مكاتب السفر؟

كان بيتها أقرب إلى غرفة متسعة، إذ كان يتألف من صالون، ومن غرفة نوم، فضلاً عن مطبخ وحمام متلاصقين، ما لا يزيد على مساحة غرفتي في الفندق. هذا ما أخبرتني به، وهي تحمل نور فوق ذراعيها من العربة إلى السرير.

أعدَّت كوليت لعشائنا سلطة وأنواعاً مختلفة من اللحم المقدد فضلاً عن جبنة وزجاجة نبيذ أحمر. أعدَّت ذلك على عجل، وبخفتها المعهودة، معتذرة عن عشائها المتواضع. كوليت هنا، هي

غير كوليت هناك، إذ ما أن جلست قبالتي على طاولة الأكل الصغيرة، حتى رفعت كأسها صوبي منتظرة أن أدقَّ كأسي بكأسها؛ وهو ما فعلتُه من دون تردد.

راحت تخبرني بأخبار متقطعة، متناثرة عما جرى في حيِّها: جارتي، الأرملة مارلين، التي تسكن وحدها في الطابق السفلي، هي التي وصلت إلى الفندق وأخبرتني باندلاع الأحداث... سألتني ما إذا كان في إمكانها البقاء لبضع ساعات في الفندق... لعلها خافت من إقدام البعض على التعدي عليها، وهي التي تعاشر - حسبما راج عنها - أحد المصريين. لم تُنكر ذلك لما فاتحتُها في السابق بهذا الأمر: أعاشرُه في صورة متقطعة... هذا أفضل... أتريدين ألا ينقطع مسلسل العروض الجنسية الوفيرة التي يلاحقني بها أكثر من جار في الحي، عندما أعود إلى بيتي عند الغروب؟ منذ أن رافقني حسين في ثلاثة أيام متتالية إلى بيتي انقطعَت العروض... حسين يعمل في المرفأ، وهو قوي البنية... لكنهم كمنوا لحسين منذ الليلة الأولى، ما أن خرج من كوخه، والتحق ببيت مارلين، هرباً منهم واحتماء بها. لحقوا به إلى بيتها، فيما نجحت هي في التخلص منهم، والالتحاق بالفندق... لكنني سمعتُ من أحدهم بعد يومين أن حسين شوهد في عمله في المرفأ، فيما قال آخر إنه سافر وعاد من جديد إلى مصر...

أخبار وأخبار عما عرفته كوليت من مارلين، وعن غير متخفٍ في الفندق ولو لساعات قليلة، قبل الهرب من جديد. كانت تنتقل من خبر إلى آخر، قبل أن تعود إليه من جديد، ما يعني أنها تروي ذلك للمرة الأولى، فلم تنسّقه أو تجدوله بالتالي: لماذا لا تدون ما أرويه لك؟ أليس جديراً بالاهتمام؟ اعتذرتُ، فيما كنت قد وضعتُ

دفتري أمامي، على الطاولة الصغيرة أمام مقعدي في الصالون، بعد انقضاء العشاء: ابتسامتكِ جذبتني بحيث نسيت تدوين الأخبار. لا أعرف كيف خرجت من فمي هذه الكذبة التي أردتُ منها تدارك عدم اهتمامي بما كانت ترويه، فكانت أن مدَّت يدها اليمنى صوب يدي اليسرى من المقعد المجاور حيث تجلس، وشدَّت عليها بقوة: كنتُ قد لاحظتُ اهتمامكَ بي... هذا ما دعاني إلى قطف أجمل الوردات لك... لكنك خجول على ما يبدو... لا أعرف من أين أتت كوليت بما قالته، ولا حديثها عن اهتمامي بها.

أنتقلُ من دهشة إلى أخرى مع كوليت. إلا أن الأخيرة كانت هائلة. فمن دون سابق إنذار، وتبديلاً لحرجي العاطفي أمام اندفاعتها الأكيدة، سألتُها: كيف يحدث أن ابنتك تُسمّى: نور؟ فأتى جوابها قاطعاً وسريعاً: ليست ابنتي. ولما توقفتُ عن السؤال، مستكملاً بعيني المندهشتين من دون شك ما أريد استكمال معرفته، تابعت قولها: هي ابنة إحدى صديقاتي... وعندما لم أقطع حديثها، استكملت: صديقتي المصرية آمنة... صديقتي التي اختفت في «المجزرة».

آمنة لم تكن تسكن بجانبها، بل في جهة عليا من «ميدان غوفيه». كانت تساعد كوليت في الطبخ أحياناً، وفي التنظيف في أيام الأسبوع: أتعرف أنها كانت تعمل أيضاً، قبل اختفائها، في تنظيف بيت السيدة جولي؟ تعرفتُ إليها بالصدفة، بعد أن أخبرني حسين، صديق جارتي مارلين، عنها، حين سألتُه عن حاجتي إلى طباخة مصرية ماهرة نحتاجها أحياناً في الفندق لتلبية زبائن مصريين يحلّون بيننا أحياناً. فكان أن نصحها حسين بآمنة، التي عرف عنها من مارلين أنها عملت لبعض الوقت في مطبخ الجنرال كليبير في القاهرة...

آمنة اختفت في الليلة الأولى من دون أن يعرف أحد مصيرها: أقُتلت؟ أهي جريحة حتى اليوم، وقيد المعالجة في أحد المستشفيات؟ أهي هاربة ومن دون ابنتها؟ أهي التي أودعت ابنتها في الفندق؟ أوجدت الوقت الكافي لإيصالها إلى الفندق؟ ماذا عن حسين؟ هل قُتل؟ هل اختفى بدوره؟

باتت لي أسئلة جديدة، تُطلق من جديد ما كان قد انغلق في دفتري. فأنا لأول مرة أسمع باسمين على الأقل لم يخبرني عنهما أحد. هما اثنان ممن التقيتُهم من دون شك في رحلتنا الشهيرة من دون أن أعرفهما: آمنة وحسين.

وهناك ثالث في الحكاية الجديدة: نور بطبيعة الحال. لكنها مشاركة صامتة، وطفلة لا تقوى على التذكر من دون شك: من يكون والد نور؟ هذا ما امتنعت كوليت عن الإجابة عليه ليلة أمس، متعللة بكونها لم تسأل آمنة يوماً عن زوجها، وخصوصاً أنها كانت تعيش وحدها في بيتها من دون شريك. ولما ألححتُ عليها بالسؤال: صدِّقني... أنا لا أعرف. سألتُ آمنة مرة أولى وأخيرة عن والد ابنتها، فغضِبت، من دون أن تبدو خجولة من فعلتها، من كونها أماً من دون أن تكون زوجة أحد... ما يمكنني تأكيده هو أن والدها ليس مصرياً، بدليل سحنة ابنتها التي تبدو حنطية اللون، كما يمكن لك أن ترى.

كان هناك شريك آخر، رابع، في هذه الحكاية: كوليت نفسها، ما جعلني أطلبُ من مدير الفندق تمديد إقامتي لأيام إضافية، بعد أن انقضت الأيام العشرة التي حسبتها لإقامتي في مرسيليا. هل أخبرتني كوليت بكل ما تعرف؟ هل عرفت هي بدورها ما أرادت أن تعرفه مني؟ أكانت تخاف من أن أكون محققاً بوليسياً؟ أَسَعت إلى إغرائي

من دون بذل مجهود كبير حماية لأمر تعرفه وتريد إخفاءه؟ هل تبددت مخاوفها ليلة أمس؟

انتقلتُ صباحاً إلى مكتب جورج سائلاً عن: حسين، وآمنة، فأجابني إنه سيسأل عنهما عند عائلته ومعارفه. أما أنطوان فقد كان أكيداً من كون حسين قد هاجر من مرسيليا وعاد إلى القاهرة: أمضى أكثر من ليلة في «المحجر الصحي» طلباً للأمان، فيما كان يسعى نهاراً لتدبير ثمن تذكرة إلى مصر. . . هذا ما نجح فيه بعد أيام، إذ التقى بأحد أفراد عائلة عبد العال الميسورة في «البورصة». . . نجح في تدبير بطاقة السفر بعد أن وعد ربّ العائلة بتفقد ممتلكاته في دمياط والمنصورة، بل بإمكان بيعها. كانت عائلة عبد العال مسلمة، مثل حسين نفسه، وكانت تخشى العودة إلى مصر مخافة الاقتصاص منها بعد أن التحقت ببونابرت «الكافر» في نظر مسلمين عديدين. . . ولما التقيتُ بالخوري طويل للاستفسار عينه، أجابني: أرجوك أن تحفظ السر. . . طلبَ مني والد عائلة عبد العال إعداد ملف تنصيرهم، وهو قيد المعالجة من السلطات الكاثوليكية.

انقطعَ خيط الحكاية من جديد، إذ لن يفيد في شيء سؤال عبد العال، الذي أتذكره وأعرفه، عن حسين، وعن عنوانه، ما دام أنني لن أسافر إلى القاهرة لهذا الغرض: لو كان في نيتي الانتقال، لكنتُ توجهتُ إلى بيت عبد الرحمن الجبرتي، عضو «ديوان» بونابرت، لسؤاله عن آمنة نفسها، التي قد يكون قد عرفها في حاشية كليبير. ولكن من يضمن لي أنه لا يزال على قيد الحياة؟

عرفتُ من أنطوان أسماء بعض من نجحوا في الهرب إبان المجزرة: ابراهيم صالح، والسيدة شامان-عبد الله (التي اتجهت إلى مولان مع أولادها الثلاثة)، وإلياس بيروتي، وحنا سمعان، ومخايل

برباري، وعيسى من دون اسم العائلة، وأبو سعود من دون باقي الاسم. . . أما تريز توتنجي فقد فقدت زوجها، وأخاها التوأم، في «المجزرة»: نجح أخوها في العودة إلى مرسيليا بعد أن التحق بنابوليون في جزيرة ألب، ولكن القدر لم يمهله بعد تجربة الحظ الأولى، كما قال لي جورج.

أما الخوري طويل فأخبرني هذا الصباح أن أحد المسؤولين في دوائر المحافظ زاره في الأمس وفاتحه في إمكان عودة المصريين إلى بلادهم لقاء مبلغ سخي من المال. ولما سأله الخوري عن أصل هذا الاقتراح أفاده الموظف الكبير أن أحد كبار التجار من المصريين لجأ إليه، واقترح عليه هذه الصفقة على أن تشمل الفقراء والمساكين منهم، مقابل إعاشة سنوية لتشجيع العودة.

لما أخبرتُ جورج بخبر العودة، ضحك مشدداً على أن هذه الفكرة لا تعود إلى أستاذه الخوري طويل، فهو يعرف تماماً حقيقة مشاعر الشرقيين ومواقفهم. . . ثم تابعَ: كيف نعود إلى مصر ونحنُ نعيش في مرسيليا كما لو أننا نعيش في أسيوط أو بولاق؟ ألا ترى أننا - ألا ترى أنهم بالأحرى يعيشون فيما بينهم في الغالب؟ أما دخلتَ إلى بيوتهم لترى أن أثاث الداخل شرقي هو الآخر؟ ألا تعرف أن مواد الأكل المصرية يشترونها من السوق القريبة من فندقك، من خبز، وخضار، وفواكه. . .؟ حتى «الملوخية» يتدبرونها هنا. . . لكَ أن تعلم كذلك أن هناك خياطاً مصرياً يصنع لمن يشاء ثوباً وفق النمط العثماني. . . أما فيما يخصني فيكفيني أنني تعلمت العربية هنا في الثانوية.

سألني مدير الفندق، عند الفطور، عن «المذَنَّب» الذي يشغل

بال الناس، بعد أن رددت الجرائد أخباره. فقد راجت في أوساط الشعب، منذ أيام قليلة، أخبار لافتة للغاية، مبنية على توقعات فلكية؛ وتزعم هذه الأخبار أنهم لاحظوا في الشمس بقعاً، واحدة منها كبيرة كبر الأرض نفسها. وهي معاينات على قدر من الصحة، أبانت أن اللخبطة الكبيرة التي أصابت الفصول تماماً، وقسوة البرد الذي أصابنا منذ مطالع الصيف، جعلتهم يعتقدون بأنها ناتجة عن هذه البقع الشمسية، التي انطفأت بالتالي، وأدت إلى تخفيف قوة الدفء الواصلة إلينا من الشمس. الأكيد هو أننا نعيش، منذ 5 يوليو، في جو بارد، من دون أن يسلم أي نهار، منذ هذا الوقت، من الريح والمطر: هكذا افتقدنا الفواكه كلها، وموسم حصاد القمح تأخر، وكلُّ شيء ينبئ بحصول لخبطة كبيرة في المناخ، مثلما أخطرني مدير الفندق.

مع هذا كله، سرى الاعتقاد في أوساط الشعب البسيط بأن نهاية العالم اقتربت، بل بأننا مقبلون على هلاك البشرية قبل الثامن عشر من يوليو، فيما يتحدث البعض عن 21 منه، والبعض الآخر عن 28. لم يتمّ الاتفاق، في نهاية المطاف، على يوم الهلاك، إلا أن كثيراً من الناس أصابهم الهلع، فيما يتم التنبؤ بظهور مذنَّب آخر، أكبر حجماً مما نعرف اليوم، وهو ما بدأ الناس يتعرفون عليه في باريس.

لمدير الفندق تفسير آخر، وهو التالي: أنا مقتنع، من جهتي، بأن ظهور المذنَّب لا يعدو كونه حكاية مسلية، طالما أنه لا يقع نظرنا في أوروبا على أي مذنَّب. غير أن ما هو غريب في هذه الحالة، هو أن دائرة الشرطة أجازت نشر هذه الأخبار في الصحف، تحت نظر الحكومة. وما هو مثير للاهتمام، هو أن حكاية المذنَّب لا

تعدو كونها كناية عن بونابرت نفسه، الذي تمت تسميته تحت مسمى: «الظاهرة». إنه، بحسب مروِّجي الخبر، ظاهرة مذهلة، ما يثير إعجاب جميع المتعلمين، وما يجعلهم يرغبون في ظهوره من جديد، ويقربهم بالتالي من الأفق.

أما البقع الخمس في الشمس، فتلك لغز آخر، ولا تعدو كونها الأشخاص الخمسة في العائلة المالكة، التي تقتبس نورها من الملك لويس الثامن عشر. فظهور «الظاهرة» سيجعل البقع الخمس تختفي وتنطفئ.

أما ما ظهر أيضاً، وبطريقة مثيرة هي الأخرى، فهو «رسالة» أو **«صلاة من أجل الاحتماء من زلزال الأرض»**، التي يتمُّ فيها جعل الله يتكلم، والتي لا تعدو كونها إعلاناً من بونابرت نفسه، يهدد فيه، ويغفر، ويدعو الفرنسيين إلى الخضوع له من جديد. وجرى بيع هذا المنشور طوال ثلاثة أيام، فيما جرت مناقشته في الأيام التالية.

غريب أمر هذا المدير: متكتم للغاية؛ يروي الخبر وعكسه، لكي يستطلع ما يمكن أن يكون عليه موقفك. فاتحَني في غير مسألة، إلا أن خبرتي في التلطي جعلتني أتنقل بخفة بين أخباره وأسئلته. لم أنجح بدوري في استخلاص أخبار مفيدة منه عن «المجزرة». لكنني نجحتُ اليوم حيث لم يكن يتوقعني: من تكون نور هذه، الطفلة المصرية؟ وعندما لم يُجبْ، تابعتُ كما في المبارزة بالسيف: أهي ابنتك؟ انتفضَ منكراً ذلك: إنها ابنة كوليت... ثم عاود الجواب: لكَ أن تسألها... هي طلبت مني إبقاءها إلى جانبها.

الغريب هو أنني وجدته لأول مرة يجيب كما لو أنه في تحقيق قضائي.

ما كنتُ أباعده عن فكري، حصل بعد دقائق معدودة على انقضاء العشاء، وانصرافي إلى غرفتي في الفندق. ما كنتُ أتوتر لحدوثه، حصل. إذ بقيت خلف الباب أتوقع وقوع الضربات الخفيفة عليه، ذلك أن ليلتي في بيت كوليت كادت أن تنتهي حيث كانت قد حسبَت لها، لولا أن نور التحقت بنا في الصالون، وقفزت إلى حضنها... قادتها كوليت إلى فراشها، وعادت بعد أقل من دقيقة لتقول لي: دقائق وستنام، فأعود إلى أحضانكَ. ليلتَها اعتذرتُ عن البقاء في بيتها، وواعدتُها في غرفتي في الليلة التالية.

استقبلتني كوليت، ما أن وجدتني أنتظرها، بقبلة طويلة أوسع من قبلة الأمس التي ودعتني بها. كانت تمدُّ لسانها وتلاعبه في فمي لأول مرة، أي القبلة الفرنسية، مثلما حدثتني عنها ماريا في باريس. إلا أنها سارعت في الوقت عينه إلى غلق الباب بهدوء اللص، وإلى إطفاء شمعتَي الشمعدان. مضى وقت قبل أن أستقبل بين يدي جسد امرأة؛ ولما حاولتُ نزع سترتي، بادرتني: أرجوك... اسمَح لي بنزع ثيابك... ثم تابعَت: أتعرف أنني لم أعرف هذه المتعة في حياتي؟ أسلمتُ نفسي تماماً لأصابعها، فيما كنتُ مولعاً ومتمرساً بلعبة الأصابع منذ ليالي القاهرة. كنت أقفُ مطيعاً أمامها، فيما تُقبِل على نزع ثيابي قطعة قطعة مثل من يُحسن قشر الجوافة قبل مصِّها ومضغها البطيء.

بعد أن أنهَت نزع ثيابي مبقية على سروالي الداخلي وحسب، مضت إلى النافذة وأحكمت إغلاقها، فسدَّت الأشعة القليلة التي كانت تتسلل منها إلى داخل الغرفة. توقعتُ، وأنا أندس تحت الفراش، أنها ستنصرف بدورها إلى نزع ملابسها. ما كان لي أي فكرة عما هو عليه جسدها، إذ تختفي تقاطيعه تماماً تحت ثيابها

المتهدلة. كانت تميل إلى القصر، وعلى شيء من السمنة، فيما تعلو فوق شفتيها الواسعتين والشهيتين عينان صغيرتان ومدورتان. دعتني إلى الهدوء بمجرد اندساسها إلى جانبي، متحدثة بهمس في أذني ثم لاحسة لها ببطء شديد، كما لو أنها تعرض لي ما يحلو لها أن تتذوقه بنفسها معي. راحت تلامسني بيديها، وأقوم بدوري بملامستها. لم تكن سمينة أبداً مثلما ظننتُ؛ وثدياها لم يكونا أبداً بالترهل الذي لي أن أتوقعه من امرأة تكبرني وتتعدى الأربعين من عمرها من دون شك.

كنتُ مثل عجينة في مخبزها، حتى إنني شعرتُ للحظة بأنني «لعبتها» الجنسية. بادرتُها بجملة إلا أنها أخرستني قبل أن أكملها، ووضعَت يدها، ثم فمها، فوق فمي. كانت تتذوقني بيديها القويتين، وتلحسني بلسانها لحساً بطيئاً، مديداً، كما لو أنها تجففني فيما كانت ترويني.

لم تكن كوليت تشبه أياً من النساء اللواتي عاشرتهن منذ نوال المصرية. ولو طلبتُ تعدادهن لما تعدين أربع نساء بين القاهرة وباريس ومدريد. إلا أن كوليت تُذكِّرني بنوال من دون غيرهن: كانت جارتي قبل أن أعرف أنها جارتي، وأن نافذة غرفة نومي تُطل على سطح مسكنها. كنتُ قد انتبهتُ إلى وجودها على السطح من دون أن أعرف من تكون، فيما لم تنتبه إلي. كنا، هي وأنا، في وضع معكوس: أنظر إليها من وراء نافذتي كما لو أنني صبية ترى إلى شبان عابرين من وراء مَشرَبيتها . . . كنت أنتظرها عند الغروب، إذ كانت تصعد إلى السطح، وتُطلق الحمام من بيوته الصغيرة، قبل أن تعيده من جديد بحركاتها المنسقة إلى حيث كان. كنت أحلم أن أكون أحد طيورها، وأن تُبقي عليه في عشه، ولكن معها. لم يكن

في مقدوري السؤال عنها، بحكم التنبيهات الشديدة التي تبلغتُها مع غيري من كليبير نفسه: أياكَ، أيها الإيطالي الوسيم، والتحرش بنساء القاهرة! لم يكن الجنرال، بطبيعة الحال، عارفاً بحالي، وهي أنني لم أعاشر امرأة في حياتي، سوى بعض الخيالات التي كانت تقضُّ سريري، وتبلل سراويلي في عتمة غرفتي في الدير بروما.

إلا أن أحد الطيور رقَّ لحالي، بأن حطَّ على نافذتي من دون أن يلبي دعوة الصبية. . . إذ ذاك مددتُ يدي إلى الشباك، وأمسكتُ بالطير، وأدخلته إلى غرفتي، ثم خرجتُ برأسي من النافذة وحادثتها بالعربية: مساء الخير. . . اختفت يومها نوال، لكنها ما لبثت أن ظهرت بعد يومين؛ وبدل أن تُمسك عن الكلام راحت تبادلني النظرات الخجولة، فيما كنتُ أتنبَّه إلى تبديلها ثيابها يوماً بعد يوم.

نوال كانت مملوكة أحد كبار التجار. هذا ما أخبرَتني به، حين وجدتُها تقف أمام باب غرفتي تسألني عن طيرها. أقفلتُ باب غرفتي على عجل، مثل كوليت، وسارعتُ إلى إمساكها من وجهها لنزع الحجاب عنها: تركتني أتلمس جسدها، فيما تتملص مني، وتعدني: آتي بعد يوم غد. . . ربُّ الدار سيذهب مع عائلته لاحتفال زواج من دوني. . . أعدكَ. ثم نزعت خاتماً فضياً من يدها اليمنى وأودعته في يدي.

وعدتُ جورج بلقاء خالته معه. هي التي شددَت على الموعد، بعد أن بلغَها خبر وجودي في مرسيليا: مسحة هيبة أكيدة تحيط بوجهها المدور، الذي ترتسم فيه ملامح دقيقة، مثل عمل رسام الوجوه في التصاوير الإيطالية. كانت تنتظرني بجملة واسعة من الأسئلة القلقة بطبيعة الحال: ما تعرف عن نوايا المَلك؟ ما ستكون

عليه سياساته تجاهنا خصوصاً؟ أصحيح ما يقال إنه سيعيد المصريين وغيرهم إلى بلادهم؟ ثم لا تلبث أن تستدرك: هذا لا يخص عائلتي الصغيرة، فزوجي - رحمه الله - جنرال في الجيش الفرنسي. . . إنه انتقل من لقب «المعلم يعقوب» إلى لقب «الجنرال يعقوب». . . هو الوحيد في رحلتنا من تشرَّف بهذه الرتبة، ومن بونابرت نفسه.

لم يكن في مقدوري الإجابة بدقة على أسئلتها، لأنني غير ملم بنوايا الحكم الجديد، عدا أنني لا أقوى على قول أي شيء أمامها، لأنها ملمة ومتابعة، على ما انتبهتُ في أكثر من قول من أقوالها. ولما تابعَت طرح أسئلة مزيدة، قاطعتُها بلطف: باتت العودة إلى الوراء غير ممكنة. . . لن يقوى أي ملك على تبديل سياسة نابوليون، لأن الفرنسيين أنفسهم لن يقبلوا بعد شهور قليلة ببقاء قوات عسكرية أجنبية فوق أراضيهم. أتعلمين، سيدتي، أنه جرى التعرض لأحد الضباط الإنكليز قبل أيام ثلاثة في وضح النهار، في «شارع الكانوبيير»؟ مهما فعلوا أو سعوا، روح نابوليون ثابتة في أرواحهم من حيث لا يدرون.

ارتاحت السيدة نعمة لجملتي الأخيرة، لكنها تابعَت بطرح سؤال هو مقصود حديثها على ما يبدو: أتظن أن زيارة لي إلى العاصمة - مع جورج، بطبيعة الحال - بعد استقرار الحكومة، تفيد في التخفيف عن قلق أهلنا؟ كان جورج يتابع حديثنا بقدر واسع من التركيز، مدركاً من دون شك أن خالته تعرفني حقّ المعرفة، وخصوصاً أنني كنت إلى جانبها مع كثيرين عند وفاة زوجها بعد أيام وحسب على إبحارنا.

كانت تقيم ماري في دارة جميلة خارج مرسيليا، وكان صالون استقبالها مزيناً بلوحات فنية ذات مقاسات كبيرة: لوحتان وجهيتان

للجنرال الراحل، وثلاث أخريات: له فوق حصانه، أو عند تسلُّمه رتبة الجنرال من بونابرت نفسه، وثالثة هو وزوجته يوم زفافهما. كانت تعيش كما لو أنها مكلفة بوصية غير مكتوبة، فيما كنتُ أعلم أن الجنرال يعقوب أمضى اللحظات القليلة، قبل موته، في شرح وتثبيت ما يريده من مراسم عند موته. اشترطَ يومها الإبقاء على جثته، وانتظار دفنها في مرسيليا نفسها، مخافة رميها في البحر مثلما جرت العادة؛ وهو ما ستجري مراسمه في كنيسة سان-مرتان في مرسيليا بعد وقت.

بعد أن أخبرتني عن مراسم دفنه «العظيمة»، بحسب تعبيرها، راحت تؤكد على مسامعي أن مشروع زوجها لا يزال أمل الشرق: لم يكن تابعاً للفرنسيين أبداً. . . كان معجباً ببونابرت، بشخصيته اللامعة، وبالانضباط الشديد الذي أدار به جيشه. . . كان يريد الوصول إلى فرنسا لكي يتاح له الوقت الكافي لملاقاة بونابرت ومناقشته في خطة أخرى لتحرير مصر من العثمانيين والمماليك والإنكليز. . .

كنتُ أستمع إلى كلامها من دون أن أفهم شيئاً عن حقيقته. لعلها صادقة، إذ كان بونابرت يضع الخطط بلمحة بصر. ولما وجدَتني صامتاً، بل ربما متردداً في قبول كلامها، تابعت القول: أتذكر كيف كانت هذه الفئات المختلفة تخضع لسلطة زوجي؟ كانوا من أديان ومذاهب وأقوام ومواطن مختلفة، بمن فيهم أعداد من المسلمين؟ الجنرال يعقوب هو الذي قادهم، هو الذي جمعَهم، وهو الذي أقنعهم بفكرة مشروعه الكبير. . . ألا تظن أنهم كانوا يشكلون نواة شعب جديد تحت بيارق الثورة التي راحت تجتاح العالم؟

الأكيد أن ماريا لم ترث فقط ثروة زوجها الكبيرة، التي حملها

معه، وإنما باتت تحوك حلماً مدهشاً، ليس منتزعاً من أحلامها وحسب، وإنما مما تقرأ من دون شك. ما أن توقفَت خالة جورج عن الكلام بدأ هو بإثارة البلبلة: أعلينا أن ننتظر أم أن نعمل؟ لماذا البقاء في مرسيليا، بدل الذهاب إلى باريس حيث مركز القرار؟ ألا تظن معي، يا صديقي، أن عائلات عبد العال وحسبون وحموي وعائدي وفرعون وغيرها باتت أكثر تأثيراً منا منذ أن انتقلت إلى باريس في العام 1811، بعد أن سُمح لبعض عائلات الأعيان بذلك؟ أتعرفين، يا خالتي، أن عائلة يوسف حبايبي وعائلة أخيه داوود تقيمان اليوم في أفخم الشوارع الباريسية، في «جادة شوسي دانتين»؟ أسنبقى معلقين بمشروعات الماضي، فيما تغير الزمان تماماً؟ ألا تظنين أن ثروتك، بل مكانتك، تؤهلك لأن تكوني في عداد سيدات البلاط الملكي؟

جملة جورج الأخيرة جعلت خالته تنتفض وتقف من مقعدها الوثير، وترفق خروجها من الصالون بكلمة مقتضبة: شكراً على الزيارة.

ما أن اتخذتُ كرسياً لتناول العشاء في الفندق، حتى وصلت كوليت مع صحن الحساء، وانحنت لوضعه فيما هي تنبهني: سأكون على الموعد. وعندما وصلْتُ إلى غرفتي، وجدتُ زجاجة نبيذ تنتظرني مع باقة ورد هذه المرة.

كانت كوليت رشيقة أكثر من زوجتي في ليلة عرسنا، لما التقينا بعد العشاء في غرفة الفندق الفاخرة في باريس. كان زواجاً «ناجحاً» بعد أقل من سنة على وصولي إلى باريس، ومن ابنة مديري لاحقاً في وزارة الخارجية. كانت صوفيا ابنته الوحيدة، ووارثة ثروته، من دون

أن تنجح في الزواج بعد. كانت تكبرني بثلاث سنوات. . . كان زواجنا أقرب إلى تسوية، إلى صفقة، بكلمات مغلفة: أتزوج منها، وأحصل على الوظيفة ومعها الجنسية بطبيعة الحال. قبلتُ العرض بحجة أنها مثقفة مثلي، وأنني شبعتُ حياة التنقل بين حبيبات كثيرات، فيما كنت لم أعرف غير نوال في واقع الحال، وما عرفتُ معها سوى الملامسة.

هذا ما طالبتني به منذ موعدنا الثاني: لا يمكن أن نمارس الجنس. . . لا يمكن أن أخلع ثيابي، ولا ثيابك. . . لا يمكنكَ تقبيلي. . . رضيتُ بطبيعة الحال، ظاناً أنني لن ألبث أن أغير قواعد المبارزة. . . لن تتبدل أبداً، إلا أنني وجدت من اللذة معها ما لم أعرفه مع أي امرأة بعدها.

كانت نوال فنانة بيديها، فضلاً عن نسائم عينيها السوداوين. كانت تكتب فوق جسدي مثل خطاط باهر، من دون أن تغمس ريشتي في محبرتها. كانت تمسني مساً خفيفاً برقة طيورها إذ تحطُّ على الشباك. وكانت تعلو بأصابعي مع أصابعها كما لو أننا نحلق من جديد بخفة الطيور وانتظام جوقها المتناغم في سماء اللذة المتنامية في جسدي من دون صراخ.

تلمسني من دون أن أحسن إغماض عينيَّ، مثلما كان يحلو لي، ما دام أنها كانت تلحسني بشفتيها المندلقتين من دون أن تقترب من وجهي. كان يبدو على صوتها فحيح الشهوة من دون أن يصدر عنها أي صوت. كانت تجلس راكعة خلفي، وتنزل بأطراف أصابعها على جسمي، من دون أن يلامس جسدها جسدي. فيما كنت أخالني أفارق الدنيا إلى دنيا غيرها عندما كنتُ أشخص إلى وجهها فوقي بالمقلوب.

دامت جلساتي مع نوال، بعد أن تدبرَت سلماً في الليل لمّا كانت لا تقوى على ملاقاتي في النهار عند غياب سيدها. كانت تحادثني أحياناً عن غرام بعض المصريات بجنود فرنسيين. . . بل حادثتني بما كنتُ لا أعرفه حينها وهو أن بونابرت مولع بإفراط بالنساء، وأن له أكثر من عشيقة بينهن.

دامت جلساتي معها أكثر من لياليَّ مع صوفيا، إذ امتنعَت زوجتي عن ممارسة الجنس في ليلة زواجنا الأولى، وفي ليالٍ تالية، قبل أن أُقدم على اغتصابها من حيث لم أقصد. في تلك الليالي التي كنت أضعها في حساب نوال، التي لم أنل أبداً من جسدها، تألمتُ كثيراً، وبصمت. لم يكن يكفيني تذكر يدي نوال، ولا تعويضهما بيديَّ عندما تدعو حاجة الشهوة الملحة. لم يكن يكفيني بكاء صوفيا بين يدي إذ فاتحتني: أنا مغرمة منذ سنوات بعيدة بأحد أقربائي، لكن والدي رفض مجرد فكرة الزواج به. . . أنا مخلصة له، وقد قطعتُ له من شعري خصلة لتأكيد الرابط بيننا. . . قَبِلتُ بكَ بعد تسوية مع والدي، وهي أن أتزوج من حبيبي في زواج ثانٍ. . . لم أفهم أبداً قصة صوفيا، ولا دواعيها. ما كنتُ أكيداً منه، هو أنني، لما فاتحتُ مديري بالطلاق منها، بعد حصولي على الجنسية، لم يعترض، بل أخبرني: شكراً لما فعلتَ من أجلي ومن أجلها. . . لو تبقى معها لسنتين على الأقل، لأنني لا أريد إنجاباً لها من ذلك الأخرق، حبيبها. كانت تكبرني بكثير من السنوات، لا مثلما قيل لي في البداية. بقيتُ معها أربع سنوات، من دون أن أكون أكيداً من كونها لم تكن تلتقي بحبيبها في بيتنا عند قيامي بـ«مهمة سرية». مكثتُ إلى جانبها، في غرفة أخرى في البيت، من دون أن أعلم من المخدوع في هذه الحكاية. ولم أبرح هذا البيت بعد أن عاد إلي، بعد طلاقها

مني، وعودتها إلى بيت أهلها، قبل اختفائها مع حبيبها في مدينة رينس...

كوليت لم تكن تدرك من دون شك في تلك الليلة أنني - لما علوتُها - كنت أعلو، بل أقفز فوق سنوات من الحرمان؛ لم تكن تدرك أن حصاني يعدو منذ سنوات وسنوات لبلوغ أهرامات نوال.

«دفاتر» بين
نور المنصوري وجوزف ميري
(1825-1815)

الفصل الخامس

نور تسرق حياتها

المَلك في الكتاب يجلس على العرش، أنا على الكرسي الخشبي.

الفارس يحمل سيفاً معلقاً بزنار، أنا أحمل كرسي الصغير.

لكن الكرسي بات يضيق، أو أن مؤخرتي كبرت. أصبحتُ أخجل من مجرد جلوسي عليه، بعد أن شعرت أنني أقع أوطى من غيري، ممن هم في عمري.

هذا عرفتُه في الصف. هذا يعيده المدرِّس على مسمعي صفاً بعد صف.

هذا يُذَكِّرني بدروسي الأولى، بصفي الأول، لما رفضت الجلوس إلا على هذا الكرسي. سمحوا بإدخاله معي، وإلا بقيتُ في الخارج، وفي البكاء. سمحوا بجلوسي عليه من دون غيري من الطلاب. هذا ما سمحَ لي به المدرس فلوريون. رضيت بذلك. لكن الكرسي بات الكرسي الكريه، بعد أن تأكدتُ مِن أن مَن يجلسون معي في الصف يشدُّون أيديهم على أنوفهم ما أن أنظر إلى الخلف، إليهم: كما لو أنهم يَشتَمُّون بمجرد جلوسي على الكرسي رائحة كريهة.

في أول زيارة لكوليت، طلبتُ منها نقل الكرسي معها.

هكذا أصبحتُ يتيمة للمرة الثانية.

لا أعرف معنى كلمة: يتيمة. هذا ما قالوه عني حين كنتُ أمسك بيد كوليت، وبالكرسي باليد الأخرى. قالوا أكثر من ذلك: غير معروفة الأب. هذا ما قالته كوليت لامرأة كانت تضع على رأسها منديلاً أبيض. كانت تجلس فوق كرسي كبير، وأمامها مكتب قريب من المكتب الذي يجلس عليه ريمون في الفندق عندما يكتب في دفتره الكبير. أنا ما كنت أعرف الكتابة. كنت أعرف اسم الكتابة، وأقول ما كانت تقوله لي كوليت: أنا لا أعرف الكتابة... يوماً ما ستتعلمين الكتابة. عندما تركَتني قالت لي: هنا، تتعلمين الكتابة.

وضعوا الكرسي إلى جانب السرير. كنت وحدي من دون كوليت. كنت وحدي مع العتمة. كنت وحدي مع حبات المطر على شباك صغير. حبات المطر نفسها التي سمعتُها قبل يومين في غرفة كوليت.

لا أعرف كيف أنني أرى كوليت أكثر من آمنة. وعدَتني بالمجيء بعد قليل من دون أن تأتي. بقيتُ أنتظرها من دون أن تأتي. بكيتُ، تمسكتُ بالكرسي، من دون أن تأتي. كان هناك جياد ورجال ونساء وحقائب إلى جانبي من دون أن تأتي. ريمون أمسكني بيدي فبكيتُ وأنا أنظر إليه. أتى مع كوليت إلى حيث أقف من دون أن أفهم ما يقولان.

وضعتُ الكرسي على الأرض، جلستُ عليه، من دون أن تأتي.

آمنة لم ترجع، لكن الكرسي لم يتركني.

كوليت اشترت لي فستانين، وأخذتني إلى سوق الخضار معها، من دون آمنة.

لعبتُ مع كوليت لكنها خسرت: كنت أختبئ تحت الطاولة

الكبيرة... صارت تناديني، وأنا كنت أضحك وحدي فلا تراني، ولا أجيب عليها.

أمسكت كوليت بيدي، وانتقلنا إلى غرفٍ وغرف. تسوِّي الغرفة، لكنها لا تنام فيها. تسوِّي غرفة أخرى، وأجد فيها ثياباً غير ثيابها. وجدتُ حصاناً صغيراً من خشب في غرفة، فأخذتُه، لكن كوليت منعتني: هذا ليس لكِ. بكيتُ، انتقلتُ إلى غرفة من دون كوليت، ثم إلى أخرى، من دون أن أجد كوليت. بكيتُ كما بكيت يوم التقيتُ بريمون لأول مرة.

كوليت لا تسمح لي بالبقاء في المطبخ معها. تعمل كثيراً هنا، وتعمل قليلاً في بيتها. هنا أنطُّ على السلالم، وأعدُّ الدرجات، وأقفز بقدم واحدة فوقها، لكنني في بيتها ألعب أكثر. لا تتركني كوليت، لأنني أبكي من دونها، وأقول لها: آمنة لم تعد... لا أريد أن لا تعودي أنتِ.

تركتني كوليت مع السيدة ذات المنديل الأبيض. وعدتني بأنها ستأتي في اليوم التالي. كوليت أتَت، لا مثل آمنة. أتَت مع فستان وحصان خشبي صغير؛ قالت لي: هذا دفتر وقلم رصاص... يمكن أن ترسمي فوقه. يمكن أن تكتبي فيه. قلتُ لها: لكنني لا أعرف الكتابة؛ قالت لي وهي تُقبِّلني: هنا، ستتعلمين الكتابة والقراءة أيضاً. كانت هذه الكلمة صعبة. لا أعرفها. لم أسمع بها.

في الملعب لا أتكلم معهم بالكلمات التي أعرفها ولا يعرفونها، الكلمات التي كنت أتكلم بها مع آمنة...

آمنة لا تعود، على الرغم من أنها قالت لي: انتظريني، هنا،

سأغيب قليلاً وأعود بعد قليل. قبّلتني في انتظار أن تعود. كانت تركض، وهي تنظر صوبي. كانت تحمل كيسَين، ولا تضع منديلاً على وجهها. اختفت، صرتُ أناديها فلا تظهر. أكثر من مرة، في البيت، كنت أختفي، وكانت تجدني، وعندما تجدني تقول لي: بلى، أنتِ نور. هي كانت تختفي، وكنت أجدها متخفية بين الثياب، أو خلف باب الحمام، وأقول لها: بلى، أنتِ آمنة. كانت لي كلمات أستعملها معها وحدها، ومع حسين، لا مع جارتنا مارلين. كوليت لا تعرف هذه الكلمات؛ وحين تزورنا أو نزورها، وحين كنت أطلب من كوليت حلوى، كانت آمنة تستعمل هذه الكلمات لنا وحدنا، من دون أن أحصل على الحلوى.

في السرير، في العتمة، أركب الحصان الخشبي وأنتقل: إلى بيتنا، فلا أجد آمنة؛ وإلى الفندق، فأجد كوليت نائمة من دوني إلى جانبها. أطير بعد ذلك مثل الطفل الصغير العاري الذي وجدتُه معلقاً في اللوحة الكبيرة... سألتُ بعد الفطور السيدة ذات المنديل الأبيض: لماذا يبقى هذا الطفل عارياً من دون ثياب؟ أتركَته أمه؟ قالت كلاماً غريباً، فقلتُ لها: كوليت تشتري له ثياباً.

أكتبُ هذا بعد سنوات على دخولي إلى الميتم، فأستعيد صوراً متطايرة ومتناثرة، لا البكاء الذي صاحبني في الأسابيع الأولى، كما أخبرتني كوليت بعد سنوات، بعد أن سُمح لها كل يوم اثنين بالقدوم وبأخذي معها في نزهة. غيري كان يتابع دروسه، أو صف الرياضة، أو النوم للصغار منهم، فيما كنتُ أتنقل معها إلى مقهى قرب البحر. كانت آمنة قد اختفَت تماماً من حياتنا، من دون أن نعلم شيئاً عنها، بعد إيقافها لي أمام عتبة الفندق الخارجية. ريمون أخبرني أنه سأل

عنها من دون أن يفوز بأي خبر جديد: آمنة أتت عبر هذا البحر. . . أملكِ مصرية، أما أنتِ ففرنسية. كنت أراقب الموج أكثر مما أسمع: لعلها تخرج من بين الأمواج وتناديني. . . لعلّي أركب السفينة وألحق بها. . . قد تكون غادرت مع حسين.

لم يكن لريمون ولد، ولا لكوليت. كانا يريدان بقائي معهما، لولا أن الشرطة أمسكت بي بعد وشاية من دون شِك. كوليت اتهمت الأستاذ أنطونيو بالوشاية من دون أن أفهم ما كانت تقول. فهمتُ هذا بعد سنوات، عندما اعترفَت لي بأنها سرقت دفاتره. أما ريمون فاتَّهم السيد جيراردون بالوشاية، وهو ضابط في الشرطة.

سمحوا لي فقط بحمل الكرسي الخشبي الصغير، لما اقتادوني إلى القاضي، ثم إلى الميتم. طلبوا من كوليت المجيء للتعريف بي: لم تكن لي بطاقة هوية، ولا شهادة عماد. اكتفوا في ورقة التسجيل بذكر اسمي، واسم أمي من دون عائلتها. ثم عرفوا بعد سنوات أن آمنة كانت مسجلة في «سجل المنفيين المصريين»، وأنها من عائلة المنصوري، وأنها كانت تقبض إعاشة شهرية بمعدل ثلاث فرنكات.

ريمون تألَمَ لما جرى لي، لكن كوليت قالت إن هذا الحل أفضل.

هذا ما روته كوليت أمامي بعد أن طلبتُ أكثر من مرة منها إخباري بما حدث لي في السنوات السابقة. كانت تتردد؛ كانت تبدل الأحاديث ثم تعود إليها بعد إلحاحي. كانت تروي ثم تتوقف عن الكلام، أو تروي مع تعديلات في القصة. عندما كنت أنبِّهها إلى فعلتها، كانت تتذرع بكونها كبرَت في السن، فيما كانت تروي على هواها، أو تخفي عني ما لا أعرفه عن حياتي.

كنتُ أتلصص على حياتي؛ كنت أودُّ - لو أن حياتي محفوظة في مكان أو أكثر - أن أتسلل إليها حيث بقيت، وأن أسرقها.

كانت حياتي تنتقل من يدٍ إلى أخرى: من آمنة، إلى كوليت وريمون، وصولاً إلى الشرطة والقاضي والراهبة والمدرِّس فلوريون والخوري طويل. أما من أصبحتُ أنام معهم في ممر طويل من الغرف والأسِرَّة، فكنتُ أتجنبُهم. كانوا يقولون: إننا مثل بعضنا البعض، من دون أب وأم، فيما كنت أقول لنفسي: أنا أعرف أمي، وهي ستعود. غيري لقطاء، أما أنا فلي أمٌّ، واسمها مسجل في دفاتر الدولة. غيري انتقل من الشارع حيث عثروا عليه إلى «مشفى الإحسان»، حيث نقيم، أما أنا - كما أخبرتني كوليت - فقد أحضرَتني الشرطة إلى أمام «لجنة مستشفيات مرسيليا» في مستشفى «أوتيل ديو» للتدقيق في حالتي وضبطِ أوراقي الثبوتية. أيصحُّ تصنيفي في عداد «يتامى الدولة»، الذين ترعاهم البلدية وتتكفل بعيشهم ودرسهم، وعملهم أحياناً، حتى بلوغي أم يصحُّ فيَّ تصنيف آخر؟ لم تنجح «اللجنة» في حسم وضعي، ورفعَت تقريرها إلى القاضي لكي «يصنفني». في انتظار ذلك، أحالوني، مثل اليتامى واللقطاء، على «مشفى الإحسان» في انتظار قرار القاضي. توصلَ بعد شهور إلى الكشف عن هويتي، عن بعضها، من دون أن يبلغني شيء من ذلك... هذا ما كانت تعرفه كوليت بنفسها، إذ عرفَت والدتي. وهو ما كان ريمون يعرفه بدوره، إذ عرف والدتي التي عملت في مطبخ الفندق أكثر من مرة لمساعدة كوليت. وعرف ريمون أمي ما دام أنه اقترحها على السيدة جولي بييزوني لكي تساعدها في تنظيف البيت ليوم واحد في الأسبوع. كوليت وريمون يعرفانني قبل أن أحلَّ معهما في الفندق، طالما أن أمي اضطرت في أكثر من مرة إلى الإتيان بي

معها إلى الفندقِ مخافة إبقائي في المساء وحدي في البيت. هما يعرفاني إلا أنني نلتُ، بفضل قرار القاضي، هوية، هوية جديدة، خصوصاً بعد أن قررَت كوليت مع الخوري طويل موعد عمادتي.

بات اسمي: جانيت - آمنة برونوتييه، وفق الاسم العائلي لكوليت.

كنتُ قد بلغت الثانية عشرة من عمري لما اقترحَ دون غبريال على مدير «المشفى» التحاقي بدروسه في تعليم العربية. هذا ما قاله المدير لكوليت أمامي ففرحتُ، من دون أن يكون المدير قد طلب موافقتي. ظننتُ يومها أن المقصود هو تركُ «المشفى»، فيما كان الأمر يقتصر على انتقالي لمرتين في الأسبوع بعد الظهر، من «المشفى» إلى «الثانوية»، في عهدة كوليت بالطبع. وما خفَّفَ من دهشتي هو أن من حدَّثوني عنه، دون غبريال، كنتُ أعرفه، وهو الخوري جبرايل طويل الذي أجرى مراسم عمادتي. كوليت شجعتني على الدروس بطبيعة الحال: هذا ما كانت آمنة قد طالبتكِ به... هي ما كانت تعرف القراءة ولا الكتابة، مثلي... هكذا ستتعلمين لغتين في الوقت عينه... هذا مكسب.

لم نكن كثيرين في الصف: خمسة في المرة الأولى، ثم ثلاثة في أكثر من مرة خلال فصل الشتاء. كنتُ الفتاة الوحيدة بينهم، وأتكلم بالفرنسية أفضلَ منهم. استعدتُ في دروس الخوري طويل الكلمات التي كنتُ أستعملُها مع آمنة، ونسيتُها ثم استعدتُها من مكان ما في ذاكرتي. هذا ما أراح المعلم العجوز، إذ وجدني أنطق الكلمات مثله، فيما كان اثنان من رفاق الصف ينطقانها بشكل مختلف. لم أفهم معنى ذلك: نقرأ في الكتاب نفسه، أنا وطلاب

الصف والخوري، أما في المحادثة فأتكلم مثل الخوري وحدي. حين سألتُه عن ذلك، وهو يُحدِّث كوليت عن تقدمي السريع في العربية، أجابني: أنتِ تتكلمين العربية مثلي، كما في أحياء القاهرة، أما الطالبان الآخران فتعود عائلة أحدهما إلى حلب، والأخرى إلى دير القمر.

لم أخبر أحداً من رفاق «المشفى» بسهولة تعلمي العربية. هذا ما يضاف إلى أسراري. هذا ما يميزني عنهم، فضلاً عن حصاني الخشبي. هذا الحصان أعدتُه إلى كوليت، فوضعته إلى جانب الكرسي الخشبي الصغير، في حقيبة باتت تجتمع فيها أغراض تخصني. إلا أن الحصان الخشبي لم يفارقني، مع ذلك، في عتمة السرير، ولا في حوش «المشفى»، حيث كنا نخرج للتنزه أو اللعب: أركبُه ساعة أشاء، ويقودني حيث أشاء، من دون أن توقفني شرطة، أو أن تطلب مني إذنَ مرور. كنت أنتقل إلى داخل قصر قديم وجميل مع نساء جميلات ومزينات، فيما كنت أحمل حول عنقي عقداً فيه جوهرة كبيرة أكبر من حبة جوز... هذا القصر دخلَت إليه أمي قبلي، ثم دخلتُ معها إليه... أكثر من مرة. كنتُ أطيل التوقف فيه، في غرفه الواسعة التي كانت تقتصر الواحدة منها على مجموعة من السجاد، وعلى وسائد مطرزة موضوعة على الأرض، جنباً إلى جنب، على امتداد الجدران، وعلى سرير واحد في وسط الغرفة مغطّى بستائر من حرير. كانت أمي تقودني في جنبات القصر، بين الغرف وصالات الاستقبال، والحمامات والمطابخ، من دون أن أرى أحداً فيها. حتى السرير، كنت أرى إليه من الخارج... لكنني، ذات ليلة في «المشفى»، دعوتُ إليه أحد الفرسان، بعد أن طلبتُ منه إخفاء حصانه من حرس القصر. وزاد من فرحتي الليلية

أنني كنت أتحسس الثديين، تحت قميص النوم، مثل ثمرتَين تتبرعمان فوق غصن جسدي. . . فرِحَت كوليت بما أخبرتُها به، فكان أن لكزتني في صدري: سيكون لك جسد جميل مثل أمك، وسيكون لك مثلها فارس. ثم راحت تشرح لي كيف سأكون امرأة، وكيف لي أن أحافظ على جمالي في انتظار الفارس الساحر.

لم يكن هذا الفارس مقيماً معي في «المشفى»، بل كنتُ أتوقع خروجه من أي شارع في نزهتي الأسبوعية مع كوليت، فيخطفني ويرفعني إلى حصانه من دون أن أبدي أي مقاومة. أما من كان في حالتي من الأطفال اليتامى الذكور، فكان يقيم في جهة أخرى من «المشفى»، فلا نلتقي إلا في الصف، أو أحياناً في الحوش. ولم يكن الحديث معهم بالمسلي، إذ يخبرونني عن حماقاتهم مع معلم النجارة، أو مع عمال التنظيفات. لم يكن لهم ما يحادثونني به غير ما يعيشونه في «المشفى»، لدرجة أنهم فرحوا لما أخبرتُهم بإحدى حكايات أمي عن الجنرال بونابرت.

تعلمتُ كلمة جديدة من خارج الثانوية: الطاعون. لو كانت الدروس مستمرة لكنتُ تحدثتُ عنه في الحوش، أو في الممرات، من فرط ما سمعتُ به في الفندق. قالت لي كوليت إنه ضيف ثقيل، يأتي في الظلمة، ويخطف الصغار خصوصاً؛ كما قالت عنه إنه يأتي عبر البحر، مع السفن. ليلةً وراء ليلة كانت كوليت تدعوني إلى الركوع معها أمام السرير، ناظرين إلى السيدة العذراء في الصورة الورقية على الجدار، طالبين منها أن تقف في ميناء مرسيليا، وأن تحوِّل اتجاه الرياح عنها.

السيد ريمون طلب مني عدم الخروج من الفندق إلا برفقة أحد.

إذن، الطاعون يتجول في الشوارع، ويخطف الصغار! لكنني لم أعد صغيرة؛ أتوصل إلى قراءة الجريدة بسهولة؛ كما أن كوليت وعدتني بشراء ثياب داخلية جديدة لي تناسب مقاساتي. أخذتني معها إلى إحدى الغرف، وسحبت من جارور غرفة الملابس لباساً طريفاً وصغيراً، ووضعَته على فستاني محيطاً بصدري: إنه الحمّالة. . . حمّالة الصدر، وهي للنساء، لا للصغيرات. كانت قد أخرجت هذه الحمّالة من غرفة أحد النزلاء، ثم أعادَتها من جديد إلى جارورها، وطالبَتني بالخروج من الغرفة من دون الحديث مع السيد ريمون أو جوسلين عما فعلنا، عن «سرِّنا»، كما قالت لي.

لم أنجح في العودة إلى هذه الغرفة، لكنني نجحتُ في الدخول إلى غيرها بعد يومين. وجدتُ أكثر من حمّالة، نزعتُ فستاني عني، وقميصي الداخلية، لكنني لم أنجح في وضع الحمّالة فوق الثديين. كانت كبيرة، لدرجة أن عصفوراً كبيراً يمكن أن يغط بينها وبين صدري. هذا ما فشلتُ فيه في خزانة ملابس كوليت؛ لم أجد أي حمّالة فيها. أهذا يعني أنها تصلح للسيدات الغنيات فقط؟

أخبروني حكاية أخرى عن الطاعون، وهي أن الجرذان تحمله معها، وتندس في الممرات الضيقة. هذا جعلني أرصد أي حركة بسيطة في أي غرفة في الفندق، مخافة أن يهجم جرذ عليَّ ويعضني عضة قاتلة. كنت أسمع، بخاصة في الليل، أصواتاً فأنزل من السرير، وأقف وراء الباب حاملة قطعة معدنية طويلة للقضاء عليه.

كنا في أوائل الصيف، وقد توقفتْ الدروس. أُمضي وقتي في الفندق بين القراءة والمراقبة. وأنتهز الفرص - إذا أُتيحت لي - للدخول إلى غرفة وتجريب الحمّالات، والتأكد من كبر الثديين. انتبهتُ إلى أن كوليت تضع مفاتيح الغرف في جيب مريولها الطويل،

وما أن تنتهي من تنظيف غرفة، تعيد المفتاح إلى موضعه. قلتُ لها: تبددين وقتاً في الصعود والنزول بين السلالم ومن طابق إلى آخر... أنا أضع المفاتيح في مكانها المناسب. أنا أعرف قراءة الأرقام. وهكذا كان. كان لي مخطط من وراء ذلك. ما أن أمسكتُ بأول مفتاح، حتى دخلتُ إلى الغرفة، ورحتُ أتفرج على الثياب النسائية في الخزانة، فأبسطُها فوق السرير لكي أرى إلى تفاصيلها وخياطتها وزخرفاتها... اكتفيتُ أحياناً بزيارات سريعة لكل غرفة، وحفظت مرةً رقم غرفة أعجبتني الثياب فيها. لكنني لم أنجح في زيارتها في هذا اليوم طالما أن معركة مع الجرذان شغلتني في المطبخ، من دون أن أنجح في قتل أي واحد منها.

كنتُ تحت الطاولة الكبيرة، ليلة العشاء الدوري للسيد ريمون مع ضيوفه. اختفيتُ تحتها، بعد أن كانت كوليت قد جمعت طاولات المطعم الصغيرة جنباً إلى جنب، وجعلت منها طاولة كبيرة مستطيلة. ماذا أفعل هنا؟ لماذا أسرتُ نفسي فلا أقوى على الخروج قبل انتهاء العشاء؟ ماذا لو هاجمني جرذ وأنا ساكتة، من دون حركة؟ هل أصرخ فيفضحون أمري؟

جلستُ القرفصاء مثل من يستعد للركض، ثم تمددتُ على ظهري بعد أن طال العشاء. فجأة وجدتني حرة، لا أبالي بهم. كانت تصلني أحاديثهم، من دون أن أفهم الكثير منها، طالما أنها تشبه الأحاديث في سوق الخضار، عندما أرافقُ كوليت إليه. كانت أحذيتهم تحيط بي، حول طاولتي السفلية. كان في ودّي الاقتراب من فستان إحدى السيدات الفضفاض، وأن أرى كيف هو متسع إلى هذا الحدّ... لكنني ما كنتُ أجرؤ على القيام بأي حركة، فيما كنتُ

أتحقق من حماقتي، من غبائي: نصبتُ مقلباً، لكنني وقعتُ ضحيته. لمن نصبتُه أساساً؟ لا أدري. كان الوقت طويلاً، لم يكن في حوزتي جريدة ولا كتاب للقراءة. كنت أتابع الأحذية، فأراقب أشكالها وزيناتها الخارجية، لما انتبهتُ إلى أن يداً رجالية سقطت من مكانها، وراحت تتحسس الفستان المجاور لها، وتشدُّ على الفخذ، ثم راحت تنزل إلى أسفل؛ ولما بلغَت طرف الفستان راحت تعلو به قليلاً فيما تمسد ببطء ساق السيدة الذي بدا أبيض عارياً، ثم تنزل اليد الرجالية وتعاود التمسيد من جديد، قبل أن تقوم السيدة بسحب قدمها والوقوف، على ما بدا من حركتها.

لم أعاود الكرّة مرة أخرى، إذ بقيتُ وقتاً طويلاً مختبئة؛ وعندما خرجتُ من تحت الطاولات المجتمعة انتبهَت كوليت إلى وجودي، فأخبرتُها أنني خفتُ من جرذ الطاعون بعد أن وجدتُه يعدو ورائي في المطبخ. لكنها ضحكت، ثم قالت لي: أنتِ شيطانة، يا نور، من دون أن أفهم ما تعني بكلمة: شيطانة. لكن زياراتي للغرف بعد تنظيفها باتت تنتظم، فرحتُ أُجرِّب ما يحلو لي من الفساتين والحمّالات، فأحملُها وأضعها أمام جسمي أمام المرآة؛ أو أجلس أمام المرآة على الكرسي وألاعبُ تعابير وجهي وأحركُها، فأبتسمُ ابتسامة عريضة أو أزمُّ شفتي غضباً، أو أهزُّ عيني بتعابير مختلفة مما تفعله النساء عادة. كما صرتُ أتمشى ناظرة إلى مشيي، وما إذا كان يوافق النساء الأنيقات والغنيات عندما ينزلن على الدرج خصوصاً.

كنتُ قد نسيتُ الجرذان تماماً، لولا أن كوليت أخبرتني أننا نحتفل يوم الأحد بعيد القلب الأقدس، وأنه يناسب ذكرى مرور مئة سنة على وباء الطاعون في مرسيليا. عرفنا بالعيد قبل حلوله. فجأة لم تعد هناك أي غرفة خالية في الفندق. جوسلين نفسها باتت تعين

كوليت في تنظيف الغرف، من دون أن أقوى على إجراء تماريني النسائية أمام المرآة. قرأتُ في الجريدة، بعد أيام، أن ما يزيد على ثمانين ألفاً حلّوا في المدينة. هذا ما كنتُ أراه بمجرد خروجي إلى الشارع، في هيئات وملابس مفاجئة بالنسبة إلي.

السيد ريمون كان مغتاظاً لأن السوق لا يلبّي الطلبات كلها، ما جعل كوليت تحتاط للأمر، وتطلب مني حتى مساعدتها في تخزين المؤن. كنتُ أستمع إلى حركات الجرذان، أثناء العمل، كما لو أنها مبتهجة بمجيء المزيد والمزيد. لعلها كانت تجد فرصاً إضافية للاختفاء قبل الهجوم.

لم تتعرض لنا الجرذان، لا قبل العيد، ولا بعده. لكنني قرأت في الجريدة بعد أسابيع أنها هاجمت مدناً خارج مرسيليا. هذا يعني أنها رحلت عنا... لهذا لم أفهم كيف أن البلدية في المدينة نشرت إعلاناً وعلّقته على الجدران، تشرح فيه التدابير الواجب اتخاذها مع الصيادين من كاتالونيا أو من إسبانيا، الذين قد يحملون معهم المرض اللعين.

يوم الأربعاء، في 7 نوفمبر من سنة 1821، جرى إطلاق فرقاطة مصنوعة في مرسيليا لصالح الحاكم في تونس. تجمَّعنا كثيرين للتمتع بهذا المشهد...

كانت المدينة مختلفة، ولا سيما الشارع العريض والطويل المؤدي إلى الميناء. خرجتُ على قدمي، لا فوق حصاني الخشبي، وسرتُ بين الناس، لا بين أطراف الأشباح والكلمات. كان الهواء شريكنا في المشي، يهدأ ثم يعصف من جديد، مثل موسيقى، لا مثل أغنية. كانوا كثيرين معنا، على ما أظن. الأشقر إلى جانب الأسمر،

وصاحب العمامة مع لابس البرنيطة. البدينة التي تجر ولدها، فيما يتساقط مخاطه من أنفه، والمراهقة التي تتأكد من عدم تضرر تسريحتها، فتمشي كما لو أنها تُمسك برأسها مخافة الوقوع. . .

كان إنزال الفرقاطة إلى الماء ناجحاً، وانغماسها في البحر مهيباً. أما بعض المتهورين، ممن اعتلوا خشبات لرؤية المشهد، فقد وقعوا عنها بمجرد غطس الفرقاطة، إذ إن نزولها أحدثَ تموجات قوية. غير أن هذا الحادث يبقى بسيطاً بالمقارنة مع ما جرى في الجهة الأخرى من المرفأ.

كان رصيف الميناء غاصاً بالقوارب المليئة بالناس، الذين وَجدوا أن الفرقاطة تتجه صوبهم، بمجرد نزولها إلى الماء، وظنوا أنها لن تلبث أن تتوقف بعد أن جرى إنزال مرساتها، من دون أن يعلموا واقعاً أن حبلها انقطع، وأنها كانت تتوجه وفق اندفاعتها. ريمون تنبَّه إلى الأمر، فراح يطلق الصراخ في اتجاه ملاحي القوارب لإبعادها، من دون أن يبالي هؤلاء بالأمر. هذا ما جعل الفرقاطة تتعرض لهم، وتقلبُ بعض قواربهم أو تكسر واحداً منها. صراخ من الهول والرعب انتشر في المكان، وظننتُ، مثل غيري، أن ثلاثين على الأقل من المحمولين فوق القوارب قد أصيبوا بالضرر، أو قد غرقوا. إحدى السفن، «الفيليبينية»، التي كانت قريبة مما يجري، وتحمل في متنها أعداداً من المتفرجين، أُنقِذت من مصيبة محققة: الفرقاطة اصطدمت بها جانبياً من دون أن تكسرها. . . بعد ذلك، اصطدمت الفرقاطة برصيف الميناء، ثم شقت طريقها فيه، وقلبت أحجاراً محيطة به؛ ولما توقفَت، كانت في جانب منها في البحر، وفي جانب آخر في اليابسة. هكذا كان مقدَّم السفينة على مسافة قريبة من البيوت المحيطة برصيف الميناء؛ ولو كانت الفرقاطة أكثر طولاً

لكانت أطاحت واجهة أحد البيوت، أو أحدثت فيها أضراراً جسيمة.

هذا ما شرحه لي ريمون بالتفصيل، إثر عودتنا إلى الفندق، من دون أن أعرف تماماً أين درس هذه الأمور الصعبة. هذا ما قرأتُ عنه أيضاً في الجريدة، وكتبتُه في دفتري.

في مدينتي، في هذه الأيام، كلب مثير للغاية، استثارَ إعجاب جميع من وقع عليه في «شارع بوكير»: إنه مينيتو. يعرف الحروف والأرقام، كما يُحسن تمييز الألوان. يقومون بكتابة كلمة على لوح، فلا يكون منه سوى المجيء بحروفها وتشكيل الكلمة من جديد. إلا أن ما هو مثير للغاية، هو أنه يُحسن الإتيان بالأرقام المناسبة، من بين كومة كبيرة منها، لتلبية عملية حسابية يطلبونها منه... سيدة أبرزَت له جزدانها، وطلبَت منه معرفة لونه، فما كان منه سوى الذهاب إلى سلة المهملات، فأتى منها بما هو مناسب كلونٍ. لا أعرف كم دفعَت كوليت للتمتع بأفعال الكلب العجيبة، لكن يبدو عليه أنه حزين وحالم: كم قضى وقتاً لتعلم هذا كله؟

ماذا كان لي أن أكون لو لم أتعلم القراءة والكتابة؟

نقلَت كوليت أغراض أمي وأغراضي الطفولية من بيتنا إلى بيتها. هذا ما أخبرَتني به بعد وقت، بعد أن أوجدَت لي سريراً خاصاً بي في غرفتها في الفندق: كبرتِ، يا جانيت... لن يسع سريري لك وللفارس. هكذا أصبح لي أكثر من غرفة، من دون أن تكون لي أي واحدة منها. أنا في «المحفوظات»، مثل الكتب الموضوعة في المكتبة.

لم يعد يكفيني أبداً كتاب **مقامات الحريري**، ولا **كليلة ودمنة**؛ صرتُ أتطلع إلى الكتب في مكتب الخوري طويل مثل جبل شاهق لن أقوى على بلوغه. اشتريتُ في سوق سان-لازار التجاري، في أيام الصيف، دفتراً جديداً، وخصوصاً أنني لا أتبع دروساً فيها، لا في الميتم ولا في الثانوية. هذا ما سمح لي به مدير «المشفى»، فأنتقل إلى تحت رعاية كوليت، التي تعهدت بذلك أمام القاضي.

أقيمت منصات للعرض والبيع في السوق، في شهر أغسطس، ووقعتُ في «شارع الكانوبيير» على منصة عرض كبيرة تحت عنوان: «الصالون الملكي»، تضمُّ عدداً لا يستهان به من التماثيل الشمعية، التي عُرضت في السابق بوصفها تماثيل أقرباء بونابرت، ويتمُّ عرضها اليوم على المتفرجين - بفضل الثياب من دون شك - بوصفها أفراد العائلة المالكة: هذا ما أخبرني به السيد ريمون، الذي رافقني في جولتي هذه.

تفرجتُ، في مكان أبعد، على حكاية «جنفياف دو بربان»، التي تجذب إليها المتفرجين بكثرة. أما أجمل ما يمكن الوقوع عليه في «الكانوبيير» فهو منصة كبيرة، على حِدة، يتمكن المشاهدون فيها من رؤية مشاهد حيوية، مثيرة وموفقة: يتمُّ عرض محفورات طباعية عن مرافئ مختلفة، ويُحرِّكونها ببطء أو بسرعة أمام العيون. كما يتمُّ أيضاً، في خارج المنصة، بناء مسرح مزيَّن، مؤلف من لوحات مصورة، ما يرسم ساحة عمومية، أو سوقاً. . . إلخ. يجري في هذا المسرح عرض مسرحية مجاناً، وبطريقة لطيفة للغاية.

تفرجتُ كذلك، في زيارة ثانية مع كوليت هذه المرة، على عرض: «اللوحات المتحركة»، أو: «العرض البحري». إنه جميل للغاية: نرى فيه لندن، وليون، ومرسيليا، وباريس، وجزيرة سانت-

هيلانة. نرى المراكب تعبُر، ونرى أنها تطلق ضربات مدفعية، ونرى صوراً أخرى في وضعيات متحركة... نرى فوق أحد الجسور عدداً كبيراً من العربات، فيما تحلُّ فيها شخوص عديدة لا تتوانى عن الحركة. نرى، في غابة، مرور عدد من الحيوانات من أنواع مختلفة، فيما تبدو حركاتها طبيعية للغاية: أسد، نعامة، فيل، نعجة، حية... إلخ. بعد ذلك أمكننا التفرج على عروض خيال الظلِّ، بحسب الطريقة الصينية، ما جعل العالم يَظهر في هيئات مصغَّرة...

هذا ما كتبتُه في دفتري. عاهدتُ نفسي على كتابة جولاتي الليلية فوق حصاني الخشبي. ما دعاني إلى هذا القرار هو أنني رأيت رجلاً يكتب ببطنه: إذا كان هو قادراً على ذلك، فكيف لا أقدر أنا، وقد أصبحتُ «بالغة»؟

الرجل متقدم في السن، مقطوع اليدين، لكنه يتوصل إلى الكتابة بواسطة فمه وبطنه. يكتب بفمه طبعاً، وهو ما فعلتُه بدوري غير مرة، لما كنتُ أضع قلمي بين أسناني، وأشدُّ عليه وأُمَرِّرُه فوق ورق دفتري. أما أن يكتب ببطنه، فهذا ما أثار استغرابي: لهذا الرجل زنار يضعه حول جسمه، ويضع فيه أداة شبيهة بما تضعه النساء حول خصورهن للحياكة، والتي يغرزن فيها إبرة الحياكة، مع فارق أساس هو أن الإبرة، هنا، مقوَّسة. في قعر هذه الأداة يتمُّ وضع ريشة الكتابة، التي يكتب بها جاعلاً حركة جسمه هي التي تدير حركة الكتابة، ما لا نكاد نراه. احتاج هذا الأمر إلى تدريب شديد. هذا الرجل مدهش من دون شك، أتى إلى مرسيليا في السابق، في سبتمبر من سنة 1817، وها هو يعود ثانية، ليعرض موهبته للجميع، مثل غيره، فوق بلاط الشوارع.

الخوري غبريال نبَّهني، قبل أسبوعين، إلى لزوم حضور القداس في الكنيسة: سيقوم بالاحتفال مطراننا الجديد، مطرانكِ، نحن الكاثوليك الشرقيين. وهو ما استقبلتني به كوليت بمجرد لقائي بها: تصوري... حتى ريمون يريد الانتقال لحضور القداس!

انتقلنا، نحن الثلاثة، من الفندق إلى الكنيسة، في انتظار بناء كنيسة خاصة بهذه المجموعة الكاثوليكية القادمة من الشرق. هذا ما يعمل له المطران ميشال مظلوم، الذي أحيا القداس، وكان إلى جانبه الخوري طويل. المطران كان أصغر منه سناً، ويبدو مهيباً وهو يرتدي ألبسة مزركشة وفاخرة. كان الحشد كبيراً، وشعرتُ بأهميتي فجأة، إذ إنني كنتُ أقف لأول مرة وسط جماعة: أهي جماعتي؟ أأنا وُلدت كاثوليكية؟ هل كانت أمي كاثوليكية؟ لم أطلب من كوليت الجواب عن هذه الأسئلة، لتخميني أن الجواب عليها لن يكون صحيحاً بالضرورة. وقفتُ في الكنيسة من دون أن أُحسن القيام بأي حركة، ما جعل كوليت تنتبه، هي الأخرى، وتدعونا إلى الانتقال إلى صف خلفي في الكنيسة. في الميتم حضرتُ قداديس عديدة، من دون أن أفقه شيئاً مما يجري أمامي، فأشارك فيه من دون أن أشارك فيه. الراهبة قالت لي حين سألتها: اطلبي من دون غبريال تدبير الأمر. وعندما طلبتُ ذلك منه أجابني: المهم أنك مسيحية... عندما سيكون لنا كنيسة مستقلة، سنتدبر الأمر.

كان المطران في الأربعين من عمره تقريباً، قامتُه عالية، ولحيتُه سوداء مرتبة، ما يزيد من جمال طلته. لما مرَّ بجانبنا، وهو يرفع صورة السيدة العذراء، تأملتُ وجهه الجميل، وانتبهتُ إلى مجوهرات جميلة في لباسه، فيما كان ينحني الخوري طويل عليه، ويقول له كلاماً لم أسمعه، لكنني انتبهتُ إلى ابتسامة المطران إثر

ذلك، وهو يركز نظره عليَّ: كان ذلك يوم الأحد في 2 يوليو من سنة 1820.

في طريق العودة من القداس، التقينا بالسيدة جولي مع السيد جيراردون، من دون أن يلبيا دعوة السيد ريمون للغداء معنا.

أهداني الخوري طويل كتاباً ثميناً: **الكتاب المقدَّس**. الورق مختلف، والصور كثيرة فيه لجبال وسهول ومراعٍ وأنهار وملائكة تطير أينما كان: تأملتُ الصور، ورحتُ أندسّ فيها أحياناً وأختفي...

قرأتُ في هذه الأيام، في «المكتبة العمومية»، كتاباً مثيراً، عنوانه: **مسار بونابرت**. يروي رحيله الأول من باريس صوب جزيرة ألب، ثم غزوه فرنسا من جديد عبر خليج جوان قرب باريس، وإقامته في العاصمة لمدة مئة يوم، وهزيمته في معركة واترلو، وتخليه عن الحكم للمرة الثانيةِ، وإجباره على الرحيل والمنفى إلى جزيرة سانت-هيلانة: اصطحبَ معه كثيرين، مثل الجنرال برتران وزوجته مع أولاد ثلاثة، والسيد مونتولون مع زوجته وابنهما. كما عرفتُ أنه اصطحب معه أيضاً عدداً من مرافقيه، وما يزيد على عشرة من الخدم، وثلاث نساء. واحدة من هؤلاء، السيدة صوفي، نجحت في كسب ودّ نابوليون، وجرى قبولها على مائدته، فضلاً عن زوجتَي برتران ومونتولون وزوجَيهما. وبلغت اللطافة بنابوليون حداً غير مسبوق، إذ قام بإعطاء دروس في الإيطالية لسيدة شابة وجميلة كانت تعمل في خدمته.

البيت الذي يسكنه نابوليون في الجزيرة البعيدة اسمه: «لانغوود»، أي: الخشب الطويل. ونظَّمَ فيه لهذه الغاية احتفالاً،

تكفلَت ببعضه السيدة برتران، وتولَّت عزف بعض المقطوعات على البيانو، فيما عزفَت السيدة مونتولون على القيثارة. الآنسة صوفي غنَّت بدورها لحناً إيطالياً، وما لبثت السيدات أن راقصن الحاكم الإنكليزي وضباط الحامية. كما عرفتُ أيضاً أن بتصرف نابوليون ثلاثة أطقم من عدة الأكل، واحد مصنوع من الذهب، والاثنان الآخران من فضة؛ وأن حراسة نابوليون محكمة، فلا يقوى أبداً على الفرار من الجزيرة.

أمضيتُ بقية الصيف في قراءة هذا الكتاب، وكانت كوليت تتابع معي هذه السيرة المثيرة، فيما كنتُ أفكر في أن هذا الحاكم هاجرَ مرتين: مرة من مصر، ومرة من فرنسا، وفي أنه يلاطِف النساء أكثر من الجنود، على ما يبدو. هل لاطفَ والدتي، لما كان في مصر؟ نهرَتني كوليت لما طرحتُ عليها هذا السؤال، وردَّت عليَّ بسؤال آخر: من قال هذا؟! ألا يكون دون غبريال؟ كانت كوليت تُنكر فيما كانت تؤكد واقعاً. كيف يحدث أن السؤال يأتي بجواب؟ فأنا تعلمتُ العكس في الصف: أتكون آمنة عشيقة نابوليون؟ أأكون ابنة الجنرال؟

ضحكتُ لمجرد ورود الفكرة على رأسي، ما دام أنني وُلدتُ في مرسيليا، وبعد أكثر من سنة على خروج قوات بونابرت من مصر. تساءلتُ في صورة مزيدة بعد أن قرأت في جريدة أن بونابرت اصطحب معه إلى الجزيرة الأخيرة اثني عشر خادماً، منهم ثلاث نساء، فيما كانت تتولَّى الصغيرة منهن، والأجمل، بترتيب سريره: أكانت تستلقي معه فوق السرير، قبل أن تعيد ترتيبه من جديد؟

لم تبالِ كوليت بالخبر حين قرأتُه عليها، لكنها انفجرت من الضحك، لما رافقتُه بتعليقي عنه وعن الجميلة بين خدمه: قد لا يكون الأمر غريباً أبداً. . . كثير من الخادمات يقمن بذلك

اضطراراً... إنهن مملوكات أسيادهن... هذا علني في مصر والسلطنة العثمانية، وهذا مقبول في فرنسا...

كان في ودّي سؤالها عما إذا كان هذا الكلام يشملها، لكنني تغاضيت عنه بطبيعة الحال، وأنا لم أشهد ما قد يؤكده في حياتها. لكنني تذكرت (وأنا أكتب هذا في المقهى، من دونها هذه المرة) أنني وقعتُ في غرفتها، في الفندق، في الربيع المنقضي، على علبة معدنية للسجائر تعود للسيد ريمون...

كنتُ قد انتقلت، في دروس العربية، إلى الصف الثالث والأخير. وأصبحتُ أليفة مع المكتبة فيها، التي تضمُّ، بحسب دون غبريال، ما يزيد على 40 ألف كتاب، و1270 مخطوطاً. كان صفي، والمكتبة، والثانوية، تشترك منذ العام 1805، بل تتقاسم الغُرف في المبنى عينه، وهو دير «البرناردين»؛ وهو ما شرحه لي الأستاذ لويس، العامل في توثيق مخطوطات المكتبة.

هذا ما مكَّنني من قراءة كتاب للسيد دو روفي عن: «**تاريخ مرسيليا**»، ووقعتُ فيه في الفصل الثالث من الكتاب الثالث عشر، في الصفحة 312 على السرِّ التالي: يتمُّ العثور، كل يوم، أثناء حفر الأراضي، على مقابر من الآجر أو من الرخام، يعود بعضها إلى ما قبل ميلاد المسيح، فيما يعود البعض الآخر إلى القرون الأولى، وإلى العهد الذي حكمَ فيه العرب منطقة «البروفانس». شارل مَرْتِل، وأخوه شيلدبران، نجحا في طرد العرب في العام 739. هذا يعني بالتالي أن إقامة العرب في مرسيليا ترقى إلى أحد عشر قرناً، وأن القبور المعنية ضمت جثامينهم، ما يشير إذاً إلى تاريخها. ولا يمكن بالتالي التفكير في أن هذه المقابر تعود إلى عهد الرومان، ذلك أنها

تحفل بزينات وكتابات لم يُعرفوا بها. كما أن المجوهرات، التي عُثر عليها فيها، تشير إلى كونها كانت تعلّق بالزنانير التي تشكل جزءاً من اللباس الشرقي.

لم تُصِب الأستاذ لويس ميري الدهشة حين قلتُ له: أتكون هذه البقايا البشرية، القوية والكبيرة، لأولئك الفرسان العرب الأشداء؟ فأجابني من دون تردد: ما يعزز هذه الفكرة هو ورود مقطع آخر في كتاب دو روفي، يذكر فيه وجود نقوش باللغة العربية في مرسيليا، من دون أن يذكر مواضعها، فوق الرخام، ما يُظهر أن خيانة الكونت مورونت هي التي أبقت أعداداً كبيرة من الفرسان العرب يموتون فيها، طالما أنه تكفل بتسليم آفينيون ومرسيليا للعرب. أما دون غبريال فقد أوجد للأمر تفسيراً آخر: ألا تنتبهين إلى أن لفظ مرسيليا مشتق - ربما - من لفظ عربي، هو: المرسى، أي حيث ترسو السفن؟

لم أقرأ كتاب دو روفي تماماً، فقد أضجرني للغاية، ولعلّ الأستاذ لويس ميري انتبه إلى ذلك. لا يهم! فقد وقعتُ في الكتاب على أسماءٍ وتواريخ كثيرة، ما جعلني أجول - بدل حصاني الخشبي - مع ملوك وفرسان وسيوف من دون قبلة واحدة. أيعقل أن يكون هؤلاء يعيشون للحروب وحدها؟ لهذا باتت لي قراءة الجرائد أسهل وأمتع. وهو ما أقع عليه في الفندق، إذ قرر السيد ريمون توفير أكثر من جريدة للنزلاء؛ وهو ما كنتُ أسارع إلى تجميعه من بوابة الفندق.

باتت المدينة تتسع، وصرت أمضي فيها أبعد. مع كوليت، أو وحدي. حتى الهواء ما عاد يضايقني فيها، إذ يبدو كما لو أنه يخرج لملاقاتي. لا أمشي في مرسيليا وحدي أبداً. لا أرى ما فيها فقط،

بل ما تخفيه أيضاً. أرى كذلك (خصوصاً في المقهى) ما يقع أبعد منها في الأزرق الشاسع اللامع تحت أشعتها. سافرتُ فيها البارحة، إذ وقعتُ على مقربة من مقهاي على عدة دكاكين صغيرة تعرض للبيع ما لا أحسن معرفته، من غلايين للتدخين وبرانيط وثياب مزركشة وعصافير ملونة موضوعة في أقفاص ومحفورات مطبوعة في كتب عن قصور وفرسان ملثمين ونساء ملتحفات من دون أعمار أو نظرات. . .

كان منظري غريباً في المقهى. لا توجد صبية أو مراهقة بمثل عمري فيه. حتى النساء قليلات فيه. روادُه تجار ومسافرون، على ما يتضح من ثيابهم ومن حواراتهم التي يبلغني بعضها. إلا أن مجموعة من الشبان، باتت تتردد على المقهى، وتُحدث ضجيجاً بمجرد دخولها، وحصول مناقشات حادة بينها. أحد هؤلاء انتبهَ إلى كوني أتابع بنظراتي الخجولة بعض ما يصلني منهم؛ بادلَني ابتسامة بمجرد وقوع نظري عليه، ما جعلني أخفض نظراتي تماماً، وأبعدُها تماماً عن طاولتهم.

هذا ما حدث لي في مرتين تاليتين. لاحظتُ في مرة أخرى أن المجموعة عينها اتخذت مجلساً لها قرب الطاولة التي أستحسنُها على مقربة من الزجاج المطلّ على رصيف الميناء. الفتى الوسيم كان بينهم، كما لو أنه يتوقع مجيئي، فكان أن انتقلتُ إلى طاولة أخرى.

كنتُ منكبة على دفتري الصغير، عندما سمعتُ صوتاً ناعساً يتناهى إلى سمعي: أتُعدِّين فروضك المدرسية في المقهى؟ كان هو؛ الفتى الوسيم الذي ترك لحيته الصهباء تنبتُ من دون حلاقة. لم أجب، بل عاودتُ الانكباب على دفتري؛ فكان أن قال: المعذرة. . . أنا اسمي: جوزف ميري.

لم أخبر كوليت بما حصل لي في المقهى: أهو يتحرَّش بي؟ لا أظن، طالما أنه حادثني مثل طالبة مدرسة، لا مثل حبيبة محتملة. إلى هذا كانت تقع جلسته مقابلي تماماً، بل أنا التي اخترتُ الجلوس بعيداً عن طاولتهم، ولكن في شكل وجاهي. ماذا كان يطلب مني، وتبدو عليه ملامح رقيقة للغاية، بل هو أشبه بفتاة جميلة لو نزعَ لحيته؟

ما أثار انتباهي في الفندق، في إحدى الجرائد القديمة، التي تعود إلى ربيع العام 1819، قبل سنوات عدة، هو الكلام عن سفينة تُدار بالبخار، وهو ما أوردُه في دفتري من دون أن أفهمه: السفينة تتحرك بواسطة مضخة نارية موضوعة في جوفها، فيما يتطاير دخانها عبر أنبوبِ مدخنة يمكن مشاهدته في وسط السفينة، والذي يرسم وراءه خيطاً متتابعاً من الدخان الأسود. لن أقوم بوصف طريقة شغل هذه الآلة في داخلها، والتي قد تكون مفيدة في دفع السفينة في أي ظروف كانت، وحين تدعو الحاجة إلى ذلك، على الرغم من خطورة ذلك. هذه السفينة وصلت من نابولي: قامت برحلتَين في وقت قصير، وبنزهات عدة في خليج مرسيليا.

كما أُدون نقلاً عن الجريدة: وصلت السفينة إلى مرسيليا في 2 نوفمبر من سنة 1818، وقام بصنعها فرنسي من مونبلييه لصالح ملك الصقليتين، وهي مصنوعة من الخشب، وجرت تسميتها: فردينان الأول. في السابع من الشهر عينه، جرى تنظيم نزهة فوق السفينة لبعض التجار والموظفين في عرض خليج مرسيليا؛ وفي الحادي عشر منه سافر فوق متنها ما يزيد على خمسمئة شخص، ودارت بهم السفينة حول قصر ديف.

كانت مرسيليا تعج بأخبار ومشاهد وعروض طريفة للغاية. هذا

يعود ربما إلى كوني أخرج وأقرأ. لهذا أستعيد جرائد قديمة وأكتب ما يروق لي فيها: ما أثار دهشتي هو منظر أحدهم، الذي يقوم بألعاب توازن لافتة للغاية، فيما وضعَ في أحد الأقفاص مجموعة من عصافير الكناري، ويقوم كل عصفور منها بعمل مثير للدهشة: واحد يقوم بدور الميت، المسجَّى، ولا يلبث أن يقوم بإشارة من معلمه؛ ويقوم آخر بحركة صعبة من التوازن واقفاً على رأسه، ولا يفارق وضعه هذا من دون إشارة من معلمه؛ وثالث يضع نفسه في سيخ الشواء، ويدور به؛ وآخر يجلس على طرف الطبل فيما يقرع عليه المعلم بأقسى قوته ويدور به بين الناس المتجمعين من دون أن يهتز الجالس أبداً. . . وهناك غيرها من الحركات المدهشة، التي لا ينبهر بها إلا من يشاهدها حقاً. ما هو مدعاة للعجب في هذا العرض، هو أننا نجحنا في تدريب هذه الطيور على القيام بهذه الحركات الحاذقة. بأي أدوات، بأي لغات، جرى التصرف معها؟ إن للرجل، الذي يدير العرض، زوجة تقوم بالرقص فوق بَيض من دون أن تكسر أي واحدة منها، وهي مغمضة العينين، وله أحصنة حاذقة أيضاً. . . إلا أن هذا كله لا يوازي أبداً منظر الكناري المثير.

أخبار «الثورة»، أخبار الثورة الممتدة وصلت إلى الجرائد في مارس من سنة 1821: اشتعلَت في إسبانيا، ومَلِكُها في وضع غير مريح أبداً. كما اشتعلَت في نابولي، وحصلَت الغلبة لعائلة كاربوناري، وتخلَّى فردينان عن عرشه طالباً العون من قوى الحلفاء التي تتجه صوب هذه المدينة، فيما تصيخ أوروبا كلها السمع لمعرفة عواقب الأمور. . . كما ظهرت الثورة في البييمون، وتخلَّى مَلِكُها عن العرش، وغادر دولته. . . هذا ما يحصل في البرتغال أيضاً، إلا

أنها بعيدة عن مرسيليا. أخيراً، كل شيء يشتعل حولنا. أسنبقى بمنجاة من هذا الحريق الهائل؟

الأخبار وصلتني في الفندق، ومن مجموعة شبان في الثانوية: كانوا في توتر ونشوة أكيدين. سمعتُهم يتحدثون عن أناس من فرنسا يغادرونها وينقلون الأسلحة إلى البلدان المجاورة: أستصل «الثورة» إلى مرسيليا؟ سمعتُ في الفندق كذلك أخباراً مقلقة عن ليون وغرونوبل، بعد أن جرى فيهما تفريق تجمعات وتظاهرات... أما في باريس، فيدور العراك في المجالس التمثيلية من دون أن يبلغ الشارع بعد.

يوم أمس، في 27 مارس من سنة 1821، رفعَت إحدى السفن، في مرفأ سيوتا، بمرسيليا، العلم الثلاثي الألوان، علم «الثورة»، مقابل «الساحة الجديدة»، في الساعة الواحدة بعد الظهر. جرى التنبُّه إلى حدوث هذا الأمر، فتمَّ إخطار السلطات بما جرى، من دون أن يتدارك صاحب السفينة الأمر. مُدَّعي عام الملك، متبوعاً بجنود، وصل إلى المكان، فصعد إلى السفينة، ووجد على متنها أحد الحراس، وأحد صغار البحارة الذي اقتيد إلى السجن، من دون أن يخشى أي عقوبة طالما أنه قاصر. هذا في الوقت الذي قيل فيه إن قبطان السفينة كان غائباً، وغير عارف بما جرى، وإن الحارس ضعيف النظر، لم يقوَ على تمييز هذا العلم الثلاثي الألوان، ما جعل الجميع أبرياء في نهاية المطاف: هذا ما نقلته الجريدة... أما السفينة التي أقدمَت على هذا الفعل فهي: «العودة السعيدة».

نعيش في هذه الأيام طقساً غريباً للغاية، حتى إننا لم نبصر الشمس في مرسيليا منذ يوم الثلاثاء في 27 مارس. في 31 مساء،

لم يتوقف هطول الأمطار، وهو لم ينقطع منذ الثامن والعشرين، فيما شهدنا عاصفة قوية في الأول من أبريل.

تأكدَ خبر دخول القوات النمساوية إلى نابولي، وكلُّ شيء يؤكد كذلك أن المؤامرات فشلت كلها، ومن أينما أتت. القلاقل في بييمون توقفت، وعادت الأميرة إلى قصرها هذا الصباح، يوم الجمعة في 6 أبريل. مع ذلك، تناقلت الأخبار ما يفيد عن وقوع معركة دامية بين المتمردين المحليين وبين القوات النمساوية. يبدو أن الهدوء لم يستتب تماماً، مثلما يزعمون، كما يبدو أن الجرائد لا تنقل كل ما يجري من أحداث، سواء في بييمون أو في إسبانيا أو في نابولي، حسبما سمعتُ من مناقشات نزلاء كثيرين في الفندق.

يوم الثلاثاء، في 1 مايو من سنة 1821، كان يوم عمادة دوق بوردو. كانت الساحة أمام الفندق محاطة بهياكل خشبية تؤلف بوابات لِما يحيط بها. في هذه الساحة جرى تنظيم الحفل الراقص على وقع ضربات الطبول... أما المسلة في «ساحة كاستيلان» فكانت منارة، هي الأخرى، بطولها كله، فيما يعلوها قِدر مشتعل. هذا ما كنا نراه من أي مكان. فيما أُنير «شارع روما»، و«شارع آكس»، بفضل المشاعل المضاءة في كل بيت؛ وكانت قناة الماء في «باب آكس» مُنارة كلها أيضاً. أما ما يثير الإعجاب فكان مرأى الميدان، أمام الفندق، إذ كان مناراً على طوله، بما يزيد على 32 شعلة من كل جهة، وكل شعلة منها تتعين في شكل هرم...

استمرَ الحفل الراقص في الساحة حتى منتصف الليل، فيما الإنارة تامة. كان الهواء هادئاً، وساكناً، وقد تمَّ استبدال الطبول بجوق الموسيقى، المؤلف من أعضاء جمعية دينية وفدت لأداء

أناشيد موافقة للمناسبة. وهي أناشيد متناغمة، لم تنقطع قبل ساعة متقدمة من الليل. هكذا انتهى هذا العيد، الذي يشكو واقعاً من وفرة الأفعال المسلية التي غصَّ بها هذا النهار، فيما كان في الإمكان توزيعها على أكثر من يوم.

الهيكل الخشبي في الساحة، وأهرامات الإنارة في الميدان، بقيت قائمة طوال يومين آخرين إثر العيد. وظنَّ البعض أننا سنشهد، في الثالث من مايو، يوماً مزيداً من المباهج الضوئية، إذ يصادف اليوم يومَ دخول الملك إلى باريس. إلا أن هذا لم يحدث أبداً. مع ذلك انطلقت نساء سوق الفواكه، في الثالثة بعد الظهر، في نزهة، حاملات نصب الملك، مع أعداد من الأعلام، فيما كانت تتقدمهن الموسيقى العسكرية وعدد من الطبول، على وقع الأغنية: يعيش هنري الرابع.

عدن إلى الساحة من جديد؛ وبدأ المطر بالهطول. على الرغم من ذلك لم يتقاعسن عن الرقص... إلا أن المطر استمر في التساقط، ما اضطرهن إلى التوقف، فنقلن الحفل الراقص إلى أحد المقاهي في الساحة، وانتقل المسؤول عن الشرطة بدوره إلى المقهى لضمان أمن المحتفلين. ثم انقطع المطر، مع حلول المساء، فانطلق الحفل الراقص من جديد، ولم يتورع أحد الضباط وعدد من الجنود عن مراقصة عدد من السيدات.

كذلك انتظم حفل راقص في محل بيع السمك، خلف الفندق. هنا أيضاً جرى رفع نصب الملك فوق منصة بيضاء عالية... كان هذا الحفل بمنأى عن زخات المطر تماماً، ولم يتوقف أبداً بخلاف الحفل الراقص الآخر.

كانت أيام عطلة. كنتُ أنتقل من حفل إلى آخر، مراقبة ما

يحدث بفرح لم أعهده في السابق، ما دام أنني لم أشارك في أي احتفالات جماعية. إلا أنني وقعتُ في الساحة على الفتى الوسيم مع رفاقه وأعداد آخرين، ممن راحوا يُقدمون على إطلاق شعارات وكلمات بذيئة. كنتُ مصعوقة أمام ما يحدث، خصوصاً مع هذا الشاب الذي كنت أجده في المقهى عنيف الحركات والكلمات، فيما تبدو على هيئته ملامح أنثوية. اقتربَ مني بخطى ثابتة، بل متهورة، وانتزعني من الحشد، وأخذني إلى جهة معتمة في الشارع، وحاول تقبيلي، فرفضتُ وهربت منه: ألتقيكِ في المقهى يوم غد.

كيف له أن يُقدِم على تقبيل فتاة بعمري؟! كان لي أن أستسلم لقبلته، المديدة من دون شك: لكنتُ ذقتُ قبلتَه، وتمددت في عروقي مثل شراب مُسكِر... لكنتُ انقدتُ إلى ما يفعله بي من دون علمي. لكنتُ ورقة يحملُها النسيم بمجرد أن تتساقط من أشجار «شارع الكانوبيير»؛ لا تقع الورقة على الأرض، وإنما يتلقفها الهواء، بل الفارس الذي يعدو بعجل... لكنتُ انقدتُ إليه ما دام أن حركاته خفيفة ورشيقة، فلا يدع الورقة تسقط بل يحملها معه، فوق حصانه... كان له أن يعدو أسرع من حصاني الليلي، ولكنتُ معه، أمامه، في حضنه، بين يديه، إذ تتمكنان من احتضاني فيما تمسكان بلجام الحصان المحموم.

لم يقرع الفارس الساحر على باب غرفتي الصغيرة، بل مدير «المشفى» نفسه، حين طلبَ مني بعد العشاء المجيء معه ومساعدته في أمر. انتقلتُ معه إلى مكتبه، وفي رفقته إحدى الراهبات ذوات المناديل البيضاء، وطلبَ مني محادثة أحدهم، الجالس على كرسي في وسط المكتب: كان مدمًّى، وممزق الثياب. لما سمعَني أقول

له: مساء الخير، أجابني: الحمد الله. . . ارحموني، من دون أن يرتفع بوجهه صوبنا. ولما أعدتُ السؤال عليه بناء على طلب المدير، انتبهَ إلى صوتي فرفع وجهه في اتجاهي. كانت عيناه تتكلمان من دون أن يحكي. كانتا في حال نشطة بخلاف جسده المتهالك فوق الكرسي: أرغب في طعام. . . أرغب في عمل. . . أرغب في أن أنام. . . قال هذا أكثر من مرة، مجيباً على الأسئلة التي كنت أطرحُها عليه بالمصرية بعد المدير. كانت عيناه تقولان غير ما تقوله شفاهه، من دون أن أفهم مغزى كلامه الخفي.

يئسَ المدير من الاستجواب، وطلب مني العودة إلى غرفتي. لما أدرتُ ظهري، خاطبَني الرجل المدمى: أما عرفتِني، يا ابنتي؟ حين توقفتُ عن المشي، ونظرتُ إليه، وقف وقال: أنا حسين، ألا تذكرين؟

أنا لم أعرف حسين، جارنا، صديق جارتنا مارلين، لكن كوليت عرفته بمجرد أن ذكرتُ اسمه أمامها. اتجهَت إلى المدير، وتأكدَت من بقاء حسين في «المشفى» للمعالجة. التقَته وحدها من دوني، وأخبرَتني أنها دبرَت له عملاً بدل البقاء في «المشفى» وتنظيف المراحيض، وإعانة الأطباء في نقل المرضى، ولا سيما بعد وفاة بعضهم.

هذه الحادثة بلغت دون غبريال. كان فرِحاً لكوني أعنتُ المدير في عمله، ونجحتُ في أول عملية ترجمة: أترين؟ العربية مفيدة، خصوصاً أن شرقيين يأتون أكثر فأكثر إلى مرسيليا. . . ستكونين في ذلك أول مترجمة. أتعرفين أن بونابرت احتاج إلى مترجمات في مصر فلم يجد أحداً؟ فرِحتُ بما قاله الخوري لي، فكان أن أضفتُ

إلى ما قال: لو سمعَت أمي ما قلتَه لي لكانت فرِحَت للغاية، ولكانت قالت له: هي ابنتي، أنا آمنة، أيها الجنرال، ألا تعرفها؟

ضحكَ الخوري لِما قلتُ، ثم استعاد وضعيته العابسة: انتهى كل هذا، يا جانيت، يا نور... لن يحتاج بونابرت بعد اليوم إلى أي مترجمة، لا في الشرق ولا في أوروبا... لقد توفي قبل أسبوعين في جزيرته البعيدة.

نظرتُ إلى الخوري من دون أن أحسن قول أي شيء. ولما استوقفَت الخوري تعابير وجهي على الأرجح، بادرني: أكنتِ تسمعين به؟ أجبتُه من دون تردد: أمي حدثتني عنه... أمي كانت تعرفه.

كوليت بكت عندما أخبرتُها بموت الجنرال، ثم أضافت: حسين سيبكي أيضاً. ثم أمسكت كوليت بكتفيَّ، وثبتت نظرها في نظري وقالت لي: آن لك أن تعرفي... اليوم الذي غابت فيه أمك... اليوم الذي غاب فيه حسين عن مارلين جارتكما... اليوم الذي وجدناك فيه، ريمون وأنا، أمام الفندق... هذا اليوم هو الذي أسقطوا فيه بونابرت عن العرش، وأجبروه على المنفى... أتعلمين، يا صبيتي الصغيرة، أنتِ في المنفى مثله، اليوم، لكنك ستعودين إلى الحياة بقوة... هذا أكيد، تابعي دروسك بجد.

يبدو أنني لم أُحسن بعدُ تحديد مكاني، وبقدر ما أكبر تزيد أسئلتي، بل أخالني أحياناً، وأنا ساهمة فيما يمكنني تدوينه أو كتابته، مثل من ينقب عن آثار، عن حكاية سبقته إلى الحياة، فتراه يمضي السنة تلو السنة، ويتقدم في العمر، فيما يعود واقعاً إلى الوراء، إلى الخلف، لكي يستجمع ويفحص ما ينتشر في جسمه، ما

يندس في مشاعره، ما يرتسم في تقاطيعه. . . أنا، في نهاية المطاف، يتيمة، تحاول جاهدة الوصول إلى مشهد قديم، إلى صورة تناثرت وتقطعت بعد رسمها مباشرة، بل كنتُ في حال أسوأ: من له أن يساعدني في إعادة ترميم المشهد الأثري، يسكن إلى جانبي ويُخفي عني بعض أسبابه. هذا يصح في: كوليت، وريمون، وحسين، والخوري طويل، وربما في أنطونيو الذي اختفى تماماً. لعلهم شركاء أو معاينون لِما جرى، لِما أنا ثمرتُه. . . لعلي جريمة معلنة، على أني الجاهل الوحيد بها. لعلي صورة قبيحة مهما طال جسمي في الامتداد، ودقَّ أنفي، واتَّسعت عيناي السوداوان. . .

وجدتُني مثل جثة مرمية على شاطئ البحر، مثل الجثث الكثيرة التي يلفظها البحر، والتي وقعتُ على إحداها قبل أكثر من سنة، مع كوليت، حين تداعى الناس في المقهى البحري وطلبوا من الجالسين إمكان التعرُّف إلى الجثة قبل وصول الشرطة: يومها عاد زوار المقهى مثلما راحوا. . . أما أنا، فما أن يتعرَّف إليّ أحدهم حتى ينكرني، أو يبتسم ابتسامة ماكرة، أو يرتبك في الإجابة، أو يعدلها.

كنتُ أبكي بكاء صامتاً، متصلاً، بيسر، كما لو أنني أمسك به، أحتجزه، وبمجرد ما أن سقطت أول دمعة فاض بما فيه. يبدو أنه بكاء قديم، ومستحق. كانت تظن كوليت أنني أبكي للمرة الأولى، لما استغيَبتني ووجدتني أبكي في غرفتي. بكائي لم ينقطع إلا منذ سنوات قليلة. قبل ذلك، ما أذكره من حياتي القصيرة دمعٌ متواصل مثل حبات المطر الخفيف الذي يقع في مرسيليا كثيراً ويحلو لي التمشي معه، مثل مُرافق في طريق. لم ينقطع هذا الدمع منذ وقفتي الطويلة أمام بوابة الفندق، حين تركتني أمي من دون أن تعود، ومنذ

أن تركتني كوليت برفقة الراهبة والمدير، أو حين كنت أختلي بنفسي في العتمة، فلا أجد أحداً ينتظرني خارج الميتم غير أناس جمعتني بهم الصدفة ليس إلا.

خرجَت كوليت من الغرفة لتعود، وهي تمسك بيدها بثلاثة دفاتر: هذه دفاتر مسيو أنطونيو... خذيها. إنها لكِ. أنا سرقتُها من أجلك. أنا لا أعرف ما فيها. أبقيتُها محفوظة في درجي على أن أسلمكِ إياها عندما تكبرين. ثم أخبرتني كوليت عما قد أقرأه في الدفاتر عن علاقتها به.

ما لم ينجح أنطونيو في كتابته روته كوليت لي: قررتُ سرقة الدفاتر عندما أدركتُ أنه يُدوِّن تحقيقه في جريمة «مماليك بونابرت». كنت أظن في البداية أنه أتى إلى مرسيليا لهذا الغرض: ظننتُ أنه من جماعة الشرطة المؤيدة للملكية، والتي تطلب الكشف عن مؤيدين مختفِين للإمبراطور وناجين من «المجزرة»... ثم اقتنعتُ بعد أيام أنه أتى لكي ينتقم لأصحاب الجنرال، ومؤيديه، في اللحظة المجرمة التي تعرضوا لها من دون أن يهرع أحد لإعانتهم، أو لكتابة قصصهم المرعبة... لكنني خشيتُ بعد أيام من صدق نيته بالسفر إلى أميركا، ما جعلني خائفة من سفره، ومن حَمله الدفاتر معه. لهذا دسستُ في قارورة النبيذ في غرفته شراباً مخدراً، ثم عمدتُ إلى سرقة الدفاتر...

سافر أنطونيو في اليوم الموعود من دون أن يلاحظ ما قامت به كوليت، وتركَ لها رسالة، أودعتها كوليت في الدفاتر من دون أن تقترح على أحد قراءتها لها.

كنتُ أعدو فوق حروف أنطونيو، وأقلِّب الأوراق مثل من يتنقل فوق بلاط الشوارع، أو في رمل صحراء مصر، أو يصحب معه

حصانه لبلوغ ضفاف المتوسط. كانت القراءة صعبة، إذ كان علي أن أعتاد إلى مَيَلان حروفه، الذي يشبه ما عرفتُه في مخطوطات في «المكتبة العمومية»، لا في كتبي المدرسية. كنت أقفز من صفحة إلى أخرى طمعاً بالوصول إلى: آمنة، وإلى معارفها. ثم كنت أعود إلى الخلف من جديد، بعد أن أتأكد من كوني أحتاج إلى القراءة، إلى امتداد سطورها، لكي أتوصل إلى تتبع ما يكتبه ويعاينه ويرويه. ذلك أن ما يكتبه لم يكن مثل تحقيق بوليسي أقعُ فيه على اعترافات، أو أصلُ إلى معلومات مخفية في كيس أو في قعر خزانة. كنتُ أتألم وأنا أقرأ: لصعوبة ما أقرأ عنه، وهو يشملني من دون أن يَرِد اسمي، ولا اسمها مرة واحدة. كنتُ أجد صعوبة مزيدة ما دام أنني عدتُ إلى الخلف بعد أنِ عدوتُ سريعاً إلى الأمام... من دون جدوى واقعاً. إلا أنني، في هذا الرواح والمجيء المتماديَين، كنت أشبه بفارس يعتاد على طريقه ويألفه، فلا يخبط في صحراء. وهو ما شعرتُ به بعد أن انتبهتُ إلى كوني بتُّ أليفة مع خط أنطونيو. ضحكتُ عندها، إذ تذكرتُ الخوري طويل والمكتبي لويس بين غبار المخطوطات. ولكن ما أضحكني أيضاً هو أنني تمتعتُ في الدفتر الأخير بحكاية كوليت مع أنطونيو: ما كان لها أن تفعل هذا به... أن تسرق دفاتره... أنا أكيدة من أنه كان سيعطيها بنفسه من دون أن تضطر إلى سرقتها... كان أنطونيو رقيقاً للغاية... كان يستحق معاملة أفضل.

أنا سأعامله بصورة أفضل، بأي حال، خصوصاً أنه حفظَ لي صورة عن طفولتي مضَت إلى غير رجعة. هكذا حفظَت لي كلماته بعض طفولتي التائهة؛ هكذا ستحافظ الكتابة عما أعايشه، وربما عما لي أن أعرفه عن غياب آمنة، وعن والدي أيضاً.

أنطونيو أستاذي الخفي، الذي أحتفظُ بدفاتره مثل وصية، مثل نجمة في ليل معتم. سرق خبايا وأسراراً لصالحي من حيث لا يدري، ولصالح القتلى والصامتين في أيام «المجزرة». لم يسرق قبلة مثل جوزف؛ ولا يبدو أنه تطبع بعادات الفرسان، ولا سيما الضباط عند نابوليون. كان معهم، كان منهم، إلا أنه كان مختلفاً عنهم. كان أقرب إلى أن يكون فارساً فوق جوادي الخيالي، لكنه يعدو في واقع الأمر في الطريق الواصلة بين خلجان إيطاليا والأفق الممتد أمام ناظريه.

نجحتُ أخيراً وبصعوبة في قراءة دفاتر أنطونيو. استخرجتُ منها عدة أسماء لتدوينها في دفتري:

السيدة جولي بييزوني

السيد جيراردون

الخوري غبريال طويل

أنطوان مسابكي

جورج سكاكيني

عبد الرحمن الجبرتي

نوال المصرية...

لم أذكر في هذه اللائحة اسمَي: كوليت وريمون بطبيعة الحال. لكنني تساءلتُ: من يكون ريمون واقعاً، وهو العابر من دون أن نرى له هيئة أو سيرة؟ وماذا عن حسين الذي بات في كنف ريمون، وربما كوليت نفسها، بعد أن وجدتُ في غرفتها قبل أيام سبحة للتسلية كنت قد انتبهتُ إليها بين يدي حسين نفسه؟ في ذلك اليوم سألتُه: لم تحدثني أبداً عن أمي، وأنتَ عرفتَها! فأجاب بلهجته الفرنسية

المتعثرة: أنتِ مُفضِلة علي، يا ابنتي... لولاكِ لما أنقذوني في الميتم، ولما توصلتُ إلى الاجتماع من جديد بكوليت والعمل في الفندق.

ما كنت أتوقعه كان صحيحاً: لم أكن مسيحية، فأمي مسلمة... لكن حسين توقفَ فجأة، واستدركَ بالقول: إلا إن كان والدك مسيحياً. توقفَ حسين في تلك اللحظة عن الكلام، معتذراً بأن عليه إعداد أكياس النفاية، ونقلها إلى مكان استلامها من عمال البلدية. ولما استوقفتُه مرة ثانية، في قاعة الطعام، اكتفى بالقول على عجل: معرفتي بآمنة محدودة... كنتُ ألتقيها في مرات قليلة عند مارلين... هناك التقيتُ بكِ أكثر من مرة، من دون أن تنتبهي إلينا، أو أن تشاركينا الجلسة... كنتِ ملهوة دائماً بكرسي خشبي صغير... كنت تنتقلين به، وتغيرين وجهة الجلوس عليه... أتعرفين: كنتِ تفعلين ما يفعله أهل مرسيليا من البحَّارة، عندما يستيقظون صباحاً فيبللون إصبعهم باللعاب، ويرفعونه لكي يعرفوا من أي جهة تأتي الريح لكي يحسنوا التوجه؟

لم أفهم ما قاله حسين، بل وجدتُه يخفي أكثر مما يفصح.

لم تعد كوليت تخشى خروجي وحيدة إلى الشارع. باتت تسمح لي بالتنزه وحدي، من دون أن أبتعد كثيراً عن منطقة الفندق. إلا أنها أصرت على مرافقتي لما علمت بخروجي لرؤية حيوانات مفترسة في عرض تكلمت عنه الجرائد: أقرأ عنها بدل أن أسافر إليها... أنتِ، يا كوليت، لماذا تريدين رؤية هذه الحيوانات؟

كان ذلك في «شارع بارادي»، في 24 من مايو. ما أدهشني أكثر من غيره في العرض كان مرأى وحيدِ القرن، المسنِّ بحسب

حسين، لبلوغه التاسعة من عمره، والضخم الجثة تبعاً لسنه. حجمُ جسمه يبدو أكبر من بقرة ضخمة، إلا أن ساقيه أكثر قصراً وأكبر سماكة؛ فمُه صغير، وأنفه مزين بقرن من دون أن يكون بالطول المناسب. . . استبدَّ به الفرح عند دخولنا، عدا أنه أمتعَنا بعرض جميل للغاية. . . وهناك أيضاً الدب الأبيض، الذي وجدناه مستلقياً، نائماً في قفصه عند عبورنا: نحيل الجسم، يبدو عليه حال من الحزن. وهناك أيضاً نسور، وعقبان وغيرها من الحيوانات الغريبة والمدهشة. وهناك قرود من جميع الأصناف.

يوم الخميس، في 31 يوليو من سنة 1823، كدنا ألا نأكل خبزاً، بعد التهديد بإضراب عمال المخابز. فاقَ عددهم ثمانمئة عامل، وأعلنوا أنهم سيتوقفون عن العمل إن لم يتم دفع ثلاثة فرنكات لهم في اليوم الواحد فضلاً عن الأكل. انتشر خبر العصيان في المدينة، من دون أن تنجح مفاوضات عمدة المدينة معهم. . .

هاجوا في الشوارع القريبة، أمام الفندق. راحوا يزعقون ويهددون، معلنين أنهم لن يُقدموا بعد اليوم على العجن. عندها جرى الإتيان بقوى الأمن، المصحوبين بجيادهم، فطوقوهم ودعوهم إلى مغادرة المكان. وأمام رفضهم، دخلت بعض القوات مع ضباطها، واعتقلوا ما يزيد على ثلاثين منهم. إلا أن البعض حاول مقاومة قوى الأمن، فكان أن أصيب أحدهم بضربة سيف على رأسه، والبعض الآخر بضربات من حراب الجنود. بعد انقضاء الحملة، تفرقَ الجمع منشدين: «عاش الملك». هذا لم يمنع القوى الأمنية من اقتياد بعضهم، العنيدين خصوصاً، إلى السجن، في انتظار محاكمتهم وتحويلهم على أشغال شاقة.

نسيت أن أدون أنه جرى إغلاق الثانوية في مرسيليا، منذ بعض الوقت، بعد أن جرى التأكد من أن أعداداً كبيرة من الطلبة يدافعون عن الأفكار الليبرالية، وأن السجالات بينهم بلغت حدود الحرب الأهلية.

يوم الخميس، في 16 سبتمبر من سنة 1824، في الخامسة عصراً، جرى تعليق خبر تلغرافي يفيد أن الملك لويس الثامن عشر يحتضر. البعض قال إنه مات، وإن السلطات تريد بذلك تخفيف وقع الخبر على الناس.

في السابع عشر منه، اتُّخذ قرار بمباشرة الصلوات العمومية لإنقاذه من المرض. السلطات المحلية شاركت فيها. قرأتُ عنه في الجريدة: هذا الملك الطيب للغاية سعى إلى عدم معارضة الجميع واسترضائهم، فكان أن أغضب الجميع...

في الخامسة عصراً من نهار الأحد في 19 سبتمبر جرى تعليق إعلان عن وفاة الملك، التي حصلت يوم الخميس المنصرم في 16 سبتمبر في الرابعة فجراً، وعن أن شارل العاشر بات ملكاً.

الفصل السادس

نور تحت نظر عبد الرحمن الجبرتي

لم يبقَ غيرِ أن أعدَّ لرحلتي إلى مصر، برفقة حسين بالطبع.

اتُّخذَ القرار كما في اجتماع رسمي: ريمون، كوليت، حسين وأنا. كوليت اقترحت الفكرة، ريمون تكفل بتدبير نفقة السفر والإقامة، فيما يكون حسين دليل الرحلة، فضلاً عن أن لريمون معارف في القاهرة، فرنسيين ومصريين، ممن حلُّوا في الفندق في أوقات مختلفة. ما كان هذا ليصير، لولا عشاء الأسبوع المنصرم، لما استضافت السيدة بيزوني أحد معارف صديقها الفنان جيراردون للالتحاق بهم في الفندق: باسكال كوست، المعماري والفنان.

اتَّخذوا القرار بعد أن وجد كل واحد منهم أن ما ساعدوني به لا يكفي لجلاء سيرتي. كانوا متضايقين لأنهم عرفوا أمي من دون أن يمكِّنوني من معرفة من كانت: أين اختفت؟ هل قُتلت؟ هل عادت إلى القاهرة من دوني؟ لماذا حلَّت في مرسيليا، هي المصرية الأمية، من دون زوج؟ كيف يحدث أن كوليت التي التقت بها وعملت معها، في مطبخ الفندق، لا تُحسن الجواب الشافي عن أسئلتي؟ كيف يحدث أن حسين، الذي هاجر معها من القاهرة، لا يتذكر أنه التقى بها فوق فرقاطة «بالاس»؟ كيف يحدث أنه التقاها عند جارتنا مارلين من دون أن يعرف هوية زوجها، أو عشيقها، والدي؟ كيف يحدث

أن ريمون، الذي استخدم والدتي في بعض أعمال الطبخ، لا يذكر الشيء الكثير عنها، مع أنه ساعدَها مرة في إجراء بعض المعاملات الإدارية؟ أعليَّ السفر إلى القاهرة لمعرفة مصيري، وأنا لم أنتقل بعد إلى تولون، أو آكس، أو باريس؟ أعليَّ ركوب إحدى تلك السفن التي كنت أنظر إليها في المقهى البحري من دون أن أجدني في إحداها، ولو مرة واحدة؟

هذا لا يريحني، وقد وجدتُ أن هذا وذاك وتلك يتخلصون مني، فيعيدونني إلى المصري، أي إلى حسين، ويرمونني في لجج البحر، من دون أن أُحسن العوم. حتى الخوري طويل شجعني على السفر، وتعهدَ بوضع شبكة علاقاته، ولا سيما الدينية، في خدمتي. لم يبقَ غير أن أستشير جوزف ميري بدوره. . . ماذا سيقول، وهو ينتظرني من دون شك في المقهى تلبية لدعوته السابقة؟ ألن يعتبر أن مجرد الذهاب إلى المقهى البحري اعترافٌ مني، وقبولٌ، وتتمة، لقبلته التي انتزعَها مني انتزاعاً؟

ترتيبات السفر سريعة: كوليت أخذتني بنفسها إلى خياط مصري في الجهة الشمالية من المدينة، وتشاورَت مع زوجة الخياط في ملابسي اللازمة للرحلة، كما اشترَت لي كوليت حقيبة كبيرة، وأخرى صغيرة. . . حسين قادني إلى قنصل تركيا، الكائن مقره في 31 «شارع مونغران»، لاستحصال وثيقة سفر، بوصفي من رعايا السلطنة، كون أمي مصرية: استلمتُ بعد أيام جواز سفر باسمي، مع تاريخ ميلاد خاطئ، إذ ذكروا فيه أنني ولدت في العام 1801، من والد، هو: حسين فائق، ومن والدة اسمها: آمنة حجازي. أخبرني، يومها، حسين إن اختلاق التواريخ والأسماء لازمٌ في حالتي،

لتمكيني من السفر... يومها لم أرتح لِما فعله حسين؛ بدا عليَّ الانزعاج من دون شك، دون أن أتوجه بملاحظات له: لا تخافي، يا ابنتي... القنصل يحتاجني أحياناً في مهمات «سرية».

كيف يحتاجه، وهو أميٌّ ومفتول العضلات ليس إلا؟! تساءلتُ بعد أن تذكرت ما قرأت في دفتر أنطونيو عن مهماته «السرية». حين فاتحتُ كوليت بما اكتشفت: يجب أن تعرفي البشر... نحن نمشي فوق دروب الحياة، لا فوق سطور الكتب. كانت الجملة رائعة، لا أتوقعها من كوليت، التي رحتُ أتبيَّن كونها، هي بدورها، تُخفي أكثر مما تفصِح، وتحوك خيوطاً غامضة. كنتُ أحمل بين يدي جواز سفري، هويتي الجديدة التي تنضاف إلى هويتي الأخرى بعد العمادة: أنا فرنسية، وأنا مصرية.

انتقلتُ مع كوليت إلى المقهى البحري بعد طول غياب. لم يكن ميري، ولا مجموعته، في المقهى. هذا أنسب. تحدثني كوليت عن طفولتها، عن أمها، عن خطيبها الذي قضى في معركة أوسترليتز، من دون أن أتابعها تماماً. كنت مشغولة بمرأى السفن الراسية على مبعدة منا. كان مشهد البحر بعيداً عني، مع ذلك. أقيم على مبعدة أقل من فرسخ منه، لكنني أتجنبُه. رفضتُ تعلم السباحة عندما أخذونا في الميتم إلى شاطئ قريب مع مجموعة من السيدات العاملات في الميتم.

وجدتُ السيد ريمون ينتظرنا بعد وصولنا إلى الفندق، وبين يديه عنوان باسكال كوست في القاهرة: تنطلق سفينته بعد الظهر، بعد أن بلغَته رسالة عاجلة من محمد علي باشا بلزوم العودة السريعة إلى القاهرة... سيلتقيكِ هناك من دون شك، وسيوفر لكِ الحماية، إذ يعمل في قصر الحاكم.

في مكتب السفر، استقبلنا، حسين وأنا، السيد جورج سكاكيني، على أساس أننا نحتاج إلى خدماته كترجمان. لم أعترض بحجة أنني أعرف الكتابة والقراءة، بل وجدتني أتلبس شخصية التخفي عند كوليت، لكي أراقب أفعال هذا الرجل الذي خمنتُ كوني أعرفه من دون أن ألتقيه قبل هذا اليوم. لما عدتُ إلى الفندق تأكدتُ من ورود اسمه في دفتر أنطونيو. نصحني السيد سكاكيني، لما انتبهَ إلى كوني غير أمية، وأنني من طلاب الخوري طويل، بالذهاب إلى «المكتبة العمومية»، وبطلب المشورة من السيد لويس ميري: هو يعرف عن مصر أكثر مما يدَّعي أخوه، جوزف. . . أيكونان أخوين، إذن؟

وجدتني أستجمع خيوطاً لِما يحيط بي، فيما كنت سمكة في شبكة كبيرة.

أكتب هذا كله في «المكتبة العمومية»، في دفتر جديد له أن يصاحبني، وأدوِّن عليه كل ما أحتاجه من أسماء وعناوين ومعلومات استعداداً لرحلتي. وفَّر لي السيد لويس كتب رحالة عديدين إلى مصر، ولا سيما رحلة فولني: اقرأي هذا الكتاب جيداً. . . كان دليل رحلة بونابرت إلى مصر. كان يسلي نفسه بقراءته فوق سفينته المتجهة إلى ضفاف بلد الفراعنة. . . هو أفضل على أي حال من كتب رحلات الحجاج المسيحيين إلى «الأمكنة المقدسة». ما أفعل بهذا كله؟ أتحتاج معرفتي بسيرة أمي وأبي كل هذه القراءة؟ كانت آمنة أمية وجميلة وتُحسن الطبخ والخدمة البيتية. أفي هذا ما يؤهلها لأن تَرِد في الكتب؟

أدوِّن هذا في دفتري الصغير، فيما تتكاثر فوق طاولتي الكتب. في بعضها رسوم استوقفتني بأحجامها وأشكالها مما لم تقع عليه

عيناي أبداً. وجدتُ أسماء شوارع في القاهرة، ورسوماً لأبنية فيها، ولأسلحة وسيوف. كما وجدتُ رسوماً مختلفة لمن سمعتُ باسمه من دون أن أعرف هيئته: الحاكم محمد علي، وهو جالس على أريكة، لا على كرسي. كما وقعتُ في كتاب على رسوم لنساء مختفيات تماماً تحت أثوابهن.

كنتُ أتنزه في الكتب واقعاً، وتذكرتُ كيف أنني لم أبالِ في الثانوية، لما اقتادنا الأستاذ فلوريان لرؤية أحجار وعملات قديمة وبقايا أعمدة وسيوف وأسلحة مما كان يتمُّ تجميعه في قاعة كبرى، على أن تتحول إلى: متحف. كنتُ ألقي نظري عليها من دون أن أراها. لما أوقفني فلوريان أمام إحدى البقايا المعمارية، قال لي: أتعرفين أن هذه تعود إلى قرون وقرون، إلى أيام العرب والمسلمين في مرسيليا وجوارها؟ لم أجب، وقفتُ ساكتة، بلهاء بالأحرى...

كيف لي أن أحمل هذا كله؟ هذا يكفي. هذا ما كدتُ أن أقوله عالياً للسيد لويس ميري، لما بلغَ طاولتي في المكتبة، ومعه كتاب يفوق بحجمه كل ما رأيتُ من كتب: إنه كتاب **وصف مصر**. أتى بكرسي، وسحب الكتب الأخرى المتراكمة فوق الطاولة، وجلس بجانبي كما لو أنه يريد تعليمي دروس الخط، بالمحبرة والريشة، التي علّمني إياها الأستاذ فلوريان. تكلم ميري كثيراً عن «حملة» بونابرت، عن العلماء الذين رافقوه، عن المصورين الذين رسموا كل ما أثار انتباههم ومعارفهم: أتعرفين؟ حتى الأعشاب رسموها! كدتُ أن أوقف سيل كلامه، الغزير مثل ماء النيل، لكي أسأله سؤالاً وحيداً وبسيطاً: أفي هذه الكتب ما يدلُّ على آمنة المنصوري؟

كنتُ أرى إلى مرسيليا وأنا أبتعد عنها. أراها من خارجها،

بحجمها الكبير، إذ تعلو وترتفع بعد شاطئها. كانت وجوه كوليت وريمون وبيار وجوسلين، من بين خدم الفندق، تتباعد، وتتعب يدي من التلويح لهم، قبل أن يختفي كل شيء، فلا يحيط بنا غير البحر من النواحي كلها.

دعاني حسين، بمجرد ركوبنا، إلى تناول سائلٍ اتقاءً من دوار البحر. ثم طلب مني التمشي على سطح السفينة، للاعتياد على فستاني الطويل، بعد أن طلبوا مني أن أكون ابنة أحد العاملين في قنصلية فرنسا في القاهرة، وأن يكون حسين مرافقاً لحمايتي. كان في حقيبتي الصغيرة إذنان للسفر، هويتان، بحسب الحاجة، على أن أضيف إليهما كوني ابنة قنصل.

خرجتُ من المرفأ فرنسية، وسأدخل إلى مصر مصرية، بعد أن أكون قد رميتُ ابنة القنصل في اتّساع البحر المتوسط. إلا أن حالتي لم تكن بغريبة فوق السفينة، ما دام أن حسين أخبرني عن وجود مصريين وفرنسيين مختلفي الأحوال والمِهن يُبحرون معنا. كانت هذه رحلته الأولى، بعد خروجه الأول في عداد قوات بونابرت. لكنه وجد فوق السفينة من التقاهم مع بونابرت، ثم عادوا إلى مصر من جديد في خدمة محمد علي هذه المرة.

جان-لوي جيروم واحد من هؤلاء. كان يدخِّن غليونه بشراهة، فيما كنتُ لا أتحمل أبداً هذه الرائحة الكريهة التي تتسلل إلى ثيابي الجميلة، وأشمُّها بعد أن أنزع ثيابي عني في القمرة لارتداء قميص النوم. إلا أن حديثه كان ممتعاً كما في قصص المغامرات والفروسية. معه شعرتُ بأن حكايتي بسيطة للغاية لو قورنت بحكايته، عدا أنها لا تقلقه مثلما تقلقني. كان في كلامه فخوراً، لا خجولاً بما عاشه، بما حدث له. فهو مصري المنشأ، واسمه الكامل

معروف: إبراهيم محمد، ويَعرف بعض عائلته حتى اليوم، ويلتقيهم بمجرد عودته إلى القاهرة: لا أعرف سبب التحاقي بأحد الضباط الفرنسيين، ميشال جيروم، أثناء حملة بونابرت في مصر... لا أعرف كيف قَبلتُ التطوع في «جيش الشرق»، في الكتيبة الثالثة، ثم الانتقال مع قواته إلى فرنسا...

يتفنن جان-لوي في رواية ما يحكيه. يبدو أنه رواها أكثر من مرة. لا أعرف إذا كان ما يحكيه من معارك، من بطولات، عاشها فعلاً وشارك فيها... عندما كنتُ أوقفه عن الكلام، كان يتضايق. لعله محق. قصصه مسلية، مبهرة أحياناً، إلا أنه كان يختصر أخبار غرامياته مع نساء غامضات يخرجن في ليل المعارك للاحتماء به. هذا ما يذكره ذكراً، ويعتذر مني لذكره ولو بشكلٍ سريع.

جان-لوي، بحسب روايته، التحقَ بالكتيبة الثالثة في جيش بونابرت، وحاربَ معه في إيطاليا، وفي معركة واغرام، التي استحق فيها ميدالية استحقاق، وضعَها نابوليون بنفسه على بزته العسكرية. قبل ذلك، تعمد جان-لوي في العام 1807، واكتسب اسمه الجديد، المنتسب إلى عائلة الضابط الذي فتح له كتاب التاريخ: كدتُ أن أموت أكثر من مرة، لكنني كنتُ أستبسل في المعركة التي تليها... أكان لي أن أعرف ذلك لو بقيتُ أعمل في المخبز مع والدي؟ لو بقيتُ أنتظر رضا عمي في الصعيد وقبولَه بتزويجي من ابنته البكر، خديجة؟

مع ذلك، عاد جان-لوي إلى مصر بعد خروجه منها، وقد استعاد في باريس جنسيته المصرية. عاد بحجة أن أحد أقاربه نصحه بالعمل في جيش محمد علي، بعد أن حصَّل خبرة عالية في صفوف القوات الفرنسية، فيما يظن حسين أنه «هرب» من فرنسا خوفاً من

غضب القوات الملكية عليه. غضبَ جان-لوي مما أوحى به حسين: كانت عودتي أصعب من بقائي... أنا ما عانيتُ في باريس ما عانيتم منه أنتم في مرسيليا... كنتُ أعرف أن القوات الملكية لا تهوى الحروب بالضرورة... الحرب مهنتي، لا تنسَ... الحرب لعبتي... الحرب متعتي.

سكتَ حسين يومها عن الكلام، وهو قليل الكلام أساساً. سكتَ من دون أن أنجح في مفاتحته بما حدث له أثناء «المجزرة» في مرسيليا. إلا أنني ما لبثتُ أن نجحت من حيث لم أكن أتوقع، إذ سألتُه عن سبب حلوله في «مشفى الإحسان»: كنتُ أعمل في المرفأ، في حَمل الحقائب، في نقل البضائع... لم يكن عملاً منتظماً... أنا ربُّ عملي... أنتظرُ من يناديني من أصحاب الشركات التجارية، أو من المسافرين، ومعي علّاقة معدنية أُمسكُ بها الرزم والحقائب لحملِها ونقلِها، ثم أضعُها في زنار جلدي حول وسطي... هذا ما عملتُ فيه قبل نفي نابوليون. لم يكن يزاحمني عليه سوى عدد من العمال المؤقتين، ممن كانوا أقل قوة مني... إلا أن الحال تغيرت، لما طلبَ مني أحد الإيطاليين العمل تحت حمايته، مع عدد من العمال الآخرين. رفضتُ عرضه... أنا لا أحتاج إلى حمايته... هددوني. تكالبوا علي. فشلوا في أكثر من محاولة لاصطيادي. لكنهم نجحوا في تلك الليلة، بعد أن أتى منهم ما يزيد على العشرة... بقيتُ مدمًّى، مُلقىً على رصيف الميناء، فيما ظنوا أنني سقطت صريعاً. اكتشفَ ربان إحدى السفن حالتي، ونقلتني الشرطة إلى «المشفى» الذي يستضيفون فيه متشردي الشوارع.

كان حسين يروي بعد مغادرة جان-لوي جلستنا فوق سطح

السفينة. روى، بعد أن وضع كرسيه في اتجاه آخر، مديراً ظهره للبحر. كان يروي خفيض الرأس، كما لو أنه في جلسة اعتراف: أتعرفين لماذا قبلتُ المجيء معك إلى القاهرة؟ أدار كرسيه من جديد، ونظر إلى وجهي مباشرة: لن أعود إلى مرسيليا من جديد... دبَّرَ لي ريمون تذكرة السفر، وهو ما لم أكن قادراً على تدبيره... سأكون إلى جانبك إلى أن تنتهي رحلة البحث عن أهلك.

جان-لوي مثل حسين وغيرهما، يرتاحون للكلام، لسرد الحكايات، ولا سيما في الليالي الطويلة التي نمضيها معاً قبل تفرقنا من جديد. كان ذلك يتمُّ فوق سطح السفينة، أو في المطعم، أو في الممرات، من دون رقيب أو حسيب. يروون كما لو أنهم يتكلمون في الهواء، رغبة في تمضية الوقت، من دون أن يكونوا كاذبين بالضرورة. يروون مثل من يتخفف أحياناً من أعباء في سيرته، فتراه يتخلص منها، ويلقيها في البحر قبل آذان سامعيه. كان هناك من لا يتوجه إلى مصر بالضرورة، بل إلى مرافئ مختلفة في المتوسط. كانت السفينة تتوقف فينزل ركاب، ويصعد غيرهم، فيما كنت أراقب أشكال البشر وألوانهم وثيابهم أو شكل الحقائب نفسها، من دون أن أبادل أحداً الكلام، طبقاً لتعليمات حسين، وريمون قبله. فأنا أقع بسهولة في الخطأ، ما دام أنني ظننتُ، وأنا على سطح السفينة، أن أحدهم يصلي في كتاب مفتوح، فيما عرفتُ بعد وقت أنه كان يراجع في الكتاب المدن والمرافئ والمشاهد التي نعبرها أو نحطُّ فيها. ما دعاني إلى التوهم، هو أنه كان يقرأ في **الكتاب المقدَّس**، فيما أخبرني جان-لوي عن هذا المسافر الفرنسي أنه يتابع في الكتاب الديني مسار الرحلة نفسها، ما جعل جان-لوي يسخر منه، معي: أكان من الضروري انتقاله هذا، وتكبُّدُه كل هذه المصاعب، لكي

يتحقق ما إذا كانت شجرة تين السيد المسيح، الواردة في الإنجيل، لا تزال في مكانها؟

كوليت اقترحَت عليَّ أن أكون خرساء طوال الرحلة، فأتخفف من عناء المناقشات، من ملاحقة هواة الرحلات الغرامية فوق السفن... ضحكتُ حين طالبَتني كوليت بذلك، ثم أمسكتُ عن ذلك مخافة إغضابها، هي التي انتقلت من قريتها إلى مرسيليا ولم تعد إليها ولا إلى غيرها.

كانت رفقة جان-لوي مسلية، إذ سهَّل عليَّ مصاعب انتقالي إلى الإسكندرية، محطتنا ما قبل الأخيرة. راح يخبرني عن المصريين فيها، وعن عاداتهم، من دون أن يسألني عن سبب رحلتي. أنا التي فاتحته بها: أنا مصرية الأصل، لكنني من مواليد مرسيليا... أنتقلُ إلى القاهرة للبحث عن خالتي آمنة التي كانت تعمل في مطبخ كليبير. هل تعرفها؟ ما عنى الاسم شيئاً له: مصريات كثيرات عملن في خدمة بونابرت أو كليبير. فكان أن قاطعته: قيل عن خالتي إنها كانت تُعدُّ لبونابرت الحلوى المصرية المُسماة: كنافة، وأنه كان يستطيبها. ثم توجه إليَّ بالسؤال:

- أين تقيم خالتك آمنة في القاهرة؟

- ماتت قبل أكثر من سنة... هذا ما بلغ أمي قبل مدة من أحد المصريين العاملين في تجارة القماش... قررت أمي إرسالي لتحصيل حصتها من الميراث.

بعد انصراف جان-لوي عنا، سألني حسين، من دون أن يخلو سؤاله من غضب خفيف: من أين أتيتِ بهذه القصة؟! لم أجب، فتابع كلامه: فعلاً، بونابرت كان يحب «الكنافة»، وكانت مصرية تُعدُّها خصيصاً له. لا أعرف فعلاً من أين أتيتُ بهذه الحكاية

الملفقة. لعلي سمعتُها من أحد معارفي من المصريين أو الفرنسيين وها أنا أستخرجها من مخبئها القديم من حيث لا أدري. لعلي قرأتُ ذلك في ما قرأت من كتب عن بونابرت. لعلي وقعتُ عليها في جرائد. حسين لم يحدثني بهذا في السابق، وهو قليل الكلام:

- ومن كانت المصرية التي اشتهرت بالكنافة؟

- لا أعرف اسمها، ولا وجهها... البعض ذكرَها أمامي، لما انتقلتُ للعمل في حراسة بونابرت لأيام عدة... كانوا يشيرون إليها في عِداد من كان يطلبهم إلى العمل في قصره عند الحاجة، أو عندما يقيم مأدبة لضيوفه من أعيان القاهرة.

أخرجتُ دفتري ووضعت فيه اسمين مع جملة العناوين: آمنة، و«الكنافة». عندما عرف حسين بما دوَّنتُه، ابتسمَ وقال لي: قصتُّك هذه مقنعة أكثر من ابنة القنصل... احتفظي بها.

السفينة بيتي لأسابيع طويلة. صرتُ أتنقل فيها براحة بين عاليها وواطيها، بين غرفها الصغيرة وممراتها الضيقة، وبين فسحة المطعم الرحبة ومكتبتها وطاولات الجلوس والمحادثة فيها. كنتُ أقيم خارج غرفتي، طالما أنها شديدة الضيق، وتكاد تسع سريري الضيق، هو الآخر، وحقيبتيَّ الضخمة والصغيرة. عندما كنتُ أبقى فيها، كنت ألتهي في سماع العبارات والجُمل العابرَة في الممر، متذكرة اختبائي تحت الطاولة في مطعم الفندق. في جميع الأحوال، كنت أضع في أسفل السرير الأحمال المعدنية الثقيلة التي كانت تجعله لا يزيح أو يتمايل، ولا سيما مع اشتداد الأمواج. إلا أنني، في بعض الأحوال، حين لا يكون الموج عالياً، كنت أراقب البحر من نافذتي الصغيرة.

كل شيء كان يدفع بي إلى الصعود نحو سطح السفينة. فحين يكون البحر عاصفاً، وأنا في الغرفة، أشعر كما لو أن كل شيء سيطبق عليَّ، أو أن الأمواج الصاخبة ستغمرني وتنقلني إلى ما تحت البحار. كان المنظر فوق السطح جميلاً في الغالب. نتجول فيه كما لو أننا في مدينة صغيرة، فنلقى الجار مثل عابر الطريق. نتبادل مع بعضهم أطراف الأحاديث، أو نكتفي بمراقبة المناظر المحيطة. حدثوني أننا عبرنا على مقربة من شواطئ جزيرة كورسيكا، موطن نابوليون، وأننا تفرجنا على قمم سردينيا، وحاذينا شواطئ صقلية ومالطة وكريت... وأضاف حسين على ما يقولون، لمّا جرى الحديث عن جزيرة مالطة، أن بونابرت، في طريق حملته إلى الإسكندرية، حررَ أكثر من ألفي سجين مسلم من سجن الأشغال الشاقة في الجزيرة...

بدا لي المسافرون أكثر كلاماً، بل ثرثرة، فوق سطح السفينة منهم في شوارع مرسيليا. لا تسأل أحداً سؤالاً بسيطاً، عن النهار أو عن الساعة، حتى تراه يسترسل من دون داعٍ في الحديث عن نفسه، عن أحلامه خصوصاً.

ما كان يسليني في الغالب هو التمتع بمرأى الأشرعة، بل بموسيقاها إذ تنتفخ أو تنبسط؛ أو بصوتها الصاخب، لما كان بعض الملاحين يصعدون بخفة مذهلة على الصارية، ويديرون بأصابعهم الرشيقة «مفاتيح البحر»: إنه تعبير القبطان، لا تعبيري. كنتُ أتنزه فوق سطح السفينة، وأجلس وحدي، فيما أنا محاطة، ما يشعرني بطمأنينة أفتقدها أحياناً في شوارع مرسيليا. وكنتُ أقرأ كذلك، وأضحك أحياناً مما أقرأ. ضحكتُ مما قرأت عن البحر نفسه في أحد الكتب، وعن زرقته، إذ وجدتُ أن له ألواناً متعددة، بما فيها

الأبيض نفسه، عندما يشتدُّ الموج ويغضب؛ وهي اللحظة التي يدعونا فيها قبطان السفينة إلى العودة إلى غرفنا، بل يقوم أحياناً بالرسو في أحد الموانئ القريبة انتظاراً لهدوء العاصفة. وما أن كانت السفينة ترسو بنا، وتبلغ اليابسة، حتى كنتُ أشعر بأن خطواتي باتت أكيدة، لكنني أكون قد انقطعتُ عن الطيران.

كنا نأكل، حسين وأنا، أحياناً تحت مظلة واقية من أشعة الشمس الحارقة فوق السطح، فيما ينصرف أحدهم إلى مداعبة آلته الموسيقية بكثير من الصخب. إلى جانبنا مدافع منصوبة، وللسفينة أذرع خشبية تغالب الموج، وتجعلنا نتقدم.

لكن الرحلة كانت منهِكة، ولا تخلو أحياناً من مشاهد مؤذية، مثلما شرحها لي حسين، وهي «عقوبة» الملاحين لزميل لهم، إن قضى نوبته في العمل مستلقياً في أرجوحة، في سرير معلَّق. إلا أن المشهد كان مضحكاً، ذكَّرَني ببعض حماقات الطلبة في «الثانوية»: يُمسك الملاحون برفيقهم، يمدِّدونه على أحد المحامل، ثم يدهنون جسمه بقاذورات ونفايات وبسواد الفحم؛ ثم يدعونه، بهذه الهيئة المنفِّرة، إلى التنقل فوق سطح السفينة ثلاث دورات؛ وما أن ينهوا مسلسل التعذيب والتحقير، ينطلق الملاحون ورفيقهم في الرقص والغناء من جديد.

لم يكن الوصول إلى بولاق بالهين، ولا الانتقال من الإسكندرية إليه: منها في سفينة أصغر إلى رشيد، ومن هذه إلى بولاق، على مدى أيام. كنا «نصعد» عبر النيل صوب القاهرة؛ انتقلنا من البحر الكبير إلى البحر الصغير: مثلما قال جيروم المعتاد على الانتقال في قوارب النيل هذه. تدبرَ انتقالَنا إلى بيت أهل حسين،

فيما كان ينظر بشيء من الهزء إليه: يبدو أنك أصبحتَ أجنبياً في بلدك!

لا، لم يكن حسين كذلك. إلا أنه كان خائفاً، مرتبكاً في أحسن الأحوال. بدا ذلك في كلامه المصري المتعثر، في لجوئه إلى سبحته السوداء حين رحنا نتقدم في شوارع القاهرة. كانت عيناه ترصدان كل ما يتجه صوبنا، حتى بعد أن أنهينا معاملات الوصول. لم يُجِب على أسئلة الضابط، بل أنا التي قمتُ بذلك، بحجة أنه أخرس، وأنه يعمل في خدمتي. هذا ما تدبرتُه على عجل، عندما وقفنا أمام الضابط لا نحسن جواباً عما يجمعنا. استعدتُ مقامي كابنة أحد العاملين في القنصلية الفرنسية، وشهرتُ جواز سفر: جانيت لوبرونوتييه.

أراد حسين في الطريق الاعتذار مما أصابه من تعثر. لا يعرف ما حدث له فجأة: هذا ما يحدث لي في أكثر من موقف منذ أن فقدتُ علّاقتي المعدنية بعد الاعتداء في المرفأ... هذا ما دعاني إلى الرحيل نهائياً من مرسيليا.

تأكَّدَ حسين، قبل النزول من السفينة، من لجوئي إلى الزنار الذي يخفي أموالي: من علَّمكِ هذه الطريقة؟ أجبتُه: قرأتُ عنها في كتاب (أي في دفتر أنطونيو، بعد نصيحة الشيخ الجبرتي له). كان الزنار يضايقني، بل تضايقني ثيابي التي بدت ثقيلة فوق أكتافي، عدا أنها تعيق حركتي. تأكدَ حسين قبل ذلك من وضعي المنديل الأبيض على وجهي من باب الحشمة ليس إلا، ما دام أنني فرنسية في أحوال، ومصرية في أحوال. كان الهواء حاراً، ولا يشبه أبداً هواء مرسيليا الرطب، عدا أن المشاهد غريبة، لا تشبه ما وقع عليه نظري في الكتب.

كنتُ لاهية في طريق «الصعود» إلى القاهرة، في التفكير بحكاية الكنافة وحكاية أن حسين أخرس. . . من أين أخرجتُ هذه وبلمحة بصر؟ راح حسين يضحك بدوره لما أعدتُ عليه ما كنتُ أراجعه في ظني. أأصبحتُ مؤلفة حكايات للضرورة؟

بتنا في القارب أقرب من الأرض التي نحلُّ فيها، إلا أن جمهور المسافرين زاد، كما زادت فوضاهم، كما لو أننا في سوق خضار. الروائح زادت هي الأخرى، مثلما رحتُ أتصبب عرقاً، من دون أن أتخلى عن فستاني الطويل، الثقيل. كان علينا أن نبقى متيقظين، بحسب تنبيهات حسين بطبيعة الحال، خصوصاً أن بعض من يرافقنا يشهر بندقيته ما أن يسمع صوتاً غريباً. . .

ما زاد من تعبنا هو أن الوصول إلى القاهرة بدا غريباً لحسين، إذ أمضى قسماً من الطريق وهو يراجع أحد الملاحين في القارب عن الدروب التي له أن يسلكها بمجرد وصولنا إلى المرفأ ومنه إلى بيت أهله، فيتفاجأ بأسماء شوارع لا يعرفها. هذا ما جعل الملاح يقول له مع شيء من الهزء: يبدو أنك أصبحتَ من «الأفندية»، لا من أهل البلد! نفى حسين مثل هذه الصفة التي بدت له مثل تهمة: أنا مصري، ابن مصري. . . سارعَ الملاح إلى الردِّ: لعلك لم تأتِ إلى القاهرة منذ وقت بعيد. . . مولانا محمد علي باشا أصلحَ الكثير من دروب المدينة. ضحكتُ حينها، وقلتُ لحسين: ما تعني كلمة «الأفندية» هذه؟ فأجاب: إنهم يُطلقونها على المصري المتفرنج. عندها قلتُ له: أنا من «الأفندية». . . هذه كلمة جديدة لي. دونتُها في دفتري، لكن حسين عاد وردَّ عليَّ: لا، لستِ من «الأفندية». . . من يؤلف الحكايات مثلك مصري ابن مصري، ولا يمكن أن يكون من «الأفندية».

على أي حال استعاد حسين مصريته تماماً بعد وصولنا إلى بيت جده في بولاق؛ راح يحادثني بلهجة مختلفة، آمرة بعض الشيء أحياناً. كنتُ مطيعة، ولم أنزع منديلي عن وجهي إلا بعد أن أمرني حسين بذلك: نحن مع الأهل... انزعي المنديل.

طبعاً بدَ حسين على عجل ما ظنه البعض، وهو أنني زوجته. كان له أن يتحقق في لحظات مما أصاب عائلته بعد غياب عنها زاد على خمس وعشرين سنة: جدَّتُه، التي عمَّرت أكثر من زوجها، ماتت بعد مجزرة «القلعة» بأيام... لم يبقَ في البيت سوى أخته عائشة، بعد أن فقدت زوجها، وعادت من جديد إلى بيت أهلها وهي لم ترزق بولد... أما من يدير البيت الكبير، اليوم، فهو عبد السلام، الابن البكر لأخيه البكر، الذي كان قد توفي بدوره قبل أكثر من سنتين... كما كان يعيش في البيت أخ آخر لحسين، محمود العازب.

سارعَت عائشة للاهتمام بي: هناك في بيتنا أكثر من غرفة للضيوف. الأجمل بينها ستكون تحت تصرفك. تكفلت بحمل حقيبتي إلى الغرفة، وفتَحَتها من دون أذني، إذ كانت تريد، على الرغم من تقدم سِنِّها، معرفة ما تحتويه من ملابس وزينة، طالما أنها بادرتني بالقول: أتعرفين؟ كثير من ملابس باريس يصل إلى القاهرة... المصريات يحببن ذلك، على الرغم من أنكم تجعلون للفستان فتحة فوق الصدر، ما لا تسمح بها عاداتنا. كانت تحادثني بالمصرية طبعاً، ولكن بوصفي «أفندية».

كانت دهشة عائشة فائقة حين سحبتُ من زناري عقداً فضياً وضعتُه حول عنقها... انحنَت، كادت أن تُقَبِّل يدي، لولا انتباهي لما كانت مزمعة عليه. قبَّلتني في جبيني: ستتزوج حفيدة عبد السلام قريباً... سيكون في عدة عرسها.

انقضى عيد وصولنا على عجل، على الرغم مما اكتنفَه من أحداث وقبلات وبكاء وذكريات، وانتبهتُ خلالها إلى أن عبد السلام لم يكن مرتاحاً تماماً لوصولنا المباغت. راح يساءل حسين عما فعله في مرسيليا، عما قاده إلى المجيء من جديد إلى البيت؛ فاتحَه بما أخفاه على مدى سنوات: لماذا التحقتَ ببونابرت؟ ما لنا وله!؟ هكذا كان يقول والدنا دوماً، حتى حين كنتَ لا تزال في القاهرة مع الجيش الفرنسي. . . أكان يرضيك الزي العسكري الذي كنتَ تتباهى به عند المجيء إلى البيت؟

لم ترتَح زوجة عبد السلام لحديث زوجها. ولا عائشة. لكن حسين أصرَّ على سماع حديث ابن أخيه، الذي ما لبث أن تابعه بعد أن قام من كرسيه وجلس على الكنبة بجانب حسين: أتعرف، يا عمي، أنهم راحوا يقولون عنك، بعد اختفائك، إنك متَّ؟ جدَّتي، أمُّكَ، لم تكن تُحسن تفسير سبب غيابك. كانت تبكي من دون أن تجيب.

فجأة انهمرَ عبد السلام في البكاء، فيما كنتُ أنسحب إلى غرفتي، كما لو أنني وجدتني في وضع عائلي محتقن منذ سنوات بعيدة. ما لبثتُ أن بكيتُ بدوري بعد وقت، لما سألتُ نفسي عما يقودني إلى بلبلة هدوء هذا البيت، وعما دعاني إلى اجتياز المسافات، البحر مثل الصحراء، والوصول إلى هذا البيت، لملاقاة أمي. ماذا تفعل كوليت الآن؟ ألا يكفيني حنانها وعناية ريمون بي؟ وماذا عن جوزف ميري؟ لماذا يأتي ذكره في هذا المكان البعيد؟ ما كنتُ أعلمُ في تلك اللحظة ما إذا كان مجيئي بحسين إلى أهله فتح جرحاً قديماً أم جدَّدَ ربما مشكلة تخص التَّركة.

لم أنم في تلك الليلة، إلا لماماً. وضعتُ دفتري إلى جانبي

مكان حصاني الخشبي البعيد. لم يرفعني إلى سماء خيالاته، بل كنتُ أندس في عالم غامض، معتم في هيئة تنكرية.

في الفطور اقترحَ محمود العازب أن يكون رفيق رحلتنا، مع حمار للنقل. كان قد أخبر حسين أهله بسبب مجيئي إلى القاهرة، لما انسحبتُ إلى غرفتي. هذا ما أدركتُه في عيون وحركات عائشة وعبد السلام وغيرهما إذ وجدتُني في هيئة ابنة ضائعة في الزحام.

نصحتني عائشة بالتخفيف من ملابسي. وضعَت بتصرفي ملاءة سوداء خفيفة، لما فوق فستاني، فيما استفسر محمود من حسين ومني عن وجهة السير: سنبدأ بباتريس كوست، قلتُ لهما.

لم يكن الوصول إليه بالصعب، وكان يعرف سبب مجيئي إلى القاهرة، على ما أخبره ريمون في العشاء في الفندق. كان عملياً، ما أن طلب لنا فنجان شاي، راح يبحث بين كومة الأوراق فوق مكتبه عن ورقة ما لبث أن وجدها. كان المكتب كبيراً للغاية أشبه بطاولة طعام، وهو ينتقل وراءها مثل قائد يستعرض قواته قبل مباشرة المعركة.

جلس قبالتي على كرسي ومدَّ صوبي بورقتين: هذه الورقة وثيقة رسمية تُخبر كل من يتعرض لكما أنكما تحت حماية الباشا نفسه... وهذه ورقة فيها عناوين بعض الضباط الفرنسيين المقيمين في القاهرة ممن عرفوا بونابرت وعملوا إلى جانبه... كانت دهشتي مثل دهشة حسين عظيمة بوجود مثل هؤلاء الضباط: كانوا أكثر من 300 بين ضابط وجندي حين خرج الجنرال مينو بقوات بونابرت من مصر... مات بعضهم في معارك محمد علي، ونجا البعض الآخر... هم من

دون عمل عسكري في الوقت الحالي. . . متقاعدون لكنهم يتمتعون بما جنوه من أرباح ومكاسب. استعان محمد علي ببعضهم في تدريب ابنه البكر، إبراهيم، أو في استشارات عسكرية متفرقة. . . محمد علي يعرفهم واحداً واحداً. . . إنه رجل دولة، يحكم بلاداً شاسعة، لكنه يعرِف المقربين منه معرفة الوالد لعائلته. . . بمن فيهم أنا.

لم يكن كوست يحتاج إلى سؤال لكي يروي مسار هذه العلاقة التي جمعَته بحاكم مصر. كان المهندس، قبل أن نلتقيه على العشاء في الفندق، قد عاد نهائياً من مصر بعد خمس سنوات من العمل فيها، لما بلغَته في بيته رسالة عاجلة من محمد علي تطالبه بالعودة السريعة إلى القاهرة: كيف لا ألبيها، وهذا الرجل صنع مستقبلي، وأولاني ثقة هائلة، لما كلفني بمهام الهندسة في أكثر من مشروع، فيما كنت لا أبلغ بعدُ سوى الثلاثين من عمري!؟

لم أكن معنية بقصص كوست ومحمد علي، فيما كان حسين يطرح أسئلة لا نسمعها، أو لا يبالي كوست بها. تنبَّه المهندس إلى كوننا لا نتابعه تماماً: كنتُ أنظر إليه نظرتي البلهاء حين كنت أتضايق من أمر وأخشى التعبير عنه، فأغيب عما يحيط بي وأُسقط ستاراً على سمعي قبل نظري، فيما كان حسين يريد معرفة أسماء الضباط والجنود التي حملها بين يديه من دون أن يُحسن قراءتها. استعاد كوست الورقة من حسين، وتوجه إليَّ بالقول: أنتِ تحسنين القراءة والكتابة، أليس كذلك؟ أجبتُ بإشارة من رأسي، فيما استعاد كوست حكاياته: التعلمُ يصلح في أي وقت. . . أتعلمين أنني لما التقيتُ بمحمد علي لأول مرة، في العام 1817، اكتشفتُ أنه تأخر عن موعدنا، لأنه كان يُنهي درسه في العربية والتركية؟ فما

كان من حسين أن قال بصوت قوي: لكنه استلم الحكم من دون أن يفك الحرف.

كان كوست في وضعية غريبة بالنسبة إلي: متغطرس، متشاوف، ما قد يناسب عمره المتوقد، إذ ما كان يبلغ حينها الأربعين من عمره، فيما كان يتصرف مثل «شيخ البلد»، كما يقول أهل مصر. انتحيتُ زاوية مع حسين في المكتب لكي أقرأ على مسامعه الأسماء وعناوينها. كان شديد الإصغاء، محني الرأس، من دون أن يقاطعني. عندما توقفتُ عن القراءة، ولم تكن الأسماء تتعدى العشرة، لم ينبس حسين ببنت شفة. بقي منحنياً؛ لما ناديتُه وسألته عما علينا فعله، رفعَ رأسه، ووجدته معتكر التعابير، بين أسى وغضب: أنتِ مثل ابني الذي لم أعرفه... لن أتركَكِ... لكن عليكِ الانتباه إلى كوني أعود خاسراً إلى بلدي...

لم أفهم ما كان يقول، إذ بدا لي أنه يخاطب نفسه أكثر مما يحادثني.

وضعَ كوست في تصرفنا حوذياً مجرَّباً عارفاً في أحياء القاهرة وأزقتها، ما جعلنا نعتذر من محمود الذي بدا ممتعضاً من فعلتنا. كان عازباً ومتقاعداً في الوقت عينه، ينتفع وحسب مما تركه والده بعد جدِّه من ثروة متكدسة في الدكاكين... كان معنا يدخل لأول مرة إلى مثل هذه المكاتب، التي ما كان يتجرأ حتى من الاقتراب من جدرانها. كان يُمنِّي النفس بالدخول إلى قصور ودور، إلى عالم مجهول لا يدركه أبداً في أيامه البليدة والكسولة... هذا ما قاله حسين في طريق العودة، مرتاحاً لما آلت إليه الأمور.

كان حسين يعرف عدداً من الأسماء التي أعدتُ تلاوتها عليه،

فيما كنت أستعيد كلامه الأخير، وأدقق فيه. أيكون لحسين ابن لا يعرف شيئاً عن مصيره؟ سألتُه، فأنكر ذلك فيما بدا لي أنه تحدث عنه... يبدو أن رحلتي لا تشبه رحلته.

الحوذي هو الذي قرر وجهة سير هذه العودة، إذ قرر التوقف بنا عند منزل الشيخ عبد الرحمن الجبرتي. ولما اعترضَ حسين على قراره، بحجة أن زيارة الشيخ هي الأقل فائدة لنا بين أسماء القائمتين، نزل الحوذي إلى الأرض بخفة رجل عسكري، طالباً مني النزول: الشيخ في وضع صحي سيء... قد يموت بين ليلة وضحاها... كوست طلب مني التوجه بكما إليه قبل أي زيارة أخرى.

كان الشيخ الجليل ينتظرنا منذ وقت، منذ أن أخبره كوست بقدومنا المرتقب من مرسيليا. كان ينتظرنا في أي وقت، طالما أنه مُقعد في فراشه، مثلما التقينا به بمجرد وصولنا إلى دارته. كان ينتظرنا من دون أن ينتظرنا في واقع الحال، إذ لم تَظهر عليه أي دهشة، أي رغبة في محادثتنا. كان بطيء الكلام، وقصير الأجوبة.

حفيدته تكفلَت باستقبالنا، وانتحَت بنا جانباً بعد عدة محاولات فاشلة في الكلام معه. ثم دعتنا إلى عدم سؤال جدِّها عن أمرين: محمد علي باشا، وخليل، ابنه المتوفى. لما سألتُها عن سبب ذلك امتنعَت بدورها عن الكلام. ما عرفتُه منها هو أن عمها البكر توفي قبل سنة، فيما لم تفصح عن أسباب موته... «المفاجئة»، كما قالت.

وجدتُ في معرفة كوست بالشيخ، من جهة، وفي امتناعه عن الكلام عن محمد علي باشا، من جهة أخرى، ما يثير الدهشة، ما لم يضايق الحفيدة أبداً. أخبرتنا أن الصلة موجودة بينهما، وإن كان

جدها لم يعمل على الوصل بينهما، بل جومار، العالِم الجغرافي الفرنسي، الذي رافق حملة بونابرت: كان جومار يعرف جدي ويُقدِّرُه في مناقشات كانت تجمعهما حول تاريخ مصر؛ وجومار نفسه هو الذي نصح باستقدام كوست إلى مصر للعمل في مشروعات معمارية. لم تلفظ الحفيدة اسم محمد علي، لكنها لم تنكر احتفاظ جدها بصلات مستمرة مع كوست. لا يستقبل الشيخ إلا القليل من الناس، منذ فجيعته بابنه خليل، عدا أنه فقد بصره منذ تلك الحادثة، فما عاد يُحسن القراءة، سلواه المتبقية. أما الكتابة فانقطع عنها منذ سنوات، من دون أن تتوسع الحفيدة في شرح أسباب الانقطاع هذا.

ماذا أتيتُ أفعل في هذا البيت مع مُقعَد، وصامت، وأعمى، ومتكوم في سريره!؟ أهو قادر - لو شاء فعلاً - أن يجيبني، أن يكشف الأسرار التي أُنقِّبُ عن أخبارها في دهليز مصري معتم، موصول بمرسيليا عبر البحر والبشر؟ كنتُ أحدق في الجسد الممدد على مبعدة أمتار مني، من دون أن أعلم كيف لي أن أستطلع منه ما يخفف عني عناء الرحلة. كانت قد اعتذرت الحفيدة لبعض الوقت، ثم عادت حاملة كتاباً وعدداً من الكراريس. الكتاب هو تاريخ حملة بونابرت، كما كتبه جدُّها، بعد أن طبعه أحد الوزراء العثمانيين في إستانبول في العام 1807: هذه النسخة لكِ... طلبَ مني الشيخ تسليمها لك عند زيارتك لنا. أما الكراريس فهي بخطِّ يده... لا تخرج من البيت أبداً. في إمكانك الاطِّلاع عليها، إن شئتِ، إلا أنها قد تكون صعبة القراءة لك... فيها أخبار وسِيَر عاد إليها أحياناً في كتابه المطبوع: كان يعاين ويشارك أحياناً في الأحداث التي يكتب عنها؛ أو كان يسأل عنها لكي يدوِّنها. أتعلمين أنه كان ينتقل إلى المقابر لتسجيل ما يجده فوق شواهد القبور عن المتوفين من العلماء

والأدباء؟ أتعلمين أنه كان ينتقل إلى بيوت ذويهم للاطّلاع على سِيَرهم وعلى كراريسهم، مثلما تفعلين اليوم بنفسك؟

تذكرتُ حينها لويس ميري في المكتبة، والخوري طويل في مكتبه، لكنني لم أكن دارسة أو باحثة مثلما يوحي به كلام الحفيدة. حملتُ كتاب الشيخ مثل فرض مدرسي، ووعدتُها بالمجيء على الأرجح إلى بيته لاستفساره في أمور وأمور.

عدتُ إلى البيت خائبة. عدتُ إلى غرفتي بصحبة كتاب وغبار؛ عدتُ من دون الحشرات التي وقاني منها منديلي الأبيض على وجهي. عدتُ لكي أبكي من جراء ما أقدمتُ عليه. كانوا يستجيبون لما كان يبدو مثل رغبة ملحة لدي، لكنهم كانوا يدركون - على الأقل السيد ريمون - أنني مراهقة وعاطفية، وأنني لست مجربة في الحياة، فكيف أن أستخرج سيرة والدتي من هذا البلد الصعب، ومن أفواه من لا يحسنون الكلام الصريح!؟

لم يمضِ على وصولي سوى يومين، ومع ذلك رحت أفكر في العودة من جديد إلى مرسيليا. معرفَتي بأمي، وإن بشكل طفولي، لا تتعدى لحظات معدودة، مع أنني كنتُ إلى جانبها في الغالب: لا تتخلى عني أينما كانت. تكون على مبعدة مني، في مطبخ الفندق، على سبيل المثال، فيما أنتظرها في غرفة كوليت. أو تكون في بيت السيدة جولي، في التنظيف، فيما تُجلسني على الكرسي الخشبي الصغير في الصالون. . . كنتُ إلى جانبها، لكنها لم تكن معي. حتى في سريرها، كنتُ أنام إلى جانبها، فيما تدير لي ظهرها. ما لم أقله لحسين، ولا لغيره قبل ذلك، هو أن حديثي عن الكنافة لم يكن مفاجئاً: هي الحلوى التي كانت تُحسن صنعها؛ ولما كانت تسعى

إلى مراضاتي، كانت تَعِدني بها. الغريب هو أنني أبحث عنها، فيما لا أطرح سؤالاً عن أبي، هو الذي لم أعرفه أبداً، ولم أعتَد على وجوده قط. كان غائباً، من دون أن أشعر بذلك. كانت أمي معي من دون أن تكفيني. كانت بجانبي، لكنني كنت أبحث عنها.

يشعر حسين بخيبتي، لكنه لا يُحسن التعبير عنها. راح يردد أمامي، فيما كان يروي لعائشة في واقع الأمر، بعد أن أتى بها إلى غرفتي: هل نقوم باستنطاق شيخ عما لا يعرف، فضلاً عن أنه معقود اللسان!؟ استعاد حسين رواية ما جرى لنا منذ خروجنا الصباحي، منذ افتراق محمود عنا: لم يبادلنا الشيخ أي كلمة، سوى عبارات المجاملة. أما حفيدته فكانت غائبة بدورها عنا... كانت تنفذ ما سبق له أن طالبَها به عند زيارتنا له... استَقبلَنا لكي يَفي بطلب كوست.

لم يكن كلام حسين مقنعاً، عدا أنه أعادني إلى سؤال بسيط، وهو أن كوست مثل الشيخ الضرير يقومان بتلبية طلب مراهقة مثلي من دون مقابل، من دون أي إلزام. وهو ما أيدتني فيه عائشة: لنا، نحن، أن نعرف ماذا نريد. قالت عائشة جملتها كما لو أنها كوليت. فعلاً، لي أنا أن أعرف ما أريد، وعما أريد أن أبحث. لي أن أضع أسماء، وأبحث عن عناوينها، بمساعدة كوست وجنود بونابرت المتبقين وربما الشيخ المُقعد نفسه.

استعاد حسين كلامه الحماسي والغاضب: كان لنا أن نبدأ بالضباط والجنود الفرنسيين، فأنا أعرف اثنين أو ثلاثة منهم: بيار غاري، ومسيو جان على الأقل.

وجدتُ الحل. سأبقى في غرفتي، سأقرأ كتاب الجبرتي،

وأستخرج منه أسماء ومعلومات، ثم نضع خطة الزيارات بعد ذلك. سأقرأ كتابه مثل رواية، باحثة فيها عما جعل حادثة أمي تحصل. سأقرأه مثل رواية بوليسية محتملة، مثل قصص المغامرات والفروسية. هذا يسلي. هذا ما قد يجعل الشيخ المتكتم على أسراره ينتفض، أو يشارك على الأقل في «التحقيق».

لم يكن غريباً على بونابرت أن يقع على طباخة ماهرة، مثل أمي، في بيوت القاهرة. أو أن يطلب خدمتها عندما كان يستقبل أعيان البلد، مثلما قرأتُ عنه في هذا الكتاب النفيس. لم يكن غريباً عليه أن يتعرَّف إلى طبخها، أو أن يتذوق كنافتها في بيت الشرقاوي أو في بيت السادات، ما دام أنه أكل عندهما أكثر من مرة، مع الجنرال كليبير وحاشيته من دون شك. لم يكن غريباً على بونابرت الإتيان بأكثر من خادمة له في قصر محمد بك الألفي، حيث استطاب السكن، وجعله مقر قيادته، أو إلى دار إبراهيم كتخدا السناري، حيث جعل إقامة مصوري الحملة وعلمائها. أو إلى قصر حسن كاشف جركس، مقر الفلكيين والمهندسين، علماء حملته ومرافقيه. أو إلى قصر مراد بك في الجيزة، حيث أقام معسكراً لقواته. أو إلى دار عثمان بك الأشقر، التي جعلها مطبعة «جيش الشرق»، والتي كان يحلو له فيها تفقد أعمال المستشرق مارسيل. أو إلى بيت كاشف الكبير في حي عابدين، حيث جعل إقامة عالم الكيمياء برتوليه.

هكذا، بفعل القراءة، لم تعد بيوت القاهرة مقفرة، ولا خالية، بل راحت تعج بالحياة، بأناس راحوا يتكلمون ويأكلون ويتسامرون، فيما تعمل النسوة في خدمتهم، في المطابخ، فوق الموائد العامرة. لم تعد البيوت صامتة، بل باتت تشهد حركات منسَّقة، تتوزع بين

أصوات الطناجر والصحون، من دون أن يصدر أي صوت عن النسوة الساكتات، اللواتي قد يفزن بعبارة طيبة من سيدة الدار المحتجبة عن ضيوفها، أو من ضابط الحماية مع بونابرت.

من المؤكد أن بونابرت طلب خدماً من مصر، فضلاً عن طباخي الأكل الفرنسي، بدليل أن الجبرتي يصف مشهداً مؤسفاً لأكله، في بدايات الحملة: كان مع بونابرت من الأكل في هذه السفرة في السويس ثلاثة طيور دجاج محمرة ملفوفة في ورق، وليس معه طباخ ولا فراش ولا فرش ولا خيمة. وكان لكل شخص من معسكره رغيف كبير في طرف حربته يتزود منه، وكان يشرب الماء من زمزمية كانت في عهدة سقاء.

لم يكن لديه الوقت في الصحراء، أثناء المعارك، لكي يبسط مائدة لأكله، من دون شك، عدا أنه كان يستعجل في كل شيء، مثلما قرأتُ عنه في كتاب في مرسيليا. إلا أنه وجد بعد ذلك بعض الوقت لكي يجعل من موائده مناسبة لاستكمال ما تفعله معاركه، أي السياسة، ولا سيما مع أهل البلد النافذين. هذا ما فعلَه بونابرت، وهو ما فعله الأعيان بدورهم، بدليل المأدبة الفاخرة التي أقامها الشيخ خليل البكري له، بحسب الجبرتي: دعا الشيخ خليل البكري في عيد المولد النبوي، في الأزبكية، الجنرال الكبير إلى عشاء، مع جماعة من أعيانه، وجعلوا المدافع والزينة حول بركة الأزبكية. ونادوا بفتح الأسواق والدكاكين ليلاً، وإشعال القناديل وإظهار بهجة المهرجان: أكانت تعمل آمنة عند الشيخ البكري أم أتوا بها إلى هذا العشاء بالذات، فأعجب البكري أو بونابرت أو الواحد بعد الآخر بما صنعته؟

ضحكتُ مما كتبتُ. فيه ربما خيوط مناسبة، لكنها لم تنعقد من دون شك مثلما أوحَت به كلماتي. أكتب فيما أحلم. أكتبُ وفق ما سبق أن عرفت في مرسيليا، لا في القاهرة. كتبتُ كما لو أن بونابرت دعا إلى مآدبه مثلما يدعو السيد ريمون إلى فندقه، أي مثلما فعل أكثر من مرة مع والدتي لما دعاها إلى إعداد مآكل مصرية، بناء على طلب بعض نزلاء الفندق. ووجدتُ في سلوك الأعيان، كما رسمتُها، ما يصلح في سلوكات النبلاء الفرنسيين، حيث تستحسن إحدى النبيلات أحد الأطباق فتطلب من ربة البيت التعرُّف إلى الطباخة... ما كان لهذا أن يحصل في القاهرة، لا لبونابرت العجول، ولا لأعيان البلد الخائفين منه من دون شك.

أفتشُ في كتاب الجبرتي عما لا يقوله صراحة، فيما أتناسى حسين، رفيق الرحلة. قليل الكلام، صعب الكلام، حتى إن أراد. إلا أنه بات يُرخي بعض الجُمل التي ما كان ليقولها في ظني هناك. لم أنجح في مفاتحته بالحديث عن ابنه الغائب. كان يمتنع حتى عن مجرد المحادثة، ولا يفسر لعائشة سبب ابتعاده عن العائلة، ولا سبب ظهوره المفاجئ. لم يكن له معها، أمام إلحاحها، سوى جواب أخير ووحيد: أتريدين مني ترك البيت من جديد؟

عرفتُ بعد خروج عائشة من الغرفة، أنه كان يريد الاستمرار في التخفي، ما دام أنه يعود إلى البيت من دون زاد، من دون هدية حتى. عاد خائباً وكسيراً، مكتفياً بقرار السلطات الفرنسية الملكية الذي قضى بتشجيع عودة المصريين إلى ديارهم مقابل سنة إعاشة بكاملها. عاد من دون أن تضاف إلى خدماته العسكرية السابقة أي رتبة، أي ميدالية، إذ إنه عمل في «جيش الشرق»، في القوات الخلفية، في تأمين المؤن الغذائية: خضتُ أكثر من معركة ولكن عند

الضرورة، في الطرق الواصلة بين الإسكندرية والقاهرة. . . طلبوا مني في أكثر من مرة التقدم أمام القوات عند الدخول إلى قرية، إلى موقع، داعياً إلى استسلام المصريين المحاصَرين. . . كنتُ في الإسكندرية عند وصول قواتهم. كنتُ انتقلتُ إليها منذ شهرين، ملاحقاً أثيوبية وعدَتني بالزواج منها إن انتقلتُ معها إلى هناك. . . كانت تحبني؛ كانت تنظر إليَّ بعينين منبهرتين كما لو أنها تنظر إلى عملاق خارج من فانوس علاء الدين السحري. . . هي التي شجعتني على الانتساب إلى جيش بونابرت، بعد أن جرى تجنيدها للعناية الصحية بجرحاهم. . . لم تكن تعرف شيئاً عن المعالجات، واكتفت بما شرحه لها أحد الأطباء وما علَّمها إياه من أعمال. وجدَت فاطمة - هذا اسمها - نفسها في ثوب أبيض كانت تحرص على غسله يوماً بعد يوم، قبل أن يمدُّوها بثوب أبيض آخر. . . اقتنعتُ بما قالته فاطمة. طلبتُ تجنيدي، لكنهم وجدوا أنني غير صالح للأعمال العسكرية، بحجة أنني سمين، ولا أقوى على الركض.

كان حسين يذهب إلى الجبهة، إلى مقر المؤن، في النهار، ويعود إلى بيتها في المساء. لكنه اضطر بعد أكثر من شهرين إلى اللحاق بالقوات في تقدمها، ما جعله يغيب عنها، ثم يعود إليها عندما تتوافر الفرص. وزاد من حماسه، ومن تعلقه بها، أنها حملت منه، ووضعت ابناً: مصطفى. لكنه لن يلقاه، ولن يلقاها في بيتها عندما يعود، بعد أن اضطر للغياب أكثر من ثلاثة شهور في القاهرة من دون زيارة واحدة: لعلها يئسَت مني، من كوني لن أكون إلى جانبها. . . لعلها ماتت. . . لعل ابني مات. . . سعيتُ إلى معرفة مصيرهما من دون جدوى.

بكى حسين لما بلغت الحكاية هذه الحال. لم أحسن قول

شيء؛ بدت حكايته أصعب من حكايتي بكثير: أفكر فيه وفيها دوماً. . . أتمنى ألا يكون أصابهما ما قاله لي أحد جيرانها ذات يوم، وهو أنه جرى الاعتداء عليها من قبل أحد جنود المماليك بدعوى أنها «خائنة».

الغريب هو أن حسين لا يتذكر أمي فوق السفينة التي أقلَّت المصريين إلى مرسيليا. تعرَّف إليها بالصدفة، لما اعتاد على زيارة مارلين، جارتنا قرب «ساحة كاستيلان». هذا ما قاله لها حسين في أحد الأيام، من دون أن تجيب. الأكيد هو أنها تخفي سراً أو أكثر. اختفت، واختفت معها أسرارها. اختفى بونابرت بدوره، هو الذي جمع هؤلاء الأشخاص بعضهم ببعض، وعقدَ مصائرهم، فتعارفوا فيما كانوا يفترقون، وتحابُّوا ربما فيما كان العالم لا يسع مثل هذا الحب.

وهو أيضاً الذي باعدَ بيني وبين أمي بعد أن جمعنا في مرسيليا. هو الذي أخفى عني وجه أبي من دون شك. هذا الخوف يربط الألسنة. ربطَ لساني لما أخفيتُ في الميتم أسراراً عن المدير والراهبة. لم أبُح بها، عندما سألتني الراهبة عن اختبائي في الفندق. لم أقُل لها يومها أن آمنة تركتني أمام بوابة الفندق، وأنها ستعود. لو قلتُ لها هذا يومها لكانت قالت: أيُعقل أنه مضى كل ذلك الوقت من دون أن تعود؟ مضَت شهور قبل أن تحملكِ الشرطة إلينا، ولم تعُد أمك إلى حيث تخلَّتْ عنك. . . أهذه أمٌّ صالحة؟! لم أكن أحسن الكلام، إلا أنني كنت أعلم أن أمي كانت تحبني. . . لا يُعقل أنها تخلت عني. . . تركتني في أيدٍ أمينة، في اليوم الذي جرى فيه قتل وتعذيب من وقفوا إلى جانب نابوليون. أمي كانت من هؤلاء.

أهي كانت تفهم في السياسة لكي تقتنع بما كان يدعو إليه؟ لا، من دون شك. ألا تكون - لسبب أجهله - اضطُرت للالتحاق به حتى النهاية، وبعد فوات الأوان؟

حسين لم يقوَ حتى على العودة إلى الوراء، على العودة إلى أهله. كان في إمكانه أن يعود، ولو من دون فاطمة وابنه. لكنه لم يعُد. وَجد نفسه يقوم بأعمال لا عهد له بها، ولو كانت بسيطة. بات يحلم ولو لم يكن فارساً، ولا ضابطاً، في معركة مشهودة. بات يسمع من ضباطه أخبار المعارك. بات يصله أحياناً دوي المدافع. . .

أنا حائرة مثله. أنا حائرة مثلها، لما اضطُرت إلى اتخاذ قرار سريع في شأني عند بلوغ أخبار «المجزرة» إليها. لم تتركني في البيت أصرخ. حملتني مع كيسَيها، وركضت بي. كان «شارع روما» قصيراً في ذلك اليوم. تركتني أمام بوابة الفندق بدل أن تنادي كوليت أو السيد ريمون. كانت تحتاج إلى الوقت. ربما لدقائق أو ثوانٍ معدودة، لكي تحميني مما كان يتهددها ويتهددني.

لهذا لا أتحدث عن والدي. لهذا أتحدث عن حبها. لهذا أتيتُ مثل بلهاء أبحث عنها في شوارع القاهرة. أقف أمام بوابة مصر، «أم الدنيا»، كما يقولون عنها، لعلي أعثر عليها، على سيرتها، على ما أخافَها.

لعلي - لو وجدتُ ما يفسر سيرتها - أخفف عنها الهلع الذي استبدَّ بها، حين وضعتني على رصيف العالم، ومضَت. عدتُ، سافرتُ برضاي، لكي أقول لها إنني أدرج فوق بلاطات الحياة من دون خوف.

وجدتُ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي صامتاً في سريره. أيُعقل

أنه بات أخرس بعد تسويد آلاف الأوراق في مئات الكراريس، كما رأيتُ؟ لعله خاف هو الآخر. لعله لم يهرب، لكنه صمت. لم يرضخ لمن هددوه، لكنه صمتَ. كان في إمكانه أن يكتب مزيداً من الأوراق: لماذا توقف؟ ممَّ يخاف، والوزير العثماني طبعَ كتابه؟ كان ذلك منذ سنوات بعيدة، حسبما أخبرتني حفيدته.

بدوري خفتُ، أثناء قراءة كتابه، على الرغم من برودة جمله، وهو يتحدث عن القتل والخراب والدماء.

خلتُ نفسي، خلتُ أمي في وضعية ابنة الشيخ خليل البكري. هكذا يتحدث عنها الجبرتي في كتابه: طُلبت ابنة الشيخ البكري، وكانت ممن تبرج مع الفرنسيس، فحضروا إلى دار أمها بالجودرية بعد المغرب، وأحضروها ووالدها، فسألوها عما كانت تفعله، فقالت: إنني تبتُ من ذلك. قالوا لوالدها: ما تقول أنتَ؟ أقول إنني بريء منها، فكسروا رقبتها. وكذلك المرأة التي تُسمّى هوا، التي كانت تزوجت نقولا القبطان، ثم أقامت في القلعة وهربت بمتاعها، وطلبها الفرنساوية، وفتشَ عليها عبد العال وهجم بسببها أماكن عدة... عندما دخل المسلمون، وحضر زوجها مع من حضر، وهو إسماعيل كاشف، المعروف بالشامي، أمَّنها وطمَّنها، وأقامت معه أياماً، فاستأذن الوزير في قتلها، فأذنه. فخنقها في ذلك اليوم أيضاً، ومعها جاريتها البيضاء، أم ولده. وقتلوا أيضاً امرأتين من أشباههن.

هنا أيضاً نظَّموا «مجزرة»... بحقِّ النساء خصوصاً. أهربَت أمي بسرعة مخافة أن يلحقها أذى بعد أن «تبرجت» للفرنسيين؟ ألهذا التحقَت بسفنهم المغادرة إلى مرسيليا؟ ما الذي جعلها «تتبرج» لهم؟ أفتنَها أحد الجنود؟ أحد الضباط؟ أفتنَها بونابرت نفسه؟ كيف لهم أن يُفتتنوا بها، وهي طباخة؟ أم تكون هي التي فتنَتهم بكنافتها، وربما

بجمالها أيضاً، فربطوها بهم، من دون أن تقوى فكاكاً عنهم؟ ألا تكون حلمت بدورها مثلما حلمَ حسين؟

ربما حدث هذا في لحظة غير محسوبة في الزمن، مثل رصاصة طائشة لكنها تصيب، فيما يكون الجندي، أو الضابط، أو بونابرت نفسه، يطلق رصاصة في الهواء ابتهاجاً أو امتعاضاً. ربما حدث هذا لما أخطأ الجندي، أو الضابط، أو بونابرت نفسه، في تنقله في الدار الواسعة، فبدل أن يدخل إلى الحمام الرجالي، دخل إلى غرفة المؤن، ووجدها هناك، ربما من دون حجابها... لعله سرق منها أكثر من قبلة، ولم يكتفِ بواحدة مثل جوزف في «شارع روما» بمرسيليا... لعله طلب أكثر... أكان في مقدورها الصراخ؟ أكان في مقدورها اتهامه بعد انقضاء فعلته؟ أما كانوا سيقولون لها - لو ثبتَ أنه هو الذي تعدى عليها - إنها أثارت الفتنة فيه؟ ربما حدث هذا لما استعذب ساري عسكر الكبير - كما يسميه الجبرتي - تذوق الكنافة لأول مرة في القاهرة... لعله سأل الشيخ، أو البيك، عن طابختها... ماذا لو طلب من الشيخ أو البيك خدمة الطباخة في قصره، عندما يقرر دعوة الأعيان أو أعضاء «الديوان» إلى عشاء؟ أكان في إمكان الشيخ أو البيك عدم الرضوخ لطلبه؟

كنتُ أراجع هذه الأسئلة التي دونتُها في دفتري، في انتظار انتهاء الشيخ الجليل من صلاة المغرب. ثم أخذتني الذاكرة إلى مرسيليا، حين دعتني كوليت إلى نزهة، في «سوق لازار» التجاري، وتعرفتُ على محفورات طباعية عن المدن. كانت الصور ثابتة، متتابعة، وفق الحركة التي أشاء. ماذا لو يتمُّ تسريعها؟ ألا يكون هذا ما أفعله بما تخيلتُه من صور في كتاب الجبرتي؟

لم أحسن، اليوم، قولَ ما أريد لعائشة، وقد خافت من بقائي

المديد في الغرفة. ما كفاها حديثي عن لزوم الانتهاء من قراءة الكتاب الذي كنتُ قد أنهيتُ قراءته بصعوبة. إلا أنني قرأته في صورة أفضل في المرة الثانية، ونقلتُ منه أسماء عديدة مما يمكن سؤال الشيخ الجبرتي عنه. وغيره أيضاً.

لم أقوَ على قراءة بعض ما قرأت لعائشة، مثل هذا المقطع: «ومنها تبرج النساء، وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء. وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر، ومع البعض منهم نساؤهم، كانوا يمشون في الشوارع مع نسائهم، وهن حاسرات الوجوه، لابسات الفساتين والمناديل الحرير الملونة، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميري والمزركشات المصبوغة، ويركبن الخيول والحمير، ويسوقونها سوقاً عنيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهم وخرافيش العامة. فمالت إليهم نفوس أهل الهوا من النساء الأسافل والفواحش. فتداخلن معهم لخضوعهم للنساء وبذل الأموال لهن. وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض احتشام وخشية عار ومبالغة في إخفائه. فلما وقعَت الفتنة الأخيرة بمصر، وحاربت الفرنسيس بولاق، وفتكوا في أهلها، وغنموا أموالها، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات صرن مأسورات عندهم، فربوهن بزي نسائهم، وأجبروهن على طريقتهم في كامل الأحوال. فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر (. . .). وخطبَ الكثير منهم بنات الأعيان وتزوجوهم رغبة في سلطانهم ونوالهم (. . .). وتمشي المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها وأمامها القواسة والخدم، وبأيديهم العصي، يفرجون لهن الناس مثل ما يمر الحاكم ويأمرن وينهين في الأحكام».

كما يكمل الجبرتي وصف المشهد: «ومنها أنه لما أوفى النيل أذرعه، ودخل الماء إلى الخليج، وجرت فيه السفن، وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن في المراكب والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في ضوء الفوانيس والشموع الموقدة، وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة، وصحبتهم آلات الطرب، وملاحو السفن يكثرون من الهزل والمجون، ويتجاوَبون برفع الصوت في تحريك المجاذيف، وخصوصاً إذا دبت الحشيشة في رؤوسهم، وتحكمت في عقولهم، فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم وتقليد كلامهم.

وأما الجواري السود فإنهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى، ذهبن إليهم أفواجاً، فُرادى وأزواجاً، فنططن الحيطان، وتسلقن إليهم من الطبقات، ودلوهم على مخبَّآت أسيادهم وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك».

شدَّدتُ في مقطع الجبرتي الطويل على العبارة التالية: «رغبة القوم في مطلق الأنثى»، من دون أن أفهم معناها تماماً. أأسأل الشيخ عنها أم حفيدته أم عائشة؟

كان الشيخ الجبرتي كما تركناه قبل أيام: ممدداً وصامتاً.

اعتذرَت عنه حفيدته: حاله اليوم أفضل. ثم سمعتُ صوته يقول بالأجنبية: أنا «بونو» اليوم، أي في حال جيدة. لم يكن الشيخ يعرف الفرنسية، بل بعض الكلمات، مثل: «بونو» و«السِيتْوَيان» (أي «المواطن»). هذا ما قاله بنفسه لي، لما اقتعدَ كرسياً مقابلي، بعد عودته من صلاته.

أخبرتُه عن أنطونيو، بداية. شكرني، وذكر لي أنه يتذكره أحياناً. منه تعلم ألفاظاً فرنسية وإيطالية خصوصاً، ما نساه اليوم لقلة العادة ولعدم الحاجة. سألته عن الزنار، فأخبرني أنه نصح به أنطونيو لما تعرض لسرقة في وضح النهار، بعد أن دخل إلى أحد المقاهي في القاهرة لسماع غناء إحدى المغنيات، التي ما لبث أن اكتشف أنها رجل مخنث: كنت ألتقيه أثناء اجتماعات «الديوان»، وبعدها خصوصاً... كانت نقاشاتنا ظريفة، كنا نصعد إلى سطح البناء، مع صديقنا الشيخ اسماعيل الخشاب... كنا نتناقش ونسعى إلى أن نتفاهم... كنا نظن أننا تفاهمنا... في أكثر من مرة شرح لي معنى كلمة: «سِيتْوَيَان» من دون أن أفهمها تماماً. أظن أنها تعاكس معنى كلمة «رعية» في لغتنا وبلادنا. كان في ودّي سؤاله عن: نوال، وعن حَمَامها، لكنني امتنعتُ، فاكتفيتُ بالقول: كان يهوى الحمام ويحدثنا عنه، ولا يجده في باريس أو مرسيليا. ما عنى هذا الكلام شيئاً للشيخ الضرير، فأكملتُ حديثي عنه بالقول: لقد هاجر إلى أميركا... يعتقد أن «الثورة» انتقلَت إليها.

سألني عن بونابرت، فأخبرته بموته: إنه لأمر غريب... لم يصلني هذا الخبر، بينما وصلني في السابق خبر نفيه إلى جزيرة ألب.

أخبرتُه عن أمي، باختصار بالطبع، من دون أن أدخل في تفاصيل الحكاية. سألتُه ما إذا كان عرفها، أو سمعَ عنها. سكت، بل أطرق برأسه، مستنداً في صورة مزيدة على عكازه الخشبي: هذا امتحان صعب، يا ابنتي... هذا صعب لك، أن تأتي من مرسيليا إلى هنا بعد خمس وعشرين سنة للبحث عنها.

سألني عن اسم قريتها، عن اسم أبيها، عن مكان سكنها، فلم

أُجب. أخبرته عندها أنها طباخة على الأرجح، ولعلها عملت في مطبخ بونابرت: لا، هذا صعب، يا ابنتي. لم يكن لبونابرت مطبخ وطباخون. كان يقيم، عندما يكون في القاهرة، في قصر الألفي، في الأزبكية، لكنه لم يكن بيته. كان قليل النوم، على ما قيل لي. كان يقيم فيه مثلما يقيم في خيمته العسكرية أثناء المعارك. وعندما أخبرتُ الشيخ عن ولع بونابرت بالكنافة، سألني من دون أن يرفع رأسه عن عكازه: من أخبركِ بهذا؟ لم أجبه إن هذا من صنع خيالي، من كوني كنتُ أحب الكنافة التي كانت تُعدُّها أمي، فذكرتُ أنطونيو: بلى، هذا صحيح... هذا ما كان يعرفه قلة من المحيطين به... ما كانوا يصرحون أبداً بما يحبه من الأكل. كانوا يُعدون أطباقاً كثيرة في مآدبه، من دون أن يعرفوا أي المآكل يُقبل عليها... كان يخشى السمَّ في الأكل، على ما قيل لي.

لعلها عملَت في مطبخه لبعض الوقت، لبعض المآدب: هذا ممكن، يا ابنتي. لكن هذا يعني قبل أي شيء آخر، أنها كانت تعمل في مطبخ الألفي، أو الشيخ خليل البكري، أو ربما في مطبخ الست زبيدة... ففي بيوت هؤلاء خدم وطباخات ممن يصلحون للخدمة في مقر بونابرت عند الحاجة.

– من تكون الست زبيدة؟

– ألا تعرفينها؟ إنها زوجة الجنرال مينو، وفي بيتها خدم كثيرون وطابخات ماهرات... في بيتها، على مائدتها، ذقتُ كنافة طيبة.

الفصل السابع

لما أعدَّت آمنة الكنافة لبونابرت

كنتُ قد اعتدتُ الوصول إلى دار الشيخ الجبرتي من دون رفيق أو دليل. حسين يبقى معي في جميع الأحوال مخافة التعرض لي في الأزقة خصوصاً: أنتِ مصرية، يا نور، لكنك تبدين للمارة من «الأفندية». . . هذا ما أشعر به بنفسي. هذا ما تقوله عائشة عنك.

علَّمني حسين كيف أحفظ مسار الانتقال، ما دام أن القاهرة لا تحفل بأسماء للشوارع، وأرقام للبنايات والمحال والمباني، مثل مرسيليا. فقط هناك عدد من «الأبواب» فيها، كما لو أن القاهرة الكبيرة، المتسعة، بيتٌ وحسب، يضمُّ عائلة واحدة، وللبيت أبواب عدة.

ما كنت أشعر بأنني مصرية. ما كنتُ أجمع نفسي معهم في الحديث، بل كنت أقصد الفرنسيين (بمن فيهم أنا) حين أقول: نحن، وكنت أقصد المصريين وغيرهم من دوني حين أتحدث عن: «أنتم». كيف لا، وقد كان عليَّ أن أتعلم ما يجب فعله وقوله قبل أن أفعله أو أقوله؟ كان عليَّ أن أقبل أو أرفض، فيما أجدهم يَقبلون، أو قبلوا منذ زمان، ما يقولون وما يفعلون.

لهذا رفضتُ ركوب الحمار في تنقلاتنا. هذا ما وضعَه عبد السلام بتصرفي، في إشارة محبة لي. كان علي أن أركب على

الحمار، فيما يمشي حسين وهو يجرُّه خلفه. هذا ما فعلتُه للحظات في يوم انتقالنا الأول للقاء كوست، لكنني نزلتُ عن الحمار، وراح حسين يقوده خلفنا. كدت أضحك من نفسي لما وجدتني فوق الحمار، إذ تذكرتُ حصاني الخشبي، فيما لم أركب أي حصان في حياتي، مثلما ألقى بعضهم أحياناً في مرسيليا، وكثيراً في شوارع القاهرة للفرسان. وكان حسين قد أعدَّ لي مظلة لاتِّقاء شمس القاهرة الحارقة.

كان التنقل صعباً بأي حال، ونبلع الرمل أحياناً فيما نتنفس. أما الأزقة فمحفَّرة، وموحلة أحياناً، ما يجعل أسفل ثيابنا متسخاً في صورة أكيدة. فقط بعض الشوارع كان مبلطاً مثل «شارع الكانوبيير»... إلا أننا كنا نتوقف أحياناً طلباً للراحة عند سبيل ماء، أو في فناء أحد المساجد... مع ذلك انتقلتُ بيسر، من دون أن يتحرش بي أحد أو يعتدي علي، ذلك أن حسين كان يخيف من دون شك أي متسلل أو مندس. إلا أننا كنا نتلامس من دون قصد. كانت أجسادنا تتلاقى وتتلامس بمجرد عبورنا جنباً إلى جنب في تلك الأحياء. هذا ما عرفتُه في سوق «سان-لازار» التجاري في مرسيليا، أو في سوق الخضار خلف الفندق، عندما أنتقلُ إليه أحياناً للتبضع. أما في القاهرة فهو لازمٌ، فلا يكفي سماع العبارة: «عفواً»، «بالإذن»، أو «دستور»... بل القول بعد الوصول: «والحمد لله». لا يسعنا أبداً تقدير الوقت اللازم للانتقال، إذ اختلف معنا في كل مرة، ما دام أننا نتوقف أحياناً في الطريق لمشاورة أحدهم في أمر، أو لسؤاله عن عنوان. الطريق حكاية متنقلة...

أكتبُ في مقهى، بعد خروجنا من بيت الشيخ. اعترضَ حسين على ذلك، ما دام أن المقاهي ليست مناسبة للنساء الرصينات مثلي.

لكنني كنت مرتاحة اليوم. ربما لأول مرة. أمسكتُ في نقاشي الأخير مع الشيخ بخيط قد يدلني إلى أمي. ارتاحَ حسين لكلامي، حين أخبرتُه أنني أكتب لكوليت. لكنه قال: أنا أرتاح دوماً عندما أجدُك تكتبين. . .

لكنني كنتُ أكتب واقعاً: بات في مقدوري السؤال عن: آمنة المنصوري، الطباخة في بيت الست زبيدة، زوجة الجنرال مينو.

الشيخ الجبرتي لم يعد مريضاً. كان ينتظرني جالساً على كرسيه، لما وصلتُ إلى الدار الكبيرة. كان أحد الشبان يجلس بجانبه، ويفحص أوراقاً ودفاتر موزعة أمامهما فوق طاولة مستطيلة وطويلة؛ وما أن يُخرج الشاب كراساً حتى أرى الرمل يتساقط منه: يقرأ الشاب عنوان الورقة على مسامع الشيخ، ثم يضعها جانباً، أو يعيدها إلى صندوق خشبي موضوع في أسفل الطاولة. إنه كاتب الشيخ ومحرر رسائله منذ أن أصابه العمى، كما أخبرتني حفيدته.

ما أن علم الشيخ بوجودي، دعا الكاتب إلى التوقف، وإعادة الصندوق إلى مكتبته. ثم سألني - من دون أن أعلم مغزى سؤاله - ما إذا كنتُ أحسن قراءة الفرنسية والترجمة منها إلى العربية، فيما كنت أتساءل، أمام حيويته الظاهرة، ما إذا كان قد تظاهر بالمرض لما زرتُه لأول مرة: أكان يتأكد من سلامة نواياي؟

وصلتُ إليه من دون خطة. من دون عناوين إضافية. حتى الأسماء التي كتبتُها على ورقة، في مرسيليا أو في القاهرة، لم أعُد إليها من جديد: أأذهبُ إلى الشرطة لسؤالها عن آمنة المنصوري؟ ضحك الشيخ، وراح يشرح لي أن الجنرال مينو، حاكم مصر الفرنسي الأخير، وضع سجلاً للمواليد وآخر للمتوفين، من دون أن

يتقيدوا بهما. . . نظمَ الضرائب، وطلبَ من ملتزمي الميرة و«شيوخ البلد» وضعَ قوائم بأسماء المتوجب عليهم دفع الضرائب، إلا أن هذه القوائم - لو وُضع بعضها على الأقل - ضاعت بعد ذلك: بات يكفيهم، اليوم، النزول إلى قرية، أو إلى حي، وتطويقهما، وإجبار الناس على دفع المتوجب عليهم تحت الضغط والتهديد. . .

كانت نبرته مُرَّة، قاسية، فيما كان يريد أن يقول لي إن البحث عن والدتي مستحيل بالعودة إلى السجلات الرسمية:

- ماذا لو أنتقلُ إلى قرية أمي؟ أتكون من المنصورة؟ لعلي أجد فيها أحداً من عائلتها. أليس كذلك؟

- لا فائدة من الذهاب إلى المنصورة، لأن اسمها العائلي: المنصوري، يعني أن أهلها ما عادوا يعيشون في المنصورة بل في غيرها، بدليل أنهم باتوا يُنسبون إليها.

راح الشيخ يتساءل، وهو يحادثني: ألا يكون هو اسم عائلتها بعد أن توطنت في القاهرة؟ لكِ أن تعرفي، يا ابنتي، أننا، نحن المصريين، لما نريد الحديث عن القاهرة، نسميها: مصر. . . وعندما نريد المجيء إلى القاهرة، نقول: نحن نازلون إلى مصر. . . نحن ننزل إلى القاهرة مثلما النيل ينزل إليها. . . هذا ما فعلَته عائلتي منذ أزمنة بعيدة عندما أتت من الحبشة. وهو ما أعرفه عن عائلات كثيرة.

استأذنني الشيخ لأداء صلاة المغرب، فطلبتُ من حفيدته الصعود معها إلى السطح لرؤية الغروب في القاهرة. واقعاً، كنت أريد سماع آذان المآذن، وهو يتردد بين حاراتها وأحيائها. كانت الأصوات تتلاقى وتتقاطع وتفترق؛ كانت تتدافع لكي تبلغ الوجهة عينها. كانت أصواتهم تشبه الزخارف التي وقعتُ عليها في مكتب

كوست، أو في صدر بيت الشيخ الجبرتي: تأتي الخطوط من أي اتجاه، وتتجه بطرق ملتوية، من دون أن تخرج عن الإطار. لكن هذه الأصوات كانت تبلغ مسامعي، وكنتُ مفتونة بوقعها على نفسي. لم أشعر بمثل هذه الارتعاشة من قبل... لا، يشبه صوت المآذن حركة المصريين والمصريات، وهي تروح أو تجيء في الشوارع والأزقة. لا تهدأ. لا تتوقف. تظنها تتجه إلى النيل فيما هي تتجه صوب جبل المقطَّم، صوب «القلعة».

كنتُ مُطرِقة، بعد أن وجدتُ أشعة الشمس الأخيرة، لا تصدمني، لا تحرقني، بل تلامس جبيني وأنفي وشفتي، وتتسلل بنعومة إلى جسدي بخفة وطراوة. كانت الحفيدة واقفة، تنتظرني، فطلبتُ منها الجلوس قليلاً. كنت حائرة، قلقة، فيما عليَّ فعلُه. كنتُ أردد في ظني أنني بلهاء، لما قررتُ المجيء للقيام بهذا المشروع الأخرق. فكان أن سألتُها:

- أتعتقدين أن في إمكان الشيخ مساعدتي فعلاً؟

- أتعلمين؟ لم أجده منذ شهور بمثل هذه الحيوية. أنتِ محظوظة بالمجيء إليه... هو يعرف مصر أكثر من محمد علي باشا نفسه.

فعلاً، كان الشيخ الضرير ينتظرنا، لما بلغنا الصالة الكبيرة. طلبَ من كاتبه الإتيان بورقة أسماء «الديوان» الأخير في عهد مينو: في هذه القائمة أسماء الشيوخ التسعة، الذين كنا نعمل سوياً في إدارة البلاد. وفي القائمة أسماء آخرين، ممن عملوا في الترجمة إلى جانبنا. لعلّ بعضهم توفي من دون شك... لا أعرف. لعلك تعرفين القس روفايل راهبة الذي عاد من فرنسا إلى القاهرة من جديد... كان الترجمان الكبير، وكان قريباً للغاية من مينو: كان ينتقل معه

أينما كان، للفائدة، سواء في القاهرة، أو في رشيد، حيث كانت تقيم عائلة زوجته... هناك أيضاً السيد علي الرشيدي، نسيب مينو، الذي عيَّنه الجنرال في «الديوان» من دون أن تكون له أي مؤهلات، فضلاً عن أنه لم يكن معمماً... قيل حينها إنه تعيَّن بناء على طلب السيدة زبيدة... قد يكون على قيد الحياة.

في اجتماعات «الديوان» هذه تعرَّف الشيخ إلى أنطونيو، إذ طُلب منه أحياناً المجيء لمساعدة عمل المترجمَين، خصوصاً أن الترجمان الصغير، إلياس فخر الشامي، لم يكن ضليعاً كفاية في اللغة الفرنسية: كانت اجتماعاتنا تنعقد في دارة رشوان بك في حارة عابدين، بعد أن تمَّت هندستها من جديد وتزيينها... كانت مناقشاتي مع مسيو أنطونيو مفيدة ومسلية، حتى إنه قبلَ ذات يوم المجيء إلى بيتي وتناولَ العشاء معي.

أخبرتُ الشيخ بطبيعة الحال أنني كنت صغيرة حين تعرفتُ إلى أنطونيو في الفندق، وأنني كنت أتحصن وقتها خلف الكرسي الخشبي الصغير، فلا أتعداه. ما لم أخبره به، هو أن كوليت سرقَت دفاتر أنطوينو واحتفظَت بها لي لمتابعة سيرة والدتي.

في المساء، وجدتُ خبراً ينتظرني في البيت. السيد كوست أرسل أحد السعاة، ودعاني إلى زيارته في مكتبه، في «القلعة» يوم غد قبل الثانية عشرة ظهراً. منذ السابعة صباحاً وجدتُ الساعي ينتظرني ليقلّني إلى مكتب كوست، إذ إن المسافة بعيدة. كما وجدت الحمار ينتظرني مع مرافقه، فيما اتَّخذ حسين له حماراً بدوره. لم أتردد، إذ إن الذهاب مشياً إلى «القلعة» مهلكة أكيدة، بحسب حسين.

كان الحمار المرسَل أفضل بكثير مما كنتُ أقع عليه في شوارع القاهرة وأزقتها، إذ كانت تعلوه سجادة مزركشة، ووُضع في جانبيها جيبان: واحد فيه فواكه مجففة مرتبة في كيس، وفي الجيب الآخر قارورة للماء. كنا في موكب، ويقودنا مرافقان يتقدماننا: لا تقلقي لحالهما... معتادان على المشي... المشي مهنتهما... الواحد منهما قد لا يحتاج إلى التوقف عند سبيل ماء للارتواء، لأنه يشبه الجَمل الذي يعبر الصحراء من دون التوقف بينبوع ماء. هذا ما قاله حسين بشيء من الاعتداد، إذ بدا عليه أنه يرتقي من حال إلى حال، وانتبهتُ إلى كونه كان يُحيِّي هذا وذاك أحياناً من دون أن يردَّ عليه أحد التحية، فيما خلا أحد السقّائين الذي لحق بنا ظاناً أننا نحتاج إلى ماء في الطريق. أنا بدوري كنتُ على شيء من الاعتداد بالنفس، بعد أن عملتُ على إبعاد الحجاب عن وجهي، فوضعتُه كما لو أنه منديل، فيما كنتُ ألاحظ أن النساء يعبرن أمامي، فوق الحمير أو ماشيات، مبقيات على فتحة صغيرة للعينين فوق المنديل الأبيض الذي يغطي مقدمة الوجه، فيما يغطي الحجاب بقية الرأس: فتحة صغيرة، أشبه بالفتحات الضيقة في مشربيات القصور والدور.

كانت الرحلة طويلة، حتى إنني طلبتُ من المرافق التوقف للمشي قليلاً، عندما كنا نعبر في دروب مبلَّطة. إلا أنها كانت رحلة منبهة للحواس، ولا سيما لتذوق الروائح المختلطة، ما لا أعرفه أبداً في شوارع مرسيليا. كما أتاح لي وجود مرافقَين يقودان مسارنا التلهّي بمرأى الناس، ما لم يُتَح لي تماماً في سابق أيامي القاهرية: كنتُ أخالهم بؤساء وعابسين وناقمين، فيما وجدتهم لاهين في الغالب، لا يتوانون عن الكلام، حتى إن في كلامهم شيئاً من الخفة والممازحة. أرى صاحب المحل جالساً على كرسي صغيرة مع صاحب المحل

المجاور، على ما خمَّنتُ، أمام الحائط الفاصل والواصل بين دكانه ودكان جاره، فيما ينادي ولد في دكان صاحب محل في جهة أخرى من الشارع للاهتمام بأحد الزبائن. . .

كان الوصول إلى «القلعة» مهيباً لموكبنا، إذ كنا نتَّجه صعوداً لأول مرة في القاهرة. وصلَت إلينا «القلعة» قبل أن نصل إليها. مشهد عريض لأجنحة وقِباب، ومنارة دقيقة وطويلة. أشبه بمدينة بمجرد الدخول إليها من أحد بواباتها العظيمة، لما يَجتمع فيها من بشر، بين جنود وضباط بهيئات ورتب مختلفة، وآخرين ممن تعلو رؤوسهم طرابيش حمراء، فيما أجد دكاكين تجارة، وعمال بناء يعملون، بينما لا أقع إلا على نساء معدودات متشحات بملاياتهن السوداء، اللواتي يَظهرن فيها سمينات، متشابهات.

لم يكن المهندس كوست ينتظرني، إذ أمضيت دقائق طويلة قبل أن يتوجه إليَّ بتحية الصباح المتأخرة. كان مستغرقاً تماماً في أوراقه ورسومه وخرائطه، بينما يحادث أحداً بالإيطالية، على ما أظن، والآخر بالمصرية الدارجة. وصلني فنجان القهوة (من دون غليون التدخين بطبيعة الحال) إلى الطاولة الصغيرة أمامي قبل أن يحدِّثني المهندس عما دعاني إليه. لما وجدني لا أحتسي فنجاني سألني: ألم تعجبك القهوة؟ فأجبتُه: لا أشرب القهوة أبداً. اعتذرَ، وطلبَ من أحد الخدم المنتشرين في مكتبه الكبير الإتيان بفنجان شاي. وعندما وصل فنجان الشاي، كان قد جلس إلى كرسي بجانبي وراح يحادثني عن مشاريعه، عن مشاريع محمد علي باشا بالأحرى الكثيرة: لا أتوقف عن العمل. . . أتعرفين أنني أنتقل مع موكب من العمال والمهندسين والمترجمين بين «القلعة» وقصور محمد علي المختلفة؟ عندما يحتاجني، عليَّ أن أحضر، فيما المسافات طويلة، كما

تلاحظين في القاهرة. ولما انتبهَ إلى كوني متوقفة عن احتساء الشاي، أجبتُه: متأسفة، السكَّر كثير في الفنجان.

قادني المهندس كوست في ممرات وسلالم حجرية إلى أن بلغنا نقطة عالية في «القلعة»، وخرجنا منها إلى فسحة صغيرة ولكن كافية للنظر إلى القاهرة: هذه أجمل زاوية للنظر إلى القاهرة. هي فعلاً كذلك، إذ تمتدُّ المدينة تحتنا، ما يجعلنا، في ارتفاعنا، وعلى الرغم من اتِّساع المدينة، نُسقط نظرنا عليها مثل من ينظر إلى حديقة بيت جاره القريب. كانت السماء مغبرة، فلا تبدو زرقتها جلية، كما كنا نتمتع بذلك في السفينة التي كانت تنزل بنا عبر النيل وصولاً إلى بولاق.

كانت الفسحة ضيقة، من دون سياج يحول دون وقوعنا. وتذكرتُ وقوفي مرتعبة فوق سطح السفينة، لما ابتعدَت مرسيليا عنا، وبتنا في عرض البحرِ تماماً. أخافني المنظر، بل خفتُ الوقوع من هذا المكان الشاهق. كان كوست يريد إخباري عن بناء القلعة، عن تاريخها المديد، عندما طلبتُ منه النزول مخافة إصابتي بالدوار: لو كنتُ مهندس القلعة لأقمتُ في هذه الفسحة الضيقة شرفة كبيرة. . . أتعرفين أنني قلتُ هذا لمحمد علي، فضحك طويلاً: أنتَ في مصر، في بلاد الإسلام، يا باش مهندس، ولستَ في باريس أو البندقية!

كنتُ أنتظر بعدُ ما لكوست أن يقوله لي أو يفيدني في البحث عن أمي، لما استعادَ، في طريق عودتنا إلى مكتبه، الحديث عن «مجزرة القلعة» التي قضى محمد علي باشا بموجبها على «المماليك»: سقطوا من هذا العلو الشاهق، فلم يسلَم منهم أحد. كان من المفترض دعوة اثنين من الضباط الفرنسيين إلى العشاء، لكنه أرسل إليهما قبل ساعات خبراً بعدم المجيء. وهو ما كان. . .

توقفَ كوست عن الكلام، إذ كنتُ مطرقة، ممسكة حتى عن النظر إليه، لكي يستثير انتباهي من جديد. ولما رفعتُ نظري إليه قال لي باعتزاز: ينتظرك أحد هذين الضابطين في دارته، قرب الأزبكية، يوم الأحد القادم. سأرسلُ إليك المرافق مع حماره لنقلك إلى المكان الموعود. ولما سألتُه عن داعي الزيارة، قال: هذا الضابط عملَ إلى جانب الجنرال مينو، ورافقَه في مناطق مختلفة من مصر. . ..

كان في حساب كوست أن يقودني إلى زيارة قصر يتولى توسعته وتزيينه، على مسافة أكثر من عشرة فراسخ عن القاهرة، ويقع على شاطئ النيل في شبرا. لكنني اعتذرتُ منه، وتعللتُ بالتعب، ووعدتُه بإجراء الزيارة في يوم آخر.

لم يكن كوست قد انتبهَ بعدُ إلى أننا لم نذق شيئاً منذ فطور الصباح. ولما تأكد حسين من كوننا سنبقى لبعض الوقت في «القلعة» استأذن كوست مستفسراً عن مطعم قريب. اعتذر كوست من جديد، ودعانا، حسين وأنا، إلى تذوق مأدبة فرنسية في «قصر الجوهرة»؛ وهو القصر الثاني الذي كان يحسب كوست أن في إمكاننا زيارته، طالما أنه يقع في «القلعة». كان في مقصد كوست أكثر من التفاتة لطيفة: عرضُ أكلٍ فرنسي علينا، بعد طول غياب، وزيارة قصر زوجة محمد علي باشا.

عبرنا في ممرات وصالات قبل أن نصل إلى: قاعة الساعات، الأجمل في القصر، بحسب قوله. كما زرنا قاعة أخرى جميلة، قاعة الاستقبال، المزينة بزخارف خشبية وبألواح الجص، وهي القاعة التي جمعت آخر المماليك قبل «المجزرة».

في اليوم الموعود وجدتُ المهندس كوست ينتظرنا في ساحة الأزبكية. لم نتفق على ذلك، إلا أنه فضَّل المجيء معنا لأن مسيو جان نسي سلك الجندية، وبات لا يتقن غير التجارة، بحسبما قال لي في نوعٍ من التنبيه إلى ما ينتظرنا، وحفظاً لحسن سير «التحقيق» من دون شك: قد يظن مسيو جان أن لكِ ما تتاجرين به... لهذا فضَّلتُ أن أكون إلى جانبك.

استوقفني هذا الحرص، من دون أن أفهم أسبابه. لكن المهندس استعاد أخباره، ولو عن بعد. كلٌّ منا على حماره، لكن صوته كان يبلغني في جمل قصيرة وسريعة: هنا يقام فندق للأجانب... هنا الدار التي أقام فيها الجنرال كليبير... هنا قام المجمع العلمي للبعثة...

لحسن الحظ كنا ننتقل على الحمير، لأن الساحة وما تلاها تفيض بالمياه، ما جعلها أقرب إلى مستنقع. كنا نَعبُر هانئين، فيما نقع على رجال يحفرون، وعلى نساء وبنات صغيرات يحملن في قُفَف من قش أحجاراً وتراباً أحياناً، وسط صراخ المراقبين الرافعين عصيهم في الهواء، بينما يدور بينهم رجل بطربوش أحمر، بدل عمامة المصريين، وهو أعلى رتبة منهم، بحسبما خمنتُ.

خفَّفَ كوست، بعد وصولنا إلى دار مسيو جان، من قسوة المشاهد التي وقع نظري عليها: هناك أقسى منها... أتعرفين ماذا يفعلون إذ يفتقدون إلى عُمال؟ يأتون إلى حي أو حارة، فيطوقونها ويأتون منها بحاجتهم من الرجال والنساء، ثم ينتقلون بهم إلى العمل المطلوب منهم.

طلبَ كوست مني عدم التكلم مع صاحب الدار إلا عند الضرورة. سيتدبر الحديث والبحث معه عما يعرفه عن الوالدة. إلا

أن مسيو جان تأخر في اللحاق بنا، فيما سبقنا إلى الصالون عصير «الشربات»، ثم فنجان قهوة. كان أثاث البيت جميلاً، تعلو أحد الجدران لوحة لعسكري بلباسه، المزنَّر بسيف مرصع يتدلى من وسط اللوحة حتى أسفلها: بلى، هو المسيو جان حين كان الضابط جان.

أحد العبيد ظهر فجأة بقامته العالية، وزعق بأعلى صوته: مسيو جان. وقفتُ بدوري للتحية، لكنني وضعتُ يدي على صدري تجنباً للسلام - مثلما علمني حسين فوق السفينة بين جملة من التنبيهات التي تقيني أي إحراجات في مصر.

استفسرَ مسيو جان من كوست عن أخبار الباشا الأخيرة، فأكد له أن أحواله تتعزز، في أوروبا كما في السلطنة: بات مرهوب الجانب أينما كان. . . وأنواع التجارة تزداد وتنتظم بين مصر والعديد من البلدان. أتعرف أنه يزمع على مدِّ خطوط للتلغراف في عموم مصر؟ هذا من جملة ما كلَّفني به من مهام في إقامتي الحالية؟

لم يبقَ في هيئة مسيو جان ما يدلُّ على أنه رشيق الحركة العسكرية، إذ بات أقرب إلى من لقيتُهم في أحد المقاهي، قبل أيام، إذ وجدتُ كروشهم تجلس معهم، بل تندلق فوق الطاولة قبلهم. كان شنيع المنظر، فيما لا تتوانى عيونه عن البصبصة صوبي. قطعَ كوست هذا التراسل من طرف واحد بطبيعة الحال، وأخبرَه: الصَّبية قريبتي من مرسيليا، تبحث عن طباخة مصرية لأهلها، وأرسلَها والدها برفقتي لتدبر الأمر، بعد أن اضطر للانتقال من جديد إلى الإسكندرية لإرسال رسالة عاجلة إلى مكاتبه التجارية في مرسيليا وليون وباريس.

صفَّق مسيو جان بيديه، فاقترب منه العبد، وانحنى يستمع إلى أمره الهامس. بعد دقائق معدودة، دخلت إلى الصالون ثلاث نساء

من دون حجاب: أيهن تختار؟ كوست لم يُجب، بل طلبَ منهن الاختفاء. ثم توجه إلى مسيو جان: لم أوضح مطلوبي كفاية. . . عائلة قريبي سمعت عن طباخة ماهرة كانت تعمل في خدمة بونابرت، ويبحثون عنها.

كانت حكاية كوست غير مقنعة، إذ ضحك مسيو جان: أما كان حرياً بهم سؤال بونابرت عنها؟ عمَّ تبحث يا مسيو كوست؟ ما هذه الحكاية؟! عندها توقفَ كوست كمن يستعيد أنفاسه لردٍّ أقوى: الحقيقة هي أن هذه الصَّبية هي قريبة السيدة زبيدة زوجة الجنرال مينو، وقد كلَّفَتها مع والدها الإتيان بطباخة ماهرة من مصر. عندها استوى مسيو جان في جلسته من جديد، وأطرق باحثاً عما يمكن قوله، وقد بدَت الحكاية مقنعة هذه المرة. لكن كوست لم يدعه يجيب، إذ أكمل الحوار بنفسه: السيدة زبيدة فقدَت زوجها، كما تعلم، وفقدَت أي اتصال بمصر بعد التشنيعات التي طاولتها. . . هي تتذكر دوماً طباختَها آمنة المنصوري، وتتحدث عنها من دون أن تعرف أي شيء عنها. . . أتعرف أحداً يمكن أن يدلنا على السيدة آمنة؟

عاود مسيو جان النظر بتشكيك إلى كوست: أتقطع هذه الصَّبية ووالدها كل هذه المسافات للبحث عن طباخة؟! عندها وقف كوست، وعلا بصوته: أهو تحقيق؟ والد الصَّبية يعمل في التجارة، ويتوسع بها طالباً مدَّ أسواق مرسيليا بخضار وفواكه من مصر وبلاد الشام وغيرها. . . يريد فتح مطعم مصري في مرسيليا أيضاً، ويحتاج إلى طباخات ماهرات. . . السيدة زبيدة حدثَته عن طباختها، وهو يعرف تجاراً وَعَدوه بأكثر من طباخة مناسبة. ماذا تقول؟

أدار كوست ظهره في اتجاه باب الخروج، وهو ما فعلتُه بنفسي، لولا أن مسيو جان استدركَه بالقول: قصتُك غريبة بأي

حال. ماذا تريد مني؟ فأجابه كوست على الفور: هل تعرف السيدة آمنة المنصوري، طباخة السيدة زبيدة؟ هل تعرف من في إمكانه العثور عليها؟ أطرقَ مسيو جان لبعض الوقت، ثم قال، كما لو أنه فحص على عجل جداول أسماء ترقى إلى ما يزيد على خمس وعشرين سنة: أذكر أن هناك طباخة ماهرة بهذا الاسم أو باسم قريب منه كانت تعمل في خدمة بونابرت. . .

فكان أن قاطعتُه: أكانت ماهرة في صنع الكنافة؟

أجاب مسيو جان: نعم، نعم.

فخرج من حلقي صوت رهيب: إنها هي.

لعلّ الصوت بلغ المنصورة والقاهرة ورشيد والإسكندرية و«ساحة كاستيلان» و«ميدان غوفيه» و«فندق القديس بطرس وروما» والسيدة جولي بييزوني وريمون والشيخ الجبرتي وبونابرت ومينو والسيدة زبيدة وكوليت وحسين ومارلين وأنطونيو وجيراردون والفتاة الصغيرة التي تحمل كرسيها الخشبي الصغير أمام بوابة الفندق في النهار الواقع في 15 يونيو من سنة 1815.

كان الخبر كافياً لكي أجد أن ما ظننتُ به، ما خمَّنتُه طوال أعوام، صحيح. ذلك أن قصة الكنافة هي من البقايا الباقية من سيرتي مع أمي: كانت تصنعها في النادر، لكنها كانت تَعِد بها، إذ أتذمر أو أشتكي. كان مذاقها طيباً، من دون أن تكون سكرية للغاية، ما دام أنني لا أحب السكر، ولا الحلويات بالتالي. هي حلواي الوحيدة التي افتقدتُها في مرسيليا بعد اختفاء أمي.

لم يكن لمسيو جان ما يضيفه على ما قال: بلى، أنا أكيد من اسمها. غير جندي وضابط في الحرس التابع لبونابرت كان يعلم بوجودها، أو كان يعرف اسمها على الأكثر، إذ كان الجنرال يُرسل

من يأتي بها إليه حين يكون في القاهرة، وحين يستعدُّ لعشاء فاخر في قصره. . . لم ألتقِ بها قط، إلا أنني ذقتُ كنافتها مرة. الغريب هو أن المصريين يأكلونها في الصباح في الغالب فيما كان الجنرال يطلبُها في المساء.

لكن مسيو جان لا يعرف شيئاً عن سكنها، ولم يتمّ تكليفه أبداً بدعوتها إلى المجيء إلى قصر الألفي. ثم لا يلبث أن يستدرك: البعض كان يقول عنها إنها جميلة أيضاً. . . ثم توقف عن الكلام.

لم يُحسن كوست استكمال الأسئلة، ولا أنا. لما رفعتُ رأسي للنظر إلى وجهه، وجدتُه يشدد التحديق في وجهي، وتدور أسئلة وحكايات أكيدة في رأسه من دون أن يفصح عن أي منها. فكان أن استدار صوب كوست، في حركة التفافية من عسكري قديم ومجرَّب مثله، ورشقَه بسلسلة متتابعة من المطالب: تعرف، مسيو كوست، أن أحوالي تدهورت. . . ما عاد الباشا يطلب مني أي معونة عسكرية، أي مشورة. . . حربي الأخيرة انتهت في الحجاز بعد انتصاره المدوي. . . بددتُ الكثير مما جمعتُ. . . لم يعد في مقدوري الاستمرار على هذه الحال، عدا أن خطوط فرنسا باتت مقفلة في وجهي. . . فتحتُ قبل سنة محلاً تجارياً في «الموسكي»، وشملَت مبيعاتي أنواعاً من النبيذ لزبائني من الفرنسيين واليونان واليهود والمسيحيين. لكنني توقفتُ قبل شهور بعد أن داهمَت المحل قوة من الشرطة، فدفعتُ غرامة مالية عالية، وخسرتُ موجودات المحل من مشروبات روحية إذ أقدموا على تكسيرها. . . لو تذهب إلى المحل اليوم ستشمُّ رائحتها بعد، نظراً إلى العدد الكبير المكسور من الزجاجات، ونظراً لجودتها أيضاً. توقفَ، واقترب من كوست، بل كاد أن ينحني على ركبتيه أمامه: أرجوك، لو تتدبر لي الأمر. . .

يصعب تدبير إجازة تجارية لهذه المبيعات، ولكن يمكن غض النظر عن بيعها، أليس كذلك؟ . . . أرجوك.

عندها وقف كوست، ووقفتُ معه، معلناً نهاية الزيارة. رافقَنا مسيو جان إلى مدخل الباب، ثم انحنى كوست برأسه وقال لمسيو جان بصوت هامس، إلا أنه بلغني: سأتدبر لكَ الأمر، ولكن بعد أن تكون قد جلبَت لنا معلومات مؤكدة عن السيدة آمنة المنصوري.

في طريق العودة إلى بولاق، كان الوقت كافياً لبكاء ناعم. وهو ما عاودتُه من جديد في البيت بعد إخباري لعائشة بما عرفت. هذا ما شاركَتني به عائلة حسين عند العشاء، إذ إنني انقطعتُ عنهم تماماً منذ أيام عدة. كان الجو مرِحاً، فرِحاً، إلى درجة أن عبد السلام دعانا إلى زيارة محلات العائلة في «حي الحسين» في اليوم التالي. وافقتُ عليها من دون تردد، فمنذ يوم وصولي لم أنعم بلحظة راحة. وكان حسين قد اقترح بعد أيام على وصولنا النزول إلى الحي بدعوى زيارة الجامع الأزهر، والتنزه بين المحال التجارية المتنوعة في «خان الخليلي»، فيما كان يريد واقعاً، كما حدَّثتني عائشة بذلك، معرفة نجاح ابن أخيه التجاري.

عبد السلام يدير تجارة أبيه بعد جده، أي الإتجار بمواد غذائية يستقدمها من الصعيد أو من حلب وجبل لبنان. وفي محلاته المتراصفة في «خان الخليلي» تجد: السمن والجبن والقمح والبصل والعنب والخوخ والبطيخ والبندق واللوز والجوز والزبيب والتين والجبن الرومي فضلاً عن الصابون والزيت وغيرها. هذا ما ردَّدتُه عائشة على مسامعي ودوَّنتُه بدوري، إذ كنتُ لا أعرف الشيء الكثير عنها.

كان التجوال بين المارة أجمل وأجدى، بألوانهم وأشكالهم، وخصوصاً بحكاياتهم التي يتناقلونها فيما بينهم، فلا يزعجهم مرور أحدٍ بينهم. إلا أنني ارتبكتُ ما أن بلغنا الجامع الأزهر، واقترحوا الصلاة فيه. كان حسين قد أخبرَهم أنني مسلمة، لكنه لم يقل لهم إنني لم أدخل قطُّ إلى مسجد، ولا أعرف الصلاة فيه. أحكمتُ الحجاب على رأسي، وأنزلتُ المنديل الأبيض على وجهي، وقادتني عائشة بنفسها، مثل طفلة صغيرة في يوم مدرستها الأول. كنت منضبطة إلى جانبها، لا أتوانى عن النظر إلى القناديل، أو إلى أشكال المربعات التي تتوزع في زخارف الجدران. قلتُ لعائشة: كانت آمنة لتفرح لو عرفت أنني في الأزهر.

حسين شهد أياماً صعبة في هذا الحي وفي غيره، لما قامت أعمال الشغب ضدّ قوات بونابرت. امتنعَ يومها عن سرد ما حصل له في هذا الحي إلى وقت آخر، إذ لا يريد إفساد نزهتنا الجميلة. وما أن بلغنا صوتُ الطبول المنتظم، وجدَ فيه ما يلهيني من دون شك. كانت الأصوات تتعالى، فيما نجد صعوبة متزايدة في التقدم. الكل عرفَ أن مشهداً دينياً ينعقد على مبعدة أمتار؛ وهو ما أسماه حسين بـ«الذِّكر»: كانوا يتحلقون حول بعضهم البعض، وينشدون، فيما يَرُدُّ عليهم عدد آخر من المحتفلين: الصلاة على النبي. كما وجدت إلى جانب هؤلاء صفين متقابلين من المنشدين، ويضرب آخرون على طبول ودفوف. . .

بعد الوصول إلى البيت، أخبرني عنهم حسين وعائشة أحاديث طويلة، طريفة أحياناً، إذ يبدو على أعمالهم ما يشبه أعمال السحر، «كما لو أن الإسلام دين إفريقي»، مثلما ردد على مسامعنا عبد السلام، طالباً منا عدم التوقف الطويل أمامهم. كان في ودّي

التوقف، والتعرُّف إلى ما يقومون به من أفعال وأقوال، خصوصاً أنها تختلف عما شهدتُه في مرسيليا من أعمال الخفة.

حسين بدوره يحتفظ بذكرى سيئة عما شهده ذات مساء في الحي، لما دعاه أحد الضباط الفرنسيين إلى السهر معه فيه، فإذا به يكتشف أن الضابط فتحَ فيه مقهى، وأحدثَ بلبلة بين سكان الحي. خاف أرباب البيوت منه، بداية، فما عارضوه أو انتقدوه، لكنهم ما لبثوا أن انتبهوا إلى زواجه من مصرية، وإلى أنها راحت تشاركه الجلوس في المقهى وفي خدمة الزبائن: في تلك الليلة المشؤومة، وجدتُني من دون سابق معرفة أو إنذار وسط صياح وبلبلة... تلقيتُ أكثر من زجاجة على رأسي، فيما كان الضابط يهددني بأنني لا أساعده في ضبط الأمن... لم يُعاقَب حسين على ما لم يفعله في تلك الليلة الصعبة، ما دام أن مسؤولَ فرقة التموين عرف أن الضابط المذكور يدير مقهى وينتفع منه، ولم يكن أبداً في خدمة الجمهور، كما ادَّعى.

إلا أن الخبر الطريف رواه علينا عبد السلام نفسه، العابس إلا في هذا المساء، إذ قال: أنا معتاد على الحي، أعرف أي شاردة أو واردة فيه. غير أن ما شهدناه في أيام الفرنسيس فاقَ كل تصور بعد أن تبلبلَت الناس، وباتت تقوم بحركات غير مسبوقة، مفاجئة. من أغرب ما حصل حينها حكاية علي: كان أبله، ولا يتورع عن المشي عرياناً في الأسواق، مكشوف الرأس والسوأتين... هذا ما كان يُضحك الناس، ثم راحوا يقولون فيما بينهم: لو لم يكن مصاناً بقدرة قادر لما خرجَ إلى العلن بهذه الحالة المزرية. انتبهَ أخوه إلى عناية الناس به، فراح يُقدِّمُه بوصفه من أصحاب الكرامات. حجرَ على أخيه في بيته، وألبسه ثياباً مناسبة، فأقبلَ الرجال والنساء على

زيارته والتبرك منه وسماع ألفاظه والإنصات إلى هلوساته، وأتوا إليه بالهدايا والنذور والإمدادات من كل شيء، خصوصاً من نساء الأكابر. . .

كنتُ أحتاج إلى مثل هذه الحكايات وغيرها. كانت آمنة تستمع معنا هذه المرة، فلا تحكي كعادتها بعد العشاء. لما شعرتُ بإرهاق اليوم الشديد، اندسستُ في فراشي فوجدتُ حضنها الدافئ ينتظرني.

لم تُصب المهندس كوست الدهشة لما وجدني أدخل إلى مكتبه في «القلعة» من دون سابق موعد: منهمك بأكثر من أمر، كعادته. إلا أن ما كابدناه من تحملٍ وصبرٍ معه انتهى في لحظة عابرة إلى مفاجأة سعيدة. كنتُ أحادثه، أثناء الغداء، عن مسيو جان، وأستفسر منه عن سيرته لإعداد لقائي المقبل به، لما وصل إلى طاولتنا أحد رجال الدين المسيحيين بعباءته السوداء والطويلة: إنه الدون رافايل. فكان أن استقبلتُه بالقول: إنك «الترجمان الكبير»، أليس كذلك؟

فعلاً. هو الذي حدَّثني عنه الشيخ الجبرتي، وطالبني باللقاء به. الخوري، هو الآخر، يتنقل بحسب مشيئة الباشا، من قصر إلى آخر، ويتكفل كما في السنوات البعيدة بالترجمة لدى الحاكم. لم يكن اللقاء به بالصعب، إذ كان يعمل في مكتب غير بعيد عن مكتب كوست؛ وهو مثل كوست له مكتب في كل قصر من قصور الباشا.

عندما سرد القس بعض الأخبار تأكدتُ من ورود اسمه في دفتر أنطونيو، إذ غادر مرسيليا إلى القاهرة أثناء حلول أنطونيو فيها، وبعد هرب الكثيرين من أعوان بونابرت بعد سقوط قائدهم. كان رجل الدين المسيحي قريباً بعض الشيء من رجل الدين المسلم، أي

الجبرتي، كما عرفته. هو بدوره سألني عن نسبي، فأخبرتُه بحكايتي المؤلمة التي نقلَتني إلى القاهرة. لكنه أمسك بالكلام وراح يتحدث عن سيرته وسيرة غيره، كما لو أنني أقرأ السِّيَر في كتاب الجبرتي.

ما عرفتُه عنه، في البداية، هو أن له اسمين، إذا جاز القول، مثل كثيرين: واحد بالفرنسية، «دون رافايل»، وآخر بالعربية: الخوري روفائيل زاخور راهبة. شرح لي الخوري - لما استغربتُ حدوث هذه اللخبطة في الاسم الواحد - أن اسمه بالعربية مرتَّب هو الآخر، طالما أن الاسم الأخير منه، راهبة، هو كنية في الواقع، حملَها نقلاً عن ألسنة مصريين كثيرين، ممن عرفوا والدته الأرملة، التي كانت أقرب إلى الراهبة في سيرتها الناصعة.

لكن الخوري بدا محنكاً، أكثر منه زاهداً؛ طامعاً في الحكم، أكثر منه متطلعاً إلى دنيا الخلود. ترددتُ في قول خلاصتي هذه، وهو يعرض أعماله على مسامعي قرب أكثر من حاكم. الظريف في مرآه، هو أنه كان يتحدث كما لو أنه يعتذر؛ يتحدث في جملة عن حاجة العظماء له، وفي جملة أخرى عن تواضعه وإخلاصه. لما انتبهتُ إلى طول باعه في السياسة، وألمحتُ إلى ذلك، اكتفى بالقول: هناك من يُسرعون ويتسرعون... أنا لستُ من هؤلاء، ما دام أنني أعرف حاجتهم إلي.

لا يبالغ الخوري فيما يقول، ولا يدَّعي أمجاداً مختلَقة، بحسب أقواله: لما احتاجوا إلى أستاذ أول للعربية في باريس، بحثوا عني ووجدوني... لما احتاج بونابرت إلى ترجمان كبير، وجدني هو الآخر... ولما فكروا في عربي يعاون بعثة العلماء في الحملة اختاروني... ولما بحثوا عمن يتكفل بأعمال التدقيق والترجمة في كتابهم العظيم: **وصف مصر**، اعتمدوا على خبراتي... وهذا يصح

اليوم في محمد علي، الذي أرسل مبعوثاً إلى باريس لإعادتي إلى القاهرة.

ماذا عن عمله قرب الجنرال مينو؟ كان الخوري يتوقع هذا السؤال، لذا لم يبادر بالحديث عنه، بل اكتشفتُ في الحديث معه أن كوست أخبرَه عن مقصد رحلتي، وعن مجيئي إلى «القلعة»، وفي هذا ما يفسر على الأرجح اقترابه من طاولتنا ومحاورته لنا. أنا بدوري، نور ابنة آمنة المنصوري، احتجتُ إلى خدمات الخوري روفائيل... هو يتقدم صوبي فيما يُشعرني بأنني أتوجه إليه.

أخرجتُ دفتري من محفظتي، وشرعتُ فيما كنتُ مستعدة له، من دون أن أكون قد نسقتُه أو دونته أو أقمتُ له تسلسلاً: أعرفتَ، هنا أو في مرسيليا، آمنة المنصوري؟ عندما لم يُجب، بل اكتفى بقلب شفتيه حيرةً، تابعتُ: كانت من طباخات بونابرت... ثم أكملتُ إزاء صمته المتمادي: كانت معروفة بإتقانها: الكنافة.

كان وقعُ الجواب صاعقاً: بلى، أعرفها. بلى، بلى...

كانت تنازعني مشاعر الفرح مع مشاعر البكاء. كنتُ أبكي مثلما لم أبكِ منذ زمن بعيد، منذ ليالي العتمة في الميتم. شعرتُ في هذا الغروب كما لو أنني لستُ وحدي، إذ كانت آمنة تنتقل معي فوق حماري، فيما يرى حسين إلينا بعينيه الحانيتين: هي ترافقنا في هذه الدروب التي عرفَتها على الأرجح؛ هي معنا في القاهرة، بعد مرسيليا. كان في ودّي تقبيل يد الخوري الكاثوليكي لما أخبرَني أن هذا الاسم يعرفه جيداً. لم يكن هذا بغريب عنه بعد أن قرأتُ في كتاب الجبرتي أنه عاش في البيت نفسه مع القوميسير فورييه، في بيت رشوان بيك في عابدين، حيث كانت تنعقد جلسات «الديوان».

كان الخوري أكثر معرفة من مسيو جان بأحوال البيت وما يحيط به، وما يجري فيه. الخوري بدوره لم يرَ وجهها، وإنما سمع بها: ستنتقل، بعد وقت قليل على تسمية الجنرال مينو حاكماً، إلى مدينة رشيد، إذ طالبَت بها السيدة زبيدة في خدمتها، كما علمتُ.

كنت أراجع الأحاديث الأخيرة، وأفكر في الشيخ الجبرتي: أيعقل أن الضابط جان، وأن الخوري روفائيل، عرفا بوجودها، فيما هو لا يعرفها. أمر غريب للغاية!

أمضيتُ وقتاً غير قليل في طريق العودة في تصفح نبذة بالفرنسية عن سيرة الخوري الترجمان: إنه الأب أنطون روفائيل زاخور راهبة من الرهبانية الحلبية المخلصية، لم يغادر مصر مع الحملة بل بعد وقت، ثم غادر فرنسا بعد سقوط نابوليون، فيما كان محمد علي قد عرض عليه الإشراف على سياسات الترجمة... إلخ.

يبدو عليكِ القلق، يا ابنتي؟ أهكذا أنتِ دوماً أم أن البحث المضني عن أمك جعلك على هذه الصورة؟ لعلها ماتت... لما لا تقبلين؟ لم يقل الشيخ الجبرتي هذا الكلام، وإنما حفيدته، لما استقبلَتني عند مدخل البيت، وفي انتظار إدخالي إلى قاعته. أعادت الحفيدة سؤالها، فأجبتُها: لا أقبل، لأنها ظُلمت على الأرجح.

أخبرتني الحفيدة أن الشيخ طلب من كاتبه البحث عن بعض الشيوخ ممن عمل معهم في «الديوان»، وهو لم يتلقَ بعدُ أي جواب. لكنه كان ينتظرني بما قد يكون أفضل من اتصال ولقاء. لما دخلنا إلى قاعته، طلبَ مني الاقتراب من مقعده. دعاني إلى الجلوس وراء الطاولة بدلاً من كاتبه. وجدتُ فوق الطاولة أوراقاً مكدسة، على

شيء من الاصفرار، مكتوبة بالفرنسية: هل تحسنين قراءة الفرنسية، مثلما قلتِ لي في السابق؟

حين أجبتُه بالإيجاب، سرد لي الشيخ حكاية الأوراق المجموعة بين يديه. إنها أوراق تضاف إلى غيرها مما جمعه، أو بحث عنه، لكتابة تاريخه العام عن مصر. بين هذه الأوراق عدد من قرارات «الديوان» بصيغتها العربية. ومنها ما جرى تعليقه في الحارات والشوارع عندما يتعلق الأمر بتوجيهات وإبلاغات للجمهور: بين يديك أوراق لا أعرف ما فيها... أوراق تعود إلى الأيام الأخيرة من الحملة... عرفتُ بعد انتقال الجنرال مينو إلى الإسكندرية، بعد خسارته أمام القوات الإنكليزية المرابطة في البحر، أنه شرع في التفاوض معهم... عرفتُ من الترجمان، الياس الشامي، أنه يعمل إلى جانب كاتب فرنسي يُعد للجنرال رسائله مع الأميرال الإنكليزي... كان يُطلب من الشامي إعادة نسخ الرسائل بعد تنقيحها، طلباً لحفظها ورفعِها إلى نابوليون... كان الشامي يدين لي بفضلٍ، إذ اقترحتُ اسمه على الجنرال مينو للعمل في «الديوان»... الشامي استنسخَ نسخاً أخرى، إضافية مما كان ينقحه، وأتى بها إليَّ...

لا يعرف الشيخ ما تحتوي عليه هذه الأوراق ما دام أنه لم يعرف من الفرنسية سوى تعبير: «بونو»، أي جيد. اختفى الشامي تماماً من حياته، بل قيل له إنه سافر إلى بيروت برفقة بعثة من الكهنة اليسوعيين. اختفت الأوراق في صناديق الشيخ من دون أن يُظهرها لأحد. بات يخاف من عرضها، ما دام أنها قد تشتمل على أسرار بالغة الخطورة، فكيف إذا عرف الفرنسيون بوجودها معه.

- وما حاجتي إليها، يا فضيلة الشيخ؟

- لعلك تجدين فيها اسم أمك بين أسماء من رحلوا.

لم تكن القراءة ميسرة أبداً، إذ احتجتُ إلى بعض الوقت للاعتياد عليها، على خطِّ كاتبها بالأحرى. لما شرحتُ للشيخ حاجتي إلى الوقت، وإلى التعود، ضحك: هذا طبيعي، يا ابنتي... لكل خط هيئة، مثلما يختلف كل واحد عن الآخر بهيئته، فيما لكل منا أنف ووجه وأذنان وجسم. ما لم أقله للشيخ هو إن معرفتي بالفرنسية قد لا تكفيني أبداً في فكِّ أسرار هذه الكتابة العسكرية أو الدبلوماسية.

كانت الأوراق بالعشرات، وكنت أحتاج إلى بعض الوقت للتعرف إلى عناوينها:

من مينو إلى اللورد كيث: «جيش الشرق»، في 14 تيرميدور من السنة التاسعة (الموافق للأول من أغسطس 1801).

من مينو إلى هاتشنسون: «جيش الشرق»، في 14 فروكتيدور من السنة التاسعة (الموافق للأول من سبتمبر من سنة 1801)...

أثناء ذلك، كان الشيخ يتمشى في القاعة، ويستند من جهة على ساعد حفيدته، ومن الجهة الأخرى على عكازه الخشبي. كان يتنقل مثل مراقِب في قاعة امتحانات، فيما كنتُ الطالبة الوحيدة. كان يلتفت بين الحين والآخر في اتجاهي، من دون أن يراني بطبيعة الحال. بقيَت هذه الأوراق سنوات طويلة في صندوقه من دون أن يكشف عنها لأحد، بل باتت - لو كُشف عنها - مثل وثيقة اتهام تدينه بالسرقة على الأقل.

طلبَ الشيخ الجلوس إلى جانبي، كما لو أنه يحثني على الإسراع في القراءة، في إخراج هذه الوجوه المغمورة من لجج البحر، من حيواتها الماضية، وربما من قبورها:

«تلقيتُ للتو الرسالة التي شرَّفتني بإرسالها، والمؤرخة في الأول من أغسطس. لو تتفضل بقبول شهادة التقدير مني لكل ما أظهرتَه تجاه عائلتي. أتوجه إليك وحدك، أيها اللورد، ولا إلى غيرك، لكي تسمح لزوجتي، ولابني، ولمن يتبعهما، بالانتقال إلى الإسكندرية بحراً، مثلما اقترحتَ عليَّ ذلك في السابق.

كما أرجو منك السماح للمواطنَين سان-جينيس وألفيران، مساعديَّ العسكريين، الالتحاق بي في الإسكندرية. وألفتُ انتباهك خصوصاً إلى أن الثاني منهما مكلف بمرافقة عائلتي.

كما أطلب منك خدمة أخرى، إن لم تجد ضرراً في ذلك، وهي السماح كذلك للمواطن استيف، مدير خزانة مصر، ولمن يعمل معه.

أنت تعرف، أيها اللورد، معنى أن يكون المسؤول حريصاً على كل من يعمل معه، وقد كانت شؤون مصر كلها، بإدارتها كما بحربها، موكولة إلي. لذلك، وفي الظروف الحالية التي لا يقوى فيها أحد منا على معرفة ما تخفيه له الأيام بين يوم وآخر، أدعوك إلى مساعدتي في أن أكون أميناً على حيواتهم. سيصيبني اليأس تماماً لو أخلَّيتُ بمسؤولياتي (. . .). أتمنى، أيها اللورد، أن تتفهم دوافعي، وهو ما كان لك أن تُطالب به لو كنتَ في حالي.

اسمح لي، أيها اللورد، أن أرفق رسالتي هذه برسائل لزوجتي، وللمواطن استيف، ولمساعديَّ العسكريين.

وتقبل، سيدي اللورد، فائق الاحترام.

ملاحظة: أُحيطكَ علماً، سيدي اللورد، بأن عدداً من حاجيات الفرنسيين سيتمُّ نقلها إليهم يوم غد، إذ ليست جاهزة بعد. وهو ما سأكلِّف به غداً أحد السُعاة».

هذا ما انتهيتُ إلى ترجمته، إلى كتابته، مع الشيخ، إذ كنتُ أعرض له المعنى وكان يقوم نفسه بتدبير العبارات والجُمل المناسبة له؛ وعندما كنتُ أعجز عن فهم كلمة أو عبارة، كنا نُسقطها. لم أحتجْ إلى تنبيهه لكي أدرك أن أمي كانت تحتاج إلى إذن للانتقال إلى الإسكندرية، ما دام أنها كانت ممن «يتبع» عائلة الجنرال المهزوم. ما أضافه الشيخ هو أن عائلة الجنرال كانت تقيم على الأرجح في رشيد، حيث موطن عائلة زبيدة، ما يوافق ما عرفتُه قبل أيام من مسيو جان كما من الخوري روفائيل.

وقعَ اختياري على رسالة أخرى، تعود إلى شهر لاحق على السابقة، وهي موجهة من الجنرال مينو إلى هتشنسون، ويفيد فيها ما يلي:

«إن علماء الأمم كلها يؤلفون فيما بينهم رابطة عامة لا تأتمر بالحروب (. . .).

أعلنُ، سيدي الجنرال، باسم الشرف، أن مجموعات الآثار الموجودة بأعداد قليلة مع الفرنسيين ليست ملكاً أبداً للجمهورية الفرنسية، بل هي مما عملَ عليه علماء فرنسيون، واقتنوه بأنفسهم. أما ما تملكه الجمهورية الفرنسية فلا يتعدى قبرين فرعونيين، واحد من الإسكندرية، والآخر من القاهرة، وأنا بنفسي أعطيتُ الأمر بنقلهما إلى فرنسا. أما عن التماثيل، فهما اثنان، يعودان إلى ملكية الضابط فريان، الذي أجرى بنفسه تنقيبات في الإسكندرية، فاكتشفهما، وحفظهما في بيته، ما يؤكد أنهما من ملكيته. أما عن المخطوطات القبطية والعربية، فإنها في غالبها مشتراة من أصحابها. كما توجد أيضاً مجموعة آلات موسيقية تعود ملكيتها إلى المواطن فِيُّوتو، الذي سافر إلى فرنسا في عداد قوات القاهرة. . .».

لم يقوَ الشيخ على فهم المقصود من هذه الرسالة، ولا أنا بطبيعة الحال، إلا أنها تتحدث - على ما يبدو - عن مقتنيات أو مسروقات ثمينة في نظر الفرنسيين: لاحظتُ، منذ بداية الحملة، مدى اهتمام بونابرت وغيره من الجنرالات بهذه الأشياء. . . أنا أفهم اهتمامهم بالمخطوطات. إنهم مثلنا يعتنون بها ويجدون فيها فوائد جمَّة.

عندها أخبرتُ الشيخ عما شاهدتُه من مقتنيات قديمة في «الثانوية»، في مرسيليا، وشرحتُ له كيف أن المدير دعانا إلى زيارتها، وقراءة ما فيها، وما يرافقها من شروحات: فرحتُ بها كثيراً لأنها أعفَتنا من درسَين اثنين.

كما وقعتُ على رسالة أخرى تفيد عن مقتنيات قديمة أخرى، مثل «حجر» جرى التنقيب عنه في رشيد، ويشتمل على نقوش قديمة عديدة ومختلفة، إذ يقول عنه الجنرال مينو لهتشنسون نفسه بعد أيام معدودة على الرسالة السابقة: «إن كنت تريد هذا الحجر، سيدي، فهو لكَ، لأنك الأقوى، ولن أكون متضايقاً إذ أنشر في أوروبا الخبر عن أن جنرالاً إنكليزياً سرقَه مني، فيما اشتريتُه من أحد المحلات في الإسكندرية، وكنتُ أنوي منحه للجمهورية الفرنسية».

كان علينا، حسين وأنا، تمضية وقت طويل في دارة الشيخ لإنهاء ما بدأتُ به. ولما كان علينا أن نتعشى، طلبَ الشيخ الإتيان بالأكل إلى حيث نجلس، بدل الانتقال إلى غرفة الطعام. طلبَ منا الاستلقاء قليلاً، بعد المجهود الفائق الذي بذله. لم يكن يدري أنني كنت أدوِّن في دفتري مجموع الرسائل التي حررها بنفسه نقلاً عن عربيتي الرديئة. ما لم أنتبه إليه في هذه الساعات القليلة هو أن حسين

كان يتحرق لمعرفة ما وقعنا عليه. كانت تصله بعض الجُمل من دون أن يدرك معانيها تماماً: كنتُ مرتاحاً ومطمئناً طالما أنكِ كنتِ مُجِدَّة فيما تعملين عليه. ففيه ما يسرُّكِ من دون شك.

حفيدة الشيخ دعتني للخروج إلى الحديقة. كان الهواء طرياً بخلاف الحرارة الشديدة التي رافقتنا في الطريق. أخبرَتني أن كاتب الشيخ خرج متضايقاً من القاعة، من دون أن يستأذن الشيخ أبداً. هي بدورها لم تكن على بيِّنة مما وقعنا عليه. كانت فرحة مثل فرح حسين، ولا سيما لرؤية جدها في هذه الحال: ما كنتُ أعرف كيف يعمل. كانوا يُحدِّثونني عنه من دون أن ألتقي به في هذه القاعة التي كانت ممنوعة علينا، ولا سيما نحن الصغار مخافة إفساد الأوراق أو الكتب، وبعثرتها كيفما كان، بل أخبرَتني أنها لم تَرَهُ - منذ أن أصبحَت تلازمه بعد وفاة ابنه خليل - يُبدي حماساً لكتاب. حتى إنه انقطع عن الطلب من كاتبه قراءة بعض الكتب التي باتت مطبعة بولاق تطبعها: كانوا يتحدَّثون في العائلة عنه إنه كان ينتقل إلى بيوت وبيوت فيسألهم قبل أن يكتب عنهم... انتقلَ مرات ومرات إلى أكثر من مدينة وقرية لكي يراها بعينيه عندما يكتب عنها... غريبٌ أمره، يا نور! الكاتب عندي هو الأعمى. أخي وأنا كان لنا مُدرِّس يعلمنا القراءة فيما كان أعمى... حين أخبرتُ قريبتي بذلك قالت لي: مُدرِّسنا يغمض عينيه عندما يبدأ بدروسه.

أنا كنتُ مفتحة العينين تماماً، وإن كنتُ أجد ما لا يخصني فيما أترجم.

تصفحتُ أوراقاً، شرحتُ مضمونها بشيء من الاختصار للشيخ. منها ما يتصل بإخبار الجنرال مينو القنصل الأول بونابرت (في 11 سبتمبر من سنة 1801) عن انهزام القوات الفرنسية في مصر، في

القاهرة، ثم في الإسكندرية، بعد تعاون الإنكليز مع العثمانيين، فضلاً عن الأمراض ونقص الأدوية: «كنتُ مجبراً على الاستقالة، ولم يبقَ تحت إمرتي سوى ألفي جندي في حالة صالحة للقتال».

كما أخبرتُ الشيخ عن وجود رسالة من الجنرال مينو إلى الفرنسيين على متن الباخرة «الوازو»، ما معناه: «العصفور»، يُعبِّر فيها عن ضيقه مما فعله الجنود إذ قاموا برفع العلمَين الإنكليزي والفرنسي فوق السفينة، واتَّجهوا من المرفأ صوب السفن الإنكليزية، ما جعلهم يتعرضون للقصف منها... ثم نعرف من رسالة أخرى أن الجنرال مينو أنجز التسوية وخرجت القوات في 31 يوليو من سنة 1801.

لعلّ آمنة انتقلت، إذن، فوق السفينة «الوازو»، ما جعل كثيرين من المصريين لا يتعرفون إليها فوق سفينتهم: «بالاس»، أو لا يعرفون بوجودها حتى.

المهندس كوست حقق مطلوبي. أرسل مساء أمس أحد السُعاة إلى البيت لكي يخبرني أن موعدنا مع مسيو جان سيكون في الغد، في مكتبه في «القلعة». هذا أفضل لي. هذا يريحني، بعد أن تضايقتُ من مسيو جان، ما لم أعرفه مع غيره. تضايقتُ من بيته، من أسلوبه في الكلام، في التصرف، خصوصاً أنه لا يبالي بمشاعر صَبية في عمري.

أحسنَ كوست صنعاً، إذ وجدتُ مسيو جان مختلفاً بعض الشيء في مكتب المهندس. كان صاغراً، بل مسكيناً. راح كوست يُذكِّره بأنه كان في عداد الموتى اليوم لو لم ينقذه الباشا من موت محتم مع المماليك في العشاء الشهير في «القلعة». وهو ما يؤكده مسيو جان

بعده، فيما يبلع ريقه، ويرتبك في شرب فنجان القهوة، كما يهتز الغليون في يده الأخرى.

لم يأتِنا مسيو جان بشيء جديد، سوى تأكيده، وتأكيد من اتصل بهم من الجنود والضباط السابقين، بأنه كان لبونابرت ولعٌ بالكنافة، وأن إحدى المصريات كانت تتقنُها، وكان يطلب منها إعدادها كلما كان في القاهرة... ثم توقف مسيو جان عن الكلام، واقترب من المهندس كوست، وأسرَّ له في أذنه بعدد من الجُمل، ما لم أحسن سماعه.

ما أن عاد مسيو جان إلى مقعده، انطلقَ من جديد في شكواه من الزمن، من ملاحقات الشرطة له لبيعه المشروبات الكحولية في محله في «الموسكي»، ومن حاجته إلى حماية الباشا. إلا أن كوست لم يكن متساهلاً معه، بل راح يسأله بشيء من التنديد: لماذا لا تعود إلى فرنسا؟ لماذا هذه الحاجة إلى قصر وخدم وحريم ومصروفات كثيرة، فيما تتقدم بالسن، ومن دون وارث واحد؟!

كان مسيو جان صاغراً في كرسيه، متكوماً فيه، يكاد يرسم كتلة كروية. لكنه كان يتمزق في واقع الحال، أو يبالغ في إظهار ألمه مما آلت إليه الأيام: أنتَ تعرف أفضل مني أنك لا تقوى على العيش من دون خدم ومعاونين في هذا البلد. أنا أجنبي مثلك، يا مسيو كوست، أنت لا تعيش براحة وأمان لولا وجود الباشا وأعوانه حولك، وأينما كنتَ. أما أنا فأحتاج إلى أيدٍ أخرى تساعد يدي في أعمالها... وأحتاج إلى عيون مزيدة لكي تراقب مع عيني ما قد يهددني... بالمقابل أحتاج إلى عقل واحد، هو عقلي، وإلى قرار واحد، هو قراري...

لما انتقلَ كوست من مكتبه إلى خارجه، بعد أن أتاه أحد

المعاونين بورقة، اقترب مسيو جان من كرسيَّ، وأكملَ من دون توقف: كان الأمر هيناً لو اقتصرَت الخدمة على مساعدَين اثنين أو ثلاثة. . . لكن القيِّمة على الطبخ تحتاج إلى أكثر من معاونة لها، والمعاونة تحتاج إلى من يقوم بدلاً منها بإعداد مواد الأكل أو بنقل النفايات. . .

كان مسيو جان ماضياً في أحاديثه، فيما كنت أخربش أي كلام في دفتري متظاهرة بالكتابة. ولما وجدني غير مبالية بما يقول، اقتربَ مني حتى كاد وجهه المدور يلامس الحجاب: لن يقول لكِ كوست ما قلتُه له: أملكِ كانت على علاقة غرامية ببونابرت. . . هذا ما أجمعَ عليه كلُّ من اتصلتُ به لفائدتكِ. أسدلتُ المنديل الأبيض على وجهي، واتجهتُ إلى خارج المكتب، فيما كنتُ أتساءل: من قال له إنها أمي؟!

ما قاله مسيو جان أعَدتُه على مسامع الخوري روفائيل، لما استقبلني في مكتبه غير البعيد عن مكتب كوست. أعَدْتُه بعد أن علمت منه، في موعدنا السابق، أو في قراءة النبذة التعريفية عن سيرته، أنه كان مقرباً للغاية من بونابرت، سواء هنا أو في باريس: كان بونابرت يهوى النساء، لكنه كان عجولاً دوماً، خصوصاً في مصر. لم يكن له وقت لكي ينصرف إلى هذه المغامرات. . . كان حذراً للغاية في مصر، ولكن ليس مع الفرنسيات، إذ كانت له عشيقة، وهي زوجة أحد الضباط ثم مطلَّقتُه. . . ووبَّخ أكثر من جندي وأكثر من جنرال حين عرف بتعديهم على شيخ أو تاجر أو امرأة بالطبع من المصريين والمصريات. هذا يعني أنه كان حريصاً على إبداء صورة حسنة عن الفرنسيين، خصوصاً أن المشايخ أبدوا اعتراضات كثيرة على سلوكات ضباط فرنسيين ممن أتوا بزوجاتهم معهم، إذ كانوا يتصرفون

في شوارع القاهرة ومقاهيها أو محلاتها العمومية كما لو كانوا في «شارع الكانوبيير» أو في «جادة الشانزيليزيه».

كان الخوري حذراً كعادته، وانصرفَ، كما يحلو له في الكلام، إلى التحليل، الذي قد يكون موفقاً، لكنه لا يجيب على مطلوبي: أنتَ، أيها الخوري، أيها الترجمان الكبير، ماذا عرفتَ؟ ماذا شهدتَ؟ لعلّ الخوري تضايقَ من توجيه كلامي إليه بهذه الصورة: أنتِ لا تزالين مراهقة، يا ابنتي... أنتِ لا تعرفين بعدُ شهوة السلطة... لكِ أن تقرأي أكثر عن سِيَر العظماء... لكِ أن تتساءلي بعد ذلك ما إذا كانوا يرغبون في السلطة أكثر من النساء أو العكس. لكِ أن تتساءلي ما إذا كان اقترابهم من هذه المرأة أو تلك مجرد نزوة... مجرد شهوة... مجرد رغبة مديدة. لكِ أن تتساءلي، يا ابنتي، ما إذا كان الحاكم - حتى لو لم يكن من «المماليك» - يهوى التملك بدوره: تملكَ الأرض والعباد.

كان الخوري أكثر من محنَّك؛ كان عارفاً في سياسات الشرق، غير أنه حدَّثني فيما لا أعرفه عن النزوة والشهوة والرغبة وغيرها. أيكون الخوري أقل نسكاً من والدته «الراهبة»؟ إلا أنني ما لبثتُ أن عاودتُ السؤال عليه: أعرفتَ أمي؟ أعرفتَ شيئاً عنها مع بونابرت أو غيره؟ قام الخوري من وراء مكتبه، واتَّخذَ كرسياً إلى جانبي. أخبرني أن الجواب على هذا السؤال قد يتوافر في باريس نفسها، لا في مرسيليا، ولا في القاهرة. ثم أخبرني أن السيدة زبيدة تعيش في باريس، ولم تفارقها أبداً بعد وفاة زوجها الجنرال مينو: هي من لها أن تجيبكِ أفضل من أي شخص آخر.

عندما كنتُ أُدوِّن عنوانها في دفتري، استعاد الخوري الكلام: أسمعتِ بالفنان دافيد؟ لم أجب بطبيعة الحال. أتعرفين أنه رسم

لوحة هائلة المقاسات عن الطقس الاحتفالي الذي شهد تكريس نابوليون إمبراطوراً في العام 1804؟ أنا أظهرُ في هذه اللوحة. . . دعاني دافيد إلى المجيء إلى محترفه لتصوير ملامح هيئتي، ولو بعد وقت على الاحتفال، إذ قام بتصوير اللوحة بعد سنتين.

لم أفهم ما يريد الخوري قوله. بقيت صامتة ناظرة إليه. ثم استعاد الكلام: يا ابنتي، لا يهم أن تعرفي سيرة والدتك إن لم تعرفي إذا كانت هي المقصودة بالأخبار. . . أنتِ لا تمتلكين رسماً لها بطبيعة الحال، ودافيد لم يقُم برسمها من دون شك. أملكِ عملت في خدمة السيدة زبيدة، كما تقولين. . . هي قادرة على تأكيد اسمها: آمنة المنصوري. . . هي قادرة على معرفة ما إذا كان من تصفين من ملامح أمك يوافق ما تتذكره عنها.

قبل أن أخرج من مكتبه، استوقفني الخوري وسألني ما لم أكن أتوقعه: أيتحدث معكِ الشيخ الجبرتي؟ أهو يمدُّك بأخبار مفيدة؟ لم أحسن جواباً لوجود نبرة تهكمية في كلامه؛ ثم أرفقَ أسئلته بابتسامة خفيفة، كما لو أنه يقول لي: أنا في قمة السلطة، والجبرتي في عتمة الانعزال. فكان أن أجبتُه إن الشيخ يعاونني، ومكّنني من قراءة وثائق نادرة، ما أثار دهشة الخوري.

دعاني الخوري إلى العودة من جديد إلى مكتبه؛ طلبَ مني الوقوف بجانبه في زاوية مطلة على القاهرة: كلنا مرشحون للسقوط من قمة «القلعة». . . الشيخ فضّلَ السكوت. . . هذا شأنه. . . ربما هذا أفضل وأسلم.

حرتُ جواباً فيما أقول، وهو ما بلغ كوست نفسه، فكان أن أخبرني عن أن شائعة تحيط بالجبرتي، وهي أنه رفض كتابة سيرة محمد علي، ما عرَّض ابنه، خليل، للقتل.

الفصل الثامن

نور تَعهد بدفاترها إلى جوزف ميري

كانت الطريق بين بولاق ومرسيليا عبر الإسكندرية أطول بكثير مما كانت عليه رحلتي إلى الشرق. في ذلك ما يكفي من الوقت لكي أراجع ما جمعتُ من معلومات، ولكي أدقق فيما إذا كانت هذه كلها تتيح رسم مسار، أو حكايةٍ مقنعة عن والدتي. ما يكفي خصوصاً لإعادة تدوين ما كتبتُ بلغة سليمة، إن توصلتُ إلى ذلك، ما دام أنني سمعتُ ما لم أفهمه تماماً، ولم أشهد مثله، ولا سيما من ناحية المشاعر والأفكار. كنتُ في ذلك كله أشعر بنبض الكلام، إن جاز القول، متكلة خصوصاً على نبرة المتكلم فيما يحكيه. وما يزيد من شكي هو أنني كنتُ أهجس بسيرة أمي أكثر مما كنت أرسمها. ولستُ أكيدة من كون ما قابلتُ قد أصدقوني القول أم جارَوني فيما كنت أميل إليه.

ما هو أكيد أنني أقبلتُ على التدوين في دفاتر، وقبله أقدمتُ على السفر، من دون استعداد كافٍ. عمري وخبرتي ومعارفي ما كانت لتتيح لي استعداداً أقوى من دون شك. لعلهم كانوا يتنصلون - بلطف - من أسئلتي الملِحّة: هذا يصحُّ في من غادرتُ قبل أيام في القاهرة؛ وهذا يصحُّ أكثر في من سيستقبلونني بعد أكثر من شهر في مرسيليا.

لا أعرف بعدُ ما سيكون عليه موقفي مما عرفت. هذا ما

سأختبره شيئاً فشيئاً، وأنا أنزِّه نظري في هذا النخيل المترامي، أو في هذه المياه الهادئة. أُفضِّلُ أن أكتب هذا بدل أن أعوِّل على ما عايشت في لياليَّ الأخيرة في القاهرة من مشاعر كريهة وصور قبيحة كانت تَعبُرني وتحتلني في فراشي، فأتقلَّب فيها من دون أن أعرف ما إذا كنتُ أنام فألقاها في المنام، أم كنتُ أفكر فيها صاحية من دون أن يأخذني النعاس إلى واديه العميق. بقدر ما كنتُ أتقدم في احتمالات سيرة أمي، كنتُ أشعر بأن الظلمة تزيد عليَّ في الدهليز الممتد الذي كنت أتوجه فيه. كنتُ أتوجس وأخاف مما قد أقع عليه: أكانت آمنة عشيقة بونابرت؟ أعاشرَته تحت الضغط أم برضاها؟ أأقامَت معه قصة انقطعت بمجرد أن بدأت؟ أهذا ما قصده الخوري روفائيل في حديثه عن: النزوة؟ أأكون أخشى - وهو ما أكتبُه لأول مرة فيما راود مخيلتي أكثر من مرة منذ شهور بعيدة - من اكتشاف كونها مومساً تحت الضغط أو برضاها؟ ذلك أنني لا أعرف أبي، ولم تحدثني عنه قبل اختفائها... ربما لصغر سني. يصعب أن أكون ابنة بونابرت لأن ولادتي لا تعود إلى أيام الحملة، بل إلى ما بعدها. أأكون ابنته بعد خروجه وخروجها من مصر؟ أبقيَ يستطيب تذوق الكنافة من يديها في مرسيليا؟ أيعقل أنه والدي وكنا نعيش في ذلك البيت المتواضع، فيما تعيش الست زبيدة في قصر فاخر في باريس، على ما قيل لي!؟

هذه الأسئلة وغيرها رافقتني في ليالي القاهرة الأخيرة، عندما كنتُ أجدها أمامي على الجدار، ولا تختفي بمجرد إغماض العينين. وما كان يخفف منها سماعي لنباح الكلاب الذي لا ينقطع، ولا حَكِّي لجسمي من جراء الحشرات الثقيلة التي تلسعني من دون أن أراها أو أسمع صوتاً لها.

حالُ الشيخ الجبرتي ساعدت في إقلاق لياليَّ الأخيرة بدورها.
لم ألتقِ به مرة أخرى، بعد كلام كوست عنه، لأنني ما كنتُ لأتأخر عن سؤاله عن محمد علي وعن موت خليل... أُجبر الشيخ على السكوت، فضمن حياته ولكن من دون كتاب مزيد. أتكون الكتابة خطيرة إلى هذا الحد؟ أتكون مرغوبة إلى هذا الحد؟ أهذا ما يجمعني بجولي، وبأنطونيو، وبالشيخ من حيث لا أعرف، ولا أقصد؟

زاد قلقي، وخفَّ نومي، فيما كنت أشعر صاحيةً بأنني أتقدم في رسم شبكة ممكنة لسيرتها.

حسين يعود معي. يرافقني مخافة تعرُضي لمشاكل في السفر. هذا ما قالَه لي عندما قررت موعد العودة. هذا ما قاله لعائشة ومحمود وعبد السلام وبقية أفراد العائلة. يرافقني على أن يعود نهائياً إلى مصر بعد شهور قليلة، بعد تصفية أعماله في مرسيليا. لم أفهم ليلتها ما يقصد في حديثه عن أشغاله في مرسيليا. والغريب أن أحداً من عائلته لم يعترض.

اعترفَ لي، بعد إقلاع السفينة من الإسكندرية، بأنه لن يعود إلى القاهرة، أي إلى عائلته. كان في القاهرة معي، ولم أجد في حركاته، في مشاعره، ما يربطه بهم من جديد بعد طول انقطاع: كنتُ قد انفصلتُ منذ سنوات بعيدة عن عائلتي... منذ التحاقي بحملة بونابرت، وقبل إقامتي في مرسيليا... سأعود ضعيفاً إلى القاهرة. من دون سند. سأعود محتاجاً إلى إحسان ابن أخي علي... في مرسيليا لي عمل، وإن بسيط في الفندق، عدا أنني ما زلتُ أُحصِّلُ إعاشتي من الحكومة.

كان يقف إلى جانبي منحنِيَين على السياج الحديد في عالي

السفينة، فنتحادث كما لو أننا نتحدث مع البحر. رفعتُ نظري إلى وجهه الجانبي؛ كان في ودّي تقبيله. لم أُقدم على ذلك طبعاً. كنت أشعر كما لو أنني أمه، فيما كان أقرب أن يكون مثل الأب الحاني من دون إظهار عواطف جياشة. لا، لم يكن حسين يحتاج إلى حناني، بل ربما إلى عاطفة كوليت. كان قد بنى لنفسه بيتاً يتحرك فيه ويعود إليه، وإن كان لا يملك شيئاً من هذا البيت الخيالي. بخلافي...

هو وجد عائلته من جديد، فيتملص منها، وأنا أبحث عنها على مسافة آلاف وآلاف من الفراسخ من حيث أعيش، ومن حيث باتت لي علاقات وصلات. أبحث عنها. أستعيدها بالتذكر، بهذه الكلمات الضعيفة. أستعيدها، لا لأنها أمي - وقد ضاعت مني إلى الأبد - بل لأرفع ظلماً عنها. هذا الدفتر ليس لي؛ إنه لها.

كان حديث مسيو جان كاذباً، إذ إنه لم يكن على مقربة مما تحدَّثَ عنه، مما قد جرى لآمنة أو معها. كان عليَّ البحث عنها، أو تفقدُها عند من عايشوها، مثل جارتها مارلين، أو جيرانها في الحي: مارلين كانت قد تركت الحي قبل أيام على حصول «المجزرة»، واتجهت إلى بوردو للمشاركة في جنازة والدتها، على ما قال لي حسين. أما جيران الحي، فلم تكن آمنة على صلات أكيدة بهم. مع ذلك، فإن الزيارة لازمة، خصوصاً أنني لا أملك أي معلومة أكيدة عن خروجها معي من البيت ومعها كيساها فقط. لم أسمع أحداً يتحدث عن موتها. لعلي - لو قابلتُ أفراد الحي من المصريين - ألتقط منهم ولو خبراً صغيراً ينير هذه العتمة المطبقة على ساعاتها الأخيرة قبل تركي فوق عتبة الفندق. أيُعقل أن أحداً لم يَرَها في ذلك اليوم المشؤوم؟ أيُعقل أن أي تقرير للشرطة لم يسجِّل غيابها، أو وفاتها!؟ ألا يكون في مقدور السيد جيراردون إعانتي في الكشف عن مصيرها؟

كان حسين محقاً فيما قاله لي عن المصريين، إذ توفي بعضهم، فيما امتنع البعض الآخر (كما حدث لأنطونيو قبلي) عن تذكر أيام «المجزرة»: كانت أياماً كريهة. . . لماذا تريدين استعادتها!؟ أتعرفين أن كثيرين منا بدَّلوا ثيابهم المصرية والعثمانية بعد «المجزرة»، وباتوا يرتدون البنطلون والسترة والفستان؟ أتعرفين أن بعضنا انتقل إلى السكن في أحياء أخرى؟ أتعرفين أن عشرات منا ضاعوا في الطبيعة لا نعرف عنواناً لهم؟

السيد جيراردون وعدني (لما التقيتُه مع السيدة جولي في الفندق) بتفقد محفوظات الشرطة للتدقيق في اختفاء أمي؛ فكان أن دعَتني السيدة جولي لزيارتهما بعد أيام. هذا ما كنتُ أنوي تدبيره بعد أن علمتُ، في دفتر أنطونيو، أنها دونَت أخبار «المجزرة» وغيرها في «مذكراتها». اقترحَت السيدة جولي، أثناء الزيارة، إمكان مساعدتها في عمل البيت، مثل أمي قبل سنوات. وهو ما وافقتُ عليه من دون تردد؛ ووضعتُ في حسابي إمكان الاطّلاع على دفترها أو دفاترها، وهو ما لم يكن بالصعب، إذ وجدتُها مرتبة بحسب تواريخ السنوات، بل لم أتأخر عن سرقة دفترَين مناسبَين لما قبل «المجزرة» ولها، مثلما فعلَت كوليت مع دفاتر أنطونيو.

استعدتُ في المقهى البحري دفترَي السيدة جولي، ورحتُ أستنسخهما ورقة ورقة تحت نظر مسيو ميري. اكتفى، ذات يوم، بأن مرَّ إلى جانب طاولتي، وألقى كلمة وحيدة: أنا مشتاق. . . ابتسمتُ في داخلي، إذ إنني اشتقتُ بدوري من دون أن أعرف ما إذا كان شوقي هو إلى المقهى أم إلى جوزف.

كانت عودتي إلى مرسيليا فرحة، ما أن أعلمنا ربان السفينة عن قرب وصول السفينة إلى المرفأ. حتى إنني رحتُ أتبين معالم

مرسيليا، فأتعرف إلى بعضها مثل كنيسة السيدة العذراء العالية، فيما كنت أرى إلى المدينة وأنتبه إلى اتِّساعها، وإلى أنها تحتاج إلى أكثر من زيارة ونزهة في معالمها المختلفة.

كوليت أجهشَت بالبكاء حين رأتني، فيما بدا لي أنها لم تكن متفاجئة لعودة حسين معي. راحت تخبرني عما جرى في مرسيليا، وفي الفندق، أكثر مما تسألني عن القاهرة، وعن الأسابيع الطويلة التي أمضيتُها فيها. اكتفت بسؤال وحيد: أعرفتِ شيئاً عن أهل آمنة؟ ولما أهديتُها أكياس البهارات، والحبوب، والفواكه المجففة التي جلبتُها معي لها، أخذَتها فرحة لكنها تابعَت بالقول: ما كان لكِ أن تتعبي نفسك... هذه كلها نشتريها، اليوم، من سوق الخضار خلف الفندق.

استعدتُ أسماء من دفتر السيدة جولي، من دون أن أقع على ذكر آمنة: قالت إنها اختفت، وإنها ربما قُتلَت. أما السيد جيراردون فأخبرني أنه وجد وثيقة تفيد في مركز المحافظة عن أنها ميتة، من دون ذكر أي دليل أو تفصيلات. والغريب، بحسبما قال لي، أن أحد الضباط، المُسمّى ألفيران، هو الذي شهد على خبر الوفاة من دون أن يكون في عِداد ضباط مرسيليا.

زيارتي للمكتبة العمومية حملت أكثر من مفاجأة، إذ وجدتُ جوزف ميري في زيارة لها؛ بل تأكدتُ كذلك من أنه أخ لويس العامل فيها. كما لو أننا على موعد فعلاً، إذ كان جوزف يجمع معلومات عن بونابرت في مصر، فيما كنت أبحث عن أسماء الجنود والضباط في «جيش الشرق»، ما دام أنني افترضتُ أن من في إمكانه التعريف بأمي، بشهادة موتها، هو من عرفَها على الأرجح في مصر أو بعد ذلك، ويكون في هذه الحالة من «جيش الشرق».

لم تتوقف المفاجآت في نهاري، إذ خلص لويس بعد المراجعة والتدقيق إلى أن الضابط ألفيران لا يعدو كونه أحد مساعدي الجنرال مينو في مصر. كنتُ فرحة بما توصلتُ إليه. لم أعارض عندما دعاني جوزف إلى شرب فنجان قهوة في المقهى البحري، فقلتُ له ضاحكة: أيمكنني شرب فنجان شاي بدل القهوة؟

أعاد نادل المقهى التحديق في وجهي أكثر من مرة. ألغيابي الطويل عن المقهى أم لجلوسي مع جوزف وجهاً إلى وجه على الطاولة عينها أم لأنني كبرتُ بحيث اختلفَت ملامحي؟ جوزف فحصني بنظراته بدوره لما حدثتُه عن سفري. فتحَ فمه الدقيق لما أخبرته به: هذا أمر من حسابات القدر. . . أتعرفين أنني أتنقل في مصر في هذه الأيام فوق سفينة أسرع من السفن البخارية؟

كان جوزف يقرأ فيما يحلم، ويحلم فيما يتكلم. يتكلم بسرعة غريبة لم أعرفها عند غيره. بريق يلمع في عينيه الجميلتين، فلا يخفف من عذوبة تعابير وجهه سوى اللحية التي استطالت من دون ترتيب. كما كان يرفق كلامه بإشارات من يديه من دون أن تتعدى حدود الطاولة المربَّعة. نقلني جوزف إلى حيث كنت لأسابيع طويلة، فما كنتُ أعرف عما كان يتحدث. يذكر أسماء مثل هيرودوتس وأخناتون وكليوباترا من دون أن أكون قد سمعتُ بها. حدَّثتُه بالمقابل عن الشيخ الجبرتي والخوري روفائيل والمهندس كوست من دون أن يسمع بهم هو الآخر. من التقينا حول أخباره، بل الوحيد، كان: بونابرت. سألني عن الأهرامات، فلم أحسن الحديث عنها، إذ رأيتُها عن بعد. كلَّمتُه عن «حي الحسين»، عن الجامع الأزهر، عن مشاهد الإنشاد الديني، عن ضباط بونابرت «التائهين» في الصحراء المصرية. . . كان

ينظر إليَّ بعين الدهشة، بعد أن سمح لي بالكلام، أي بعد اندفاعاته القوية، وبعد أن تأكد (على ما أظن) من أن ما يتحدث عنه يفتقر إلى الحياة، إلى الرؤية، إلى المعاينة بالأحرى.

راح يحدِّثني عن لزوم دعوتي إلى مجلس إحدى السيدات في مرسيليا، الذي تدعو إليه كُتاباً ومثقفين مختلفين للتناقش في أمور الأدب. لم أفهم ما يتحدث عنه؛ لم أعلِّق. كنتُ أكثر إصغاء حين أعلَمَني بمشاركة بعض أصدقائه، من الصحافيين خصوصاً، في هذا المجلس: بعضنا يلتقي مع بعض في هذا المقهى... وأنتِ من قادكِ إلى المقهى؟ مَن السيدة التي رافقتكِ في مرات سابقة؟

كان جوزف يكبرني بسنوات أكيدة، لا تظهر في شكله فقط، وإنما خصوصاً فيما يتكلم عنه، فيما يدَّعيه أو يسمو إليه. كان يتقدمني، فيما كنتُ أقف على عتبة أخرى، غير عتبة الفندق السابقة. شعرت للحظات بأنني أشبه بأخته الصغرى، إذ لم يبادرني بأي كلمة عاطفية، بأي تفسير، خصوصاً لقبلته الطائرة. لم يسألني عن اسمي، ولا عن مكان سكني، ولا عن عملي. حتى كوليت (التي لم أذكرها بالاسم) لم يسألني عنها حين أجبتُه إنها جارتنا. كان معي، ولكن من دوني. لهذا بدَت دعوته لي لمرافقته إلى حفل راقص دعوة غريبة، غير متوقعة. شكرتُه، واعتذرتُ منه، لكونيَ لا أعرف الرقص. لكنه أردف قائلاً: ومن قال لكِ إنني أتقنُه... ستكون مناسبة جميلة ليس إلا.

الغريب هو أنه شدَّ على يدي اليسرى، قبل أن أسحبها منه، من دون أن أفهم مغزى ذلك. لم يبادلني أي كلمة عني، عمن أكون. تماماً مثلما فعل عندما انتزع قُبلة من شفتيَّ في تلك الليلة الساهرة قرب الفندق. كنتُ أودُّ لو كان برفقتي في شوارع «خان

الخليلي». . . أن أمرر يدي على لحيته بنعومة. . . أن أضع رأسي على كتفه، وقد نسيتُ هذا من عادات نومي منذ غياب أمي. . . لعلي كنتُ قبَّلتُه، أو سمحت له بتقبيلي قبلة طويلة عندها.

مع ذلك، كنتُ فرحة عندما بلغتُ الفندق معه في العربة، من دون أن أخبره بكوني أسكن فيه. لم ألتزم بأي موعد معه. لم أكن أعرف ما أعايشه. هناك أكثر من فارس حملني فوق حصانه ليلاً، أو لما كنتُ فوق سطح السفينة في طريق العودة. أأكون غبية إلى هذا الحد؟ أأكون بعيدة عما تعايشه بنات جيلي؟ لم تنتبني هذه المشاعر، هذه التساؤلات، في القاهرة، ما دام أنني كنتُ مشغولة بغيري، مثل جندي مكلف بمهمة إنقاذ عاجلة وملحة. لكن زيارتي للقاهرة لم تُتِح لي إمكان التعرف إلى أي شاب، فيما خلا كاتب الشيخ الجبرتي الذي يكبرني بسنوات عدة. كلهم كانوا أقرب إلى أن يكونوا من أجدادي، ما دام أنني كنت أتابع حكاية مضت منذ عشرين سنة وأكثر. أما مع جوزف فيبدو الحال مختلفاً، إذ ظهرَت منه التفافات أكيدة صوبي، مثل دعواته ومواعيده المقترحة وغيرها؛ إلا أنها أبقَتني بعيدة عنه، كما لو أنه يأخذني إلى حيث يريد، إلى حيث يخطط.

كوليت سخرَت مني، لما أخبرتُها بما جرى بيني وبين جوزف: لا تكوني غبية. . . أنا أذكر. . . أذكر التفاتاته القوية صوبنا، صوبكِ بالأحرى في المقهى. . . كان لكِ أن تقبلي دعوته إلى الحفل الراقص. لم أخبرها طبعاً بقبلتنا الطائرة واليتيمة.

نسختُ دفترَي السيدة جولي تماماً، وأعدتُهما إلى درج مكتبها بطبيعة الحال، من دون أن يبدو عليها أي سؤال. أفادني أحد الدفترَين بحديثه الدقيق عن «المجزرة»، لكن ما أثارني فيه خصوصاً

هو حديثها عن نفسها، عن زواجها الفاشل، عن متعتها الخالصة مع عشيقها. كيف لسيدة محترمة مثلها أن تتذوق هذا الحب الحرام؟! السيد جيراردون ينام في بيتها من دون أن يتذمر من ذلك أي جار، على ما تأكدتُ في أكثر من نهار جمعة انصرفتُ فيه إلى بيتها لتنظيفه.

سمحتُ لنفسي، ذات يوم، بعد الانتهاء من عملي، أن سألتُها عن أمي. كانت يومها متوعكة، لم تفارق شقتها مثل عادتها في كل يوم جمعة. اعتذرَت عن الجواب إذ إن معرفتها بها محدودة للغاية، اقتصرَت على تبادل كلمات قليلة، ما دام أنها كانت تتركها للعمل في البيت، وإذ تعود، تفارق الوالدة البيت مستعجلة للحاق بي. أتعرفين، يا نور، أنها أتت بكِ لمرتين أو ثلاث معها إلى هذا البيت؟

شملتني السيدة جولي في حديثها عن المصريين، وجعلتني، أنا بعد أمي، من الضيوف. أأنا مصرية؟ هذا ما أشعرني به البعض في القاهرة، بل وجدتهم يُجملونني معهم من دون أي تمييز. أنا غريبة في نظر السيدة جولي فيما يصنفني القانون الفرنسي بأنني فرنسية، ولي الحقّ بالجنسية، ما دام أنني وُلدت في فرنسا. وإذا كانت أمي مصرية، فإن والدي قد لا يكون مصرياً، بل فرنسياً ربما، بدليل أنني لست بسمرة أمي.

أنا ابنة بونابرت المصرية بأي حال. أنا ابنته حتى لو لم يكن والدي الطبيعي. هو من دون شك من جعل هذه الحيوات تلتقي، ما جعل شرايين دمي تعبر المتوسط في الاتجاهين.

قلما أجتمعُ وحدي بالسيد ريمون. يبدو لي شخصاً متخفياً، على الرغم من أننا نعيش تحت سقفه. قليل الكلام، فيما تشير عيناه

البراقتان إلى أنه يتابع بشكل قوي ما يجري حوله، ما يسمعه، من دون أن يتدخل كثيراً. هو رجل سري فعلاً حتى لمن يعرفه منذ زمن بعيد، مثل كوليت. هذا ما يبدو عليه في اجتماعات العشاء الدورية التي لا أعرف سبباً لاجتماعها منذ سنوات.

قبل يومين، هو الذي دعاني إلى الجلوس إلى طاولته في مكتب الاستقبال. بدا لي، من كلامه المتقطع، أنه يتابع «تحقيقي» في هوية عائلتي المختفية. ومن دون سابق إنذار أخبرني أن السيد جيراردون أخبره في العشاء الأخير أنه اكتشف أن الحكومة ملزمة بدفع مبلغ مالي مستحَق لي، وأنه يعود إلى بدل الإعاشة التي تخص والدتي، وإلى بدل آخر يخصني، بعد أن تأكد من أن والدتي سجلتني في العام 1810، وأنا طفلة، في عداد المستفيدات من أطفال المصريين: المبلغ كبير... لا يحتاج الحصول عليه إلى مجهودات إدارية مضنية... وإذا طالبوكِ بإيجاد وصيٍّ عليك، فأنا مستعد لذلك.

حرتُ فيما أقول له. كدتُ أن أُقبِّل يده وهي أمامي، إلا أنه سحبَها، وقال لي: نحن لا نفعل ذلك حتى مع المطران! لكن مقابلتي معه حملت عرضاً جديداً، إذ اقترحَ عليَّ العمل المنتظم في الاستقبال في الفندق، ولساعات ثابتة في اليوم الواحد، ما دام أنني أنهيتُ دراستي. كنتُ فوق دروب ودروب، وقابلت أشخاصاً ما كنتُ أعرف أسماءهم. هكذا احتللتُ مكاناً كان مندثراً. بات من التقيتُ بهم يدرك بوجودي، بأن لي كياناً، عائلة، فلا يحق لأحد بعدُ أن يخفيها. لم تكن رحلة القاهرة سيئة؛ هي التي قرَّبتني من نهاية الدهليز.

زيارة باريس باتت لازمة، وهو ما حسبتُه منذ وقت، غير أن عليَّ تدبير محل إقامتي فيها، وكيفية الوصول إلى بيت الست زبيدة. وماذا عن الضابط ألفيران الذي لم يحادثني به أحد في السابق؟ ما

صلتُه بأمي لكي يشهد بكونها متوفاة؟ أهو قاتلُها أم المحقق في جريمة قتلها؟

كوليت رفيقة الرحلة هذه المرة. هذا ما وعدَت نفسها به. سيكون في حوزتي مبلغ من المال بعد أيام، ما يفيض عن حاجتي من دون شك. السيد ريمون نقلني من حال إلى حال. بات لي أن أقوم بنفسي. بتُّ مسؤولة عما أكون. بتُّ ربة عائلتي بمعنى من المعاني. اختفت المراهِقة؛ لي أن أتصرف، أن أتكلم، أن أظهر، أن أتكل على نفسي.

إذ أقترِبُ من مصير أمي، أجدني أُعوِّض عن السنوات الغائبة التي انقضت بيني وبينها: تركَتني فوق عتبة فندق في الثامنة من عمري، فوقفتُ أنتظرها، أما اليوم فإنني أركض في اتجاهها، في العتمة التي أَطبقَت عليها.

أخبرتُ لويس ميري عن زيارتي المحتملة إلى باريس. دلَّني على السبيل المناسب لمعرفة مكان تواجد أو عمل الضابط ألفيران؛ وهو ما أكَّدَه لي في اليوم التالي الضابط جيراردون. أعلمتُ الضابط بالسبب الداعي لزيارتي، فيما حار جواباً حين سألتُه: كيف يعقل أن ضابطاً لا يعمل في أجهزة المدينة هو الذي يشهد على موت والدتي؟ أيُعقل أنه قاتلُها؟ نفى جيراردون مثل هذا الاحتمال قطعاً، إذ لا يُعقل أن يشهد في ما هو قاتل. . . قد يكون هو الذي جلب معلومة وفاتها سواء من باريس أو من مرسيليا أثناء مروره فيها. . . ويكون السؤال الفعلي بالتالي: لماذا شهد على كونها ميتة؟ أله مصلحة في ذلك؟ ما يمكنها أن تكون بالنسبة إليه، وهو ليس بوارثها في أي حال؟

أما لويس فأخبرتُه بسبب آخر لرحلتي الباريسية، وهو لقاء إحدى

قريباتنا المصريات بعد طول غياب. كان فرحاً لنزولي: سيتاح لك رؤية المدينة الساحرة، التي جعلها نابوليون تضاهي روما القديمة. أمدَّني بعناوين مدرسة اللغات الشرقية، وبأسماء بعض أساتذة العربية والشرقيات من العرب ومن الفرنسيين، الذين بلغَته أسماؤهم من قراءة الكتب والمجلات والجرائد التي يُمضي نهاره معها. ثم سألني: أصحيح أنكِ قبلت دعوة أخي، جوزف، لإلقاء محاضرة في المجلس الأدبي؟

لم أُجب على سؤاله، فكان أن عاد إلى طاولتي ووضعَ أمامي عدة كتب؛ واحد منها يخص السيدة إليزابيت بيركلي، الشهيرة باسم: مايليدي كرافن، التي قامت بنفسها برحلة إلى الشرق، وما لبثت أن وضعتها في كتاب: هناك غيرها أيضاً... يؤكد لويس، فيما يظنني أنتسب إلى مجموعة النساء هذه، وأنا أتعثر في المحادثة، فكيف في الكتابة! لعله حالم، مثل جوزف، أخيه، وإن كان يكبره، على ما أظن.

استكمل جوزف في المقهى ما بدأ به أخوه في المكتبة؛ التحقَ بطاولتي بشكل تلقائي، وأعلمَني بما دبَّرَه لي من فرصة، بحسب تعبيره. لكنها كانت ورطة. كيف لي أن أتكلم في مجلس، وأنا كنتُ أرتبك بمجرد طلب الخوري طويل مني تلاوة بعض المقاطع في العربية من شعر عنترة أو من مقامات الحريري؟! كنتُ أعتذر منه من دون أن يسمعني؛ ثم انتقل إلى مفاجأة أخرى: متى قررتِ النزول إلى باريس؟ كانت دهشتي مزيدة، ولم أحسن التعامل معها. أخبرني السيد ريمون بأنني أصبحتُ راشدة، وهو ما أتلمسه في حيرتي المزيدة، وما أجده أمامي من حلول وخيارات وقرارات. هذا ما لم أعتد عليه في السابق، فضلاً عن أن جوزف لا يتوانى عن حَملي فوق حصانه الجموح.

اعتاد النادل على رؤيتي معه في المقهى، حتى إنه ابتسم ابتسامة خفيفة لما طلب جوزف فنجان شاي بدل قهوته الاعتيادية. لم أجد حرجاً في الخروج معه من المقهى، في التنزه على الرصيف المحاذي للميناء. كان الهواء خفيفاً في هذا الغروب، وكان يتهادى إلى جانبي بتؤدة لم أعهدها فيه. كان كمن يخشى وقوعي على البلاط المعتم في أي لحظة. لم يكن مرة متنبهاً إلى وجودي إلى جانبه كما في هذه النزهة. رفعتُ نظري إليه أكثر من مرة. من المؤكد أن إشعاعات هادئة من وجهي كانت تبلغه على الرغم من العتمة الخفيفة التي باتت تغلفنا بستارها الحميم.

وجدتني بين دعسة وأخرى أنساق إلى ما كان يحادثني به. حديثه العذب، الخفيف، برشاقة العصافير حين ينتقلون من غصن إلى آخر. كان قد نقلني إلى إعلان حبه، إلى دفق عاطفته الجياشة صوبي. كان في إمكانه (وهو ما فعلَه من دون شك) أن ينتقل بكلمة واحدة من حديث إلى آخر، من الكلام عن مشروع المسبح الجديد في ضاحية مرسيليا، أو محل الرياضة الحديثة، إلى الكلام عن سواد عينيَّ الغامق. أمسكَ بيدي بحجة تسهيل انتقالي من الرصيف إلى شارع فرعي، لكنه أبقاها في يده، وأبقيتُها بيده بدوري.

كان يتكلم، وأنا أسعى إلى إنزال خطواتي في الشارع، وأداور وقوف هذا وذاك، ملتهية بفستاني الجديد. كانوا بحّارة في الغالب، يصرخون فيما يتحادثون، ويتبادلون لكمات خفيفة تعبيراً عن البهجة التي تجمعهم، وهم يشربون كؤوسهم خارج الحانات المتراصفة. نساء يعبرن بينهم، ويتواصلن معهم وسط قهقهات عالية. كان هناك أيضاً عازفون على آلات، ومنشدون، من دون أن أحسن معرفة أي أغنية من أغنياتهم التي يتشاركون فيها. كنتُ فرحة بدوري؛ كنتُ

بينهم، من دون أن أكون معهم. اقتربتُ من جهة الحانات من دون أن أقوى على رؤية الداخل فيها، إذ كانت الستائر البيضاء مسدلة تماماً، وتسدُّ المنظر. فكان أن اقتربتُ من أحد المداخل، ووجدتُ أن المكان يضيق بالساهرين، بينما لم يتأخر أحدهم، الجالس على كرسي عالٍ، عن أن يرفع سيدة ويُجلسها على ركبتيه.

كنتُ أظن أنه سيُقبِّلني بمجرد انتقالنا إلى شارع معتم، لكنه لم يفعل. كان يحب الكلام كثيراً، وكان يخرج من شفتيه الرقيقتين بتلقائية مدهشة. يتكلم كما لو أنه يكتب، وكنت أستمع إليه كما لو أنني أقرأ. حدَّثني عن إعجابه بي منذ أن وجدني في المقهى لأول مرة مع كوليت: كان جلياً لي أنكِ متمردة مثلي... أنك لا تخشين من ارتياد المقهى بخلاف كثيرات بعمرك... كنتُ أدرك أن السيدة بجانبك ليست أمك، ولا قريبتك، لأنك ما كنتِ تأتمرين بها، بل هي التي تنظر إليك كما لو أنها تستأذنك قبل التكلم.

كان يكتب رواية أكثر مما يصف طبيعة علاقتي بكوليت.

لم يكن اللقاء بالست زبيدة صعباً، مثلما توقعتُ. بعد ثوانٍ قليلة على استقبال الخادم لي في بهو الاستقبال، وصلَت السيدة بنفسها، ودعَتني إلى اللحاق بها إلى الصالون الفسيح. كنتُ وحدي أمامها. هذه فرصتي الأخيرة، بل الوحيدة، مثلما كنتُ أقول لنفسي، وأنا في العربة التي تقلني صوب «شارع الشوسي دانتين».

ما أن ذكرتُ من جديد اسمي، حتى طالبتني بإعادته عليها من جديد: نور آمنة المنصوري. لم تصدق السيدة الجليلة ما يحدث تحت مسامعها، قبل أن تصيبني الدهشة بدوري، لما أعادَت على مسامعي: أأنتِ ابنة المسكينة آمنة المنصوري؟

تعرفها، إذن!

تعرفها، إذن!

ما كنتُ أنتظره منذ سنوات بعيدة، ما كنتُ أرغب في سماعه، أياً كان قائله أو مضمونه، انهالَ أمام عينيَّ المذهولتين: كنتُ أنتظر هذه اللحظة منذ وقت بعيد. . . ما كنتُ أعلم عنواناً لكِ. . .

كانت السيدة زبيدة مرتبكة، تتدافع في عينيها الصور والكلمات من دون شك، ما دام أنها كانت تبدأ بجملة، ثم لا تلبث أن تبدأ بغيرها. كانت لحظات رهيبة؛ ما كنتُ أعرف بدوري ما أرغب في معرفته، ما دام أن حالتي لا تقل اضطراباً عن حالتها. إلا أننا كنا في حالَين مختلفتَين: هي تريد أن تتخلص من حِملها الثقيل، وأنا أريد أن أتلقاه بعد طول بحث وانتظار.

توقفتُ عن تدوين ما كانت تقول، إذ أتت جُملُها مبعثرة، ومتقطعة. احتجتُ إلى بعض الوقت، إلى بعض التركيز من جراء الانفعال الشديد، لكي أقوى على تدبير سبيل للحكاية: عرفَت السيدة زبيدة أمي، آمنة، منذ زيارتها القاهرة، مع زوجها مينو: كانت آمنة قد عرفَت منذ وقت بزواجي من الجنرال. . . ولما بلغَها وجودي في القصر، حيث يجتمع «الديوان»، وجدَت الفرصة مناسبة للاقتراب مني، طالبة محادثتي في أمر. هذا ما انسقتُ إليه بعد العشاء، ما دام أنني كنت أدرك أن كثيراً من المصريين، ولا سيما من المصريات، ممن عرفوا بزواجي من الجنرال، كانوا يحتاجونني في أمور تخصهم. وهو ما كان الجنرال يشجعني عليه، لكي نبقى على صلة مقربة منهم. . . . كانت آمنة تبكي بقدر ما تتكلم. كانت تشتكي من معاملة بعض الخدم وضباط الحرس معها، من دون أن تقوى على إبلاغ أي ضابط، أو أي فرنسي بذلك. كانت فرنسيتها ركيكة، مثل

فرنسيتي في ذلك الوقت. ولم نكن معتادات على الشكوى إلا في السر، في العتمة... كان هؤلاء الخدم والحراس يُشِيعون عنها أخباراً سيئة، مهينة لعفتها... لم يكن في مقدورها حتى الانصراف عن هذه الخدمة، وبخاصة أن بونابرت أحبَّ أكلَها، ولا سيما الكنافة التي ارتبطت باسمها... كانت آمنة قد عملَت قبل ذلك في بيت السيد خليل البكري، وقبله في بيت الدرباسي... بونابرت هو الذي أعلن على الأشهاد أنها طباخة ماهرة، بعد أن ذاق أكلَها في بيت البكري... المرأة مملوكة، يا عزيزتي، حتى لو كانت امرأة حرة... كانت تخشى على حياتها... كانت تخشى على عفتها، إذ راح البعض يهزؤون بها، ويُسمعونها كلاماً قبيحاً، من نوع أنها عشيقة بونابرت حكماً، بل شهد البعض أنه وجدها في غرفة بونابرت ذات صباح... أقاويل كثيرة، فيما كانت صاغرة، لا تعرف فكاكاً ولا خلاصاً. لم يكن من الصعب على زوجي أن ينقلها معه إلى بيتنا حيث نقيم، سواء في رشيد أو في الإسكندرية قبل المغادرة. لن يقوى أحد على رفض طلبه؛ وهو ما كان. انتقلت معنا بعد أيام معدودة، ولم تعُد بعدها إلى القاهرة أبداً.

أعدتُ على مسامع السيدة زبيدة جملة استوقفَتني في كلامها: كانت آمنة مملوكة، مع أنها حرة. ماذا تعنين بها؟ أخطأتُ في طرح السؤال، أو كان من الأفضل طرحه للاستيضاح، بعد وقت، بعد أن أكون قد استعدتُ تفاصيل الحكاية الغائبة. كانت السيدة متكلمة متفوقة، وتمتلك من الخبرة ما يجعلها تتحدث بثقة، عدا أنها (بفضل زواجها على الأرجح) ترى إلى البشر، إلى أفعالهم، نظرة الواقف على تلة مشرفة. ففي حسابها، أن مجرد وصول الفرنسيين إلى مصر قلبَ حياة المصريين، حتى من كانوا بعيدين عنهم. من كان في

إمكانه أن يَحسب أنها ستتزوج من الجنرال مينو، وبعد تطليقها من زواجها الأول!؟ ثم راحت تتحدث عن العنف والسحر من دون أن أفهم الكثير مما كانت تقوله، إذ تحدثَت عن أن في العنف سحراً، وفي السحر عنفاً. . .

بلغتُ آخر الدهليز. ليس تماماً؛ لكن الأكيد أن ما قالَته السيدة زبيدة أزال غبشاً كثيراً، أعادني إلى حيث لي أن أكون منذ زمن. جعلني أقف في بيتي، إلى جانب أمي. كان كلامها متدفقاً، بعد تعثرٍ في بداياته؛ وكانت مثل سفينة ترتبك في انطلاقتها، لكنها ما أن تبتعد في البحر، حتى تمضي، كما لو أنها تعرف سبيلها من تلقاء نفسها. لعلها كانت تنتظر مثل هذه الساعات لكي تروي ما حفظَته، ما رددَته على مسامعها وحدها في انتظار أن تُسمعه لي أو لغيري.

آمنة، لما انتقلَت إلى رشيد، ثم الإسكندرية، ما كانت تدرك بالضرورة أنها تنتقل من هناك إلى باريس في الباخرة، مع عائلة الجنرال. مضت أيام وليالٍ عديدة، طويلة، قبل الإقلاع، ما كان في إمكان آمنة اتِّخاذ قرارها. لم تتردد في الإبحار معها، لما حادثَتها السيدة زبيدة: أنا كنتُ أدركُ بطبيعة الحال أن لي أن ألتحق ذات يوم بباريس، مع زوجي وابني الصغير. . . كان يحلم عبد الله (أي مينو نفسه، بعد أن اتَّخذه اسماً مسلماً له عند الزواج) ببقائنا في مصر أطول فترة ممكنة. . . سعى إلى توفير ظروف الأمان والطمأنينة للمصريين، إلا أن الشغب في القاهرة أطاح كل شيء؛ عدا أن الإنكليز كمنوا لنا في البحر، من دون إمدادات ممكنة لنا. . .

تتذكر السيدة زبيدة ما أتيح لها أن تسمعه، وأن تراه بنفسها، لا سيما في أيام الرحيل التي ما كان يُعلن عن قربها حتى كانت تتأجل.

أكثر من جندي ودَّعَ زوجته المصرية أكثر من مرة في انتظار أن يعود إليها. . . كان الخروج مذلاً من الإسكندرية. . . الفوضى دبت بين الصفوف، وزادت مع تباطؤ المفاوضات، مع الشروط المزيدة التي كان اللورد الإنكليزي يُمليها علينا. كانت آمنة هادئة في تلك الأيام العصيبة، من دون أن تعلم السيدة زبيدة سبباً لذلك. لعلها كانت تدرك أن عودتها قاتلة، إذ قالت ذات يوم: في حضور بونابرت، وكليبير، ومينو، كانوا يكيلون عليَّ التهم، فكيف لي أن أفعل بعد خروج الجنرالات كلهم؟ كانت آمنة رزينة، كما تصفها السيدة زبيدة، لكنها كانت صابرة، على ما يبدو. كانت أملكِ جميلة، يا عزيزتي. هذا يتضح من مشيتها، حتى لو كانت متجلببة بأكثر من عباءة وحجاب. . . جمالُها عبء عليها، فيما هو نعمة لغيرها. . . أتعلمين أن بعض السيدات المصريات قبلوا الاختلاط بالفرنسيين من دون أي رادع بعد أن قلن لأنفسهن: نحن مملوكات في جميع الأحوال، لما لا نختار أن نعيش كما نشاء ومع من نشاء؟

كانت السيدة زبيدة تتكلم كما لو أنها تشتكي، على الرغم من دارتها الفخمة، ومن سعادتها بابنها، سليمان مراد مينو، الذي التحق بنا لثوانٍ قليلة لإلقاء التحية في الصالون الفسيح. لم تتأخر السيدة الرصينة عن إجراء المقابلة بين حالتها وحالة أمي، إذ إن مصيرهما بات مرتبطاً بفرنسا، لا بمصر.

كان في ودّي أن أعترض، أن أخبرها عن ميتمي، وعن عملي في خدمة البيوت. . . كان في ودّي أن أخبرها أن ابنها يعرف والده، ويتباهى به، فيما تتصدر لوحته صدر الصالون. . . لم أعلِّق على كلامها، إذ إنها كانت تريد التخفيف عني من دون شك، والانتباه إلى خيارات أمي الصعبة.

لم أسألها عن أبي، إذ إنني من مواليد مرسيليا، كما تؤكد وثيقة الميلاد. لكنها حدثَتني عن أيام السفينة الجميلة، إذ أمضوا لحظات ممتعة في التحادث، في رواية الأخبار، في رسم أيام سعيدة في باريس. هذا ما يفسر كيف أن أحداً من المصريين، مثل حسين أو أنطونيو وغيرهما، لم يلتقوا بآمنة فوق السفينة، ما دام أنها كانت في عِداد القوات الفرنسية، ومع كبار القادة، فوق سفينة أخرى.

تضحك السيدة زبيدة لأول مرة، لما استعادت دروسها بالفرنسية مع والدتي في مقصورتها: كلَّفَ زوجي أحد الضباط تعليمنا دروساً في الفرنسية، بحيث لا نرتبك ونتعثر عند وصولنا. كانت جلسات ممتعة ومفيدة، فيما كان يجلس إلى جانبنا ابني سليمان مراد... كان يقلِّد حركات شفاهنا من دون أن يتلفظ بأي كلمة، فيما كنا نسخر من أنفسنا.

لم تحطّ آمنة في مرسيليا، وإنما قبلَت عرض السيدة زبيدة بالذهاب معها، وبالعمل في دارتها، في باريس.

لم تعلم السيدة زبيدة سبب انتقال آمنة إلى مرسيليا بعد سنوات قليلة على الحلول بباريس: لعلها خافت من انتقال زوجي الجنرال إلى أكثر من مدينة أوروبية للعمل فيها بناء على تكليف من نابوليون نفسه... لعلّ بقاءها في البيت أشعرَها ببُعدها عن المصريين فيما كانت أعداد كبيرة منهم توطنت في مرسيليا، وعملت وتزوجت فيها... بقيَت في بيتنا السابق أكثر من ثلاث سنوات قبل أن تقرر الانتقال: زوجي تفاجأ من قرارها، حتى إنه قال لها: المصريون يعملون على الانتقال إلى باريس من مرسيليا، فيما تقومين، أنت، بالعكس! لم أعرف سبباً لقرارها، لكنني أدركت بعد أقل من سنة

أنها أتت لزيارة في باريس، وزارتني وأخبرتني أنها قد تتزوج في وقت قريب. . . كان هذا لقائي الأخير بها.

خرجتُ من دارة السيدة زبيدة على أن أعود إليها في مرة تالية قبل عودتي إلى مرسيليا. كانت كوليت تنتظرني في مقهى قريب. جلسَت، شربَت، ذهبَت، اشترَت وعادَت من دون أن أكون قد عدتُ. لكنها لم تبدد وقتها مللاً، بل كنت من ينتظرها في المقهى حين دخلَت إليه من جديد. وجدَت الوقت الكافي قبل وصولنا إلى بيت السيدة للاتفاق مع جوزف على اللقاء به مساء في أحد المطاعم.

لم أكن أقوى على التهرب من مجيء جوزف إلى باريس، إذ كان يخطط له منذ وقت، بعد أن دعاه إلى المجيء رئيس تحرير إحدى الصحف للعمل معه فيها. كان قد أخبرني في مرة سابقة أنه يعرف باريس، وأنه درسَ فيها الحقوق، قبل أن يعود إلى مرسيليا وينشط في السياسة كما في الصحافة. لم تكن فكرة مجيء جوزف بالخاطئة، على ما قالت كوليت. هو ما قلتُه لنفسي أيضاً، إذ كان عليَّ، أنا الجاهلة بباريس، أن أسهر على طيش كوليت المحتمل فيها؛ كانت ترقص فرحاً بمجرد الكلام عن مدينة الأنوار، مثل صبية عشية عيد الشعانين.

كان السيد ريمون قد تدبر لنا فندقاً يعود إلى أحد معارفه، على مقربة من «الحي اللاتيني» في الدائرة الخامسة، وما كنا نحتاج إلى حجز وسيلة نقل بوجود البريد وعربات الجياد قرب الفندق. كما لم يكن بالغريب أن يكون جوزف في العربة نفسها، فيما كنت أتحقق ساعة بعد ساعة من صوابية وجوده إلى جانبنا. كيف لنا أن نواجه ما قد يداهمنا في الطريق الطويلة بين مرسيليا وباريس، وبين وقفات الاستراحة، وتبديل الجياد والعربات؟

كانت الرحلة ممتعة، على طولها. إلا أننا ما كنا نشعر بالملل فيها، ما دمنا لا نتوقف عن الحديث، وكوليت عن رواية النكات، بما فيها نكات «وسخة» عن خوري في مرسيليا، كان يهوى المسنات الأرامل. كان الجلوس في العربة مريحاً على الرغم من بعض المطبات، إلا أن كوليت فشلت في إجلاسي جنب جوزف، عندما كنا نتوقف أو نستريح في الطريق؛ كان مقابلي دوماً ما جعلني أعتاد عليه، وأتابع حركاته بشكل متواصل، ما أظهرَ لي مودته الإنسانية الفائقة. كنتُ أقول في سري: لو كان منافقاً لظهر النفاق في هذه الساعات المتمادية. . . لو كان متغطرساً، أو خسيساً، أو غريب الأطوار لكان ظَهر عليه. . . الغريب هو أنه بدا لي أكثر حنواً عليَّ، أكثر انتباهاً مما هو عليه في المقهى؛ كان ودوداً للغاية، ما ذكَّرني بصورتي الأنثوية عنه في أول تعارفنا.

لم يُبقِ شيئاً من حياته إلا وأخبرني به. اعترف بما لا يعترف به أي شاب، وهو أنه دخل إلى السجن إثر دعوى قضائية أقامها ضده أحد كهنة مرسيليا، المشرف العام على طلبة الثانوية: كنتُ في سنتي الدراسية الأخيرة، لما علمتُ أن الكاهن أليسا-كاري أبلغ الأساتذة عن لزوم إعطاء العلامات العالية في الدروس لمن يواظبون على واجباتهم الدينية. . . لم أحتمل هذا التصرف غير التربوي؛ دبجتُ مقالة ساخرة في إحدى الجرائد، وانتهيت من جرائها إلى السجن. . .

كان يرويها بمتعة، بل بشيء من التشاوف، كما لو أنه نجح في مبارزة بالسيف أو بالمسدس. اكتشف جوزف في تلك الأيام زيف المتسربلين بعباءاتهم السوداء، وجبنَ القضاة وضعفَ أهالي الطلاب أمام مدير الثانوية. اكتشفَ خصوصاً أن للكلمة سلاحاً فتاكاً: أتعرفين، يا عزيزتي، أن من يطلب المغامرة العاطفية في حياته، ومن

يطلب ارتقاء مناصب السياسة، عليه أن يتدرب على المبارزة؟ هذا ما حدَّثني به أحد أصحاب المراكز الرياضية الجديدة في مرسيليا، إذ توجه إليَّ قبل أيام داعياً إياي للانتساب إلى مركزه. وحين سألتُه عن السبب، أجاب: لكَ مستقبل أكيد في السياسة، ومع النساء، ولكَ أن تحتاط ممن قد يتهددونك ويدعونكَ إلى مبارزة... عليكَ أن تكون جاهزاً.

كان في كلامه تهورٌ وتبديد سريع لثقتي العاطفية المتنامية به؛ كان كمن يطيح بضربة سيف واحدة كل ما جمعَه وراكمه على مدى أكثر من سنة. سكتُّ حينها، فيما كان يتوسع في ضحكته، قبل أن راح يجمعها على عجل... سكتَ، وتنبَّهَ من دون شك إلى حماقته: هذا ما قاله مدير المركز، أما أنا فلا أطمح لا إلى هذا ولا إلى ذاك.

في الطريق إلى باريس، تعلمتُ منه ما تعني «الليبرالية»، إذ خرج من السجن وأمضى فيه ثمانية عشر شهراً، فكان السجن مدرسته التثقيفية الجديدة: منه تخرجتُ ليبرالياً وبونابرتياً.

يومها، لم يكن في مقدوري أن أروي له حياتي وسنواتي المديدة في الميتم. ما كان في إمكاني أن أقول له إننا كنا في «الثانوية» عينها، وإنني سمعت بأخبار الشغب التي أحدثها مع رفاقه في وجه رجل الدين.

لعلي سأعود من باريس إلى مرسيليا بهوية جديدة، كاملة، صحيحة.

لما خرجنا، كوليت وأنا، من الغرفة للتوجه إلى مدخل الفندق، وجدتُ جوزف ينتظرنا. اكتفيتُ فقط بالنظر المتوعِّد إلى كوليت. ولما استأذنَت في المطعم للذهاب إلى الحمام كنتُ أعلمُ علم اليقين

أنها لن تعود. والغريب أن جوزف لم يتفاجأ لغيابها، ما يعني توافقهما على الخديعة معاً. وحين تكلمتُ عن غيبتها الطويلة (مخافة أن يظن جوزف بأنني تآمرتُ بدوري معها)، اعترفَ بأنه طلب منها ذلك لكي يقوى على قولِ حديثٍ خصوصي معي.

لم أرضَ بشرب نقطة نبيذ واحدة. رضيتُ بنبيذ أبيض خفيف، خاص باحتفالات أعياد الميلاد؛ وكنتُ شربتُه أكثر من مرة في الفندق. لم يحدِّثني بأي حديث خصوصي؛ اكتفى باستعراض ما عاشه وما خبره في هذه المدينة التي لا يقوى على تركها: أتعرفين فيكتور هوغو؟ أتعرفين ألكسندر دوماس؟ ثم توقفَ عن تعداد الأسماء لما وجدني أُنكر معرفتي بكل اسم يذكره: إنهم أدباء شباب، مندفعون، تحرِّكُهم، مثلي، أفكار ومشروعات سامية. . . إنهم أصدقاء.

أخبرني أنه أقام في باريس لأكثر من سنة، لكنه لم يلبث أن عاد إلى مرسيليا. ثم توقف عن الكلام، وثبَّت نظره في عينيَّ، وسحب يدي اليسرى صوب يده اليمنى: أتعلمين أنني أقمتُ في مرسيليا أكثر مما كنت أحسب؟ أتعرفين أنهم عرضوا عليَّ رئاسة تحرير جريدة متميزة هنا في باريس؟ سكتَ مرة أخرى، من دون أن تفارق يده يدي، بل رفعَها صوب فمه، وقبَّل راحتها قبلة متمادية، من دون أن أسحبها منه. ثم استأنفَ القول: أخافُ خسارتكِ لو قبلتُ العرض. . .

لم أقوَ على رفض دعوته للرقص على الرغم من عدم معرفتي به، ومن إخباري له بذلك. إلا أنه أصرَّ، عدا أنني كنت أميل متراقصة بين يديه، فيما كنت جالسة قبالته. كانت صالة الرقص محاذية، وكانت تغص بالراقصين. أخبرني أنها رقصة «الفالس» التي تناسب العاشقين مثل محبي الحياة، وأنه يكفي نقل خطاي مثلما

يدعوني إلى ذلك. كنتُ أودُّ لو يدعني أضع قدميَّ فوق قدميه، فأراقصه من دون أي خطأ. كنت أودُّ لو أنه يضمني أكثر إلى صدره، بدل أن نكون بعيدين إلى هذا الحد. كان رشيقاً وأنيقاً في تنقلاته، وقد انتحينا زاوية من الصالة بحيث لا يتأخر عن التوقف ثم الاستعادة، وعن شرح إيقاع الخُطى. كنتُ أطير معه، غير مبالية بحفظ الدرس. جسدي يفلت مني، ويتبع اندفاعات أجهل منابعها. وما أن توقفَت الموسيقى معلنة نهاية الرقصة حتى شدَّني إلى صدره، واضعاً يديه بحنان على خديَّ: أحبكِ... أحبكِ...

عدنا إلى طاولتنا، فوجدنا كوليت تَظهر أخيراً، بينما كان جوزف لا يسمع، ولا هي، ما كنتُ أُتَمتِمُه بفرح عامر: وأنا أحبكَ... أنا أحبكَ.

كنتُ قد وعدتُ السيدة زبيدة بزيارة ثانية. زيارة لازمة، وقد سألتُ نفسي ما لم أسأله في الغالب: من يكون أبي؟ أهو والد مجهول إلى هذا الحد؟ ألا يمكن أن يكون انتقال أمي إلى مرسيليا مرتبطاً به؟ أكان يعيش في مرسيليا لكي تلحق به؟ ومن يكون الضابط ألفيران، الذي شهد على وفاة والدتي؟ أيكون الضابط الذي ورد ذكره في إحدى وثائق الجبرتي بوصفه أحد مساعدي الجنرال مينو؟ هذا ما فاتني طرحه في الزيارة الأولى. هذا ما انتهى إليه تفكيري بعد أن كنتُ أدون في دفتري ما كنت قد عرفته منها. هذا ما راجعتُه، ولا سيما في ترجماتي للشيخ الجبرتي. هذا ما صدر من قلبي: وماذا عن والدي؟ أيعرفني أم لا؟ أيعرفني لكنني لم أحتفظ بصورة عنه؟

هذه الأسئلة تلقَّتها السيدة زبيدة بصورة طبيعية. ما كانت تقوى على إخباره يتصل بالضابط المذكور. هو فعلاً معاون زوجها؛ أوكلَ

إليه الجنرال مهمة تعليم الفرنسية فوق السفينة المبحرة من الإسكندرية: كان يجلس وراء طاولة، وكنا نجلس أمامه مطيعتَين، متلهفتَين لما يقع وراء الأفق، ووراء الكلمات. كان ضابطاً بمنتهى الانضباطية واللياقة... لم يتأخر أيضاً عن تعليمنا أصول اللياقات في المجتمع الباريسي؛ ولما تقاعسَت أمك عن أداء هذه الحركات، بحجة أنها لا تخص خادمة مثلها، غضبَ: أستبقين خادمة في باريس؟! اللياقة تناسب الجميع، ونحن في زمن الثورة نقلب العادات...

ما كنتُ أعرف كيف لي أن أفاتح السيدة زبيدة بما خطر لي من دون أن أجرؤ على طرحه. كانت ترمقني بدورها لما رفعتُ نظري صوبها متساءلة من دون أن أنبس بأي كلمة. فكان أن قلتُ: أتابعتما دروس الفرنسية معه بعد وصولكم إلى باريس؟ لا، توقفَت الدروس، إذ تمَّ إلحاق الضابط بجهاز عسكري آخر، ولم يعُد في إمرة زوجها، لكنه كان يزورهم في دارتهما السابقة، عدا أنه كان يحتاج إلى مشورة الجنرال ودعمه في الترقية العسكرية التي كان يستحقها: حتى زوجي لم يسلم من الانتقادات القاسية بعد حلولنا في فرنسا، إذ ألحقوا به مسؤولية الهزيمة في مصر. كيف له أن ينتصر في معركة، وما كان عديد الجيش المتبقي يتعدى الألفين أو الثلاثة آلاف جندي، ومن دون إمدادات كافية!؟ لكن نابوليون سوَّى الأمور بعد وقت، وقلَّد زوجي أرفع النياشين، بما فيها نيشان «جوقة الشرف» الأسمى.

ما كان يعنيني هذا الحديث، فعدتُ بها إلى ألفيران؛ وسألتُها ما إذا لحقت اللعنة بالضابط أيضاً. فأنكرَت ذلك مشددة على أنه حصَّل بدوره ترقية عسكرية، أهَّلته لتسلم منصب عسكري في تولون. كنتُ أتحرق لطرح سؤال مزيد عن الضابط على السيدة الهادئة، لكنني لا

أنجح في طرحه. رحتُ أداور من جديد: أللضابط ألفيران صورة زيتية مثل زوجك؟ لا تعرف جواباً على هذا السؤال، لكنها أتبعَت بالقول: قد تكون هناك صورة بالمقابل لأمك، على ما أتذكر الآن. . .

كنتُ جاحظة العينين من دون شك، حين استعادَت السيدة زبيدة ما كان قد فاتها وصعد إلى سطح الماء بقدرة قادر: زارنا الضابط ألفيران، وسألني قبل أن يسأل أمك ما إذا كانت مستعدة للوقوف أمام مصور زيتي لتصويرها إلى جانب نابوليون. كان أحد المصورين - من لا أحفظ اسمه للأسف - قد سمع من زوجي أن نابوليون تعرَّف إلى سيدة مصرية في إحدى معاركه في مدينة ألمانية. . . وجدَها في كوخ وقد هربَت من هول المعركة ومن هطول الأمطار، الذي جعل نابوليون يوقف المعركة في انتظار جلاء الرؤية. . . هذه المصرية كانت ضائعة، هاربة، وكانت تحتاج إلى معونة، من دون أن تعرف أنه نابوليون. هذه الحكاية سمعَها المصور من زوجي، ووجدَها تصلح لتصوير لوحة مشهدية تُظهر حنو نابوليون على المصريين. . . هذا ما قاد المصور صوب زوجي. . . وهو ما قادهما إلى أمك. . .

أمي بدورها كانت ضائعة على الأرجح، وتائهة أيضاً، مثل هذه المصرية المحتمية في كوخ:

- أيعني هذا أن أمي التقت بنابوليون في مشغل المصور؟

- لا، يا ابنتي؛ هذا المصور يعرف أدق التفاصيل عن هيئة نابوليون. . . لا يحتاج إلى جلوسه في المشغل. . . هوَ مثل المصور دافيد وآخرين صوروا الإمبراطور في مئات اللوحات العريضة والصغيرة. . .

- وأمي؟ ما كان عليها أن تقوم به؟
- تكفَّل الضابط ألفيران، بعد إصرار زوجي، على مرافقتها إلى مشغل المصور لكي يتمَّ تصويرها...

لم تُحسن السيدة زبيدة إبداء أي رأي في كون الضابط ألفيران قد شهد على موت أمي. ولم تُحسن الجواب عن إيحائي بوجود علاقة بينهما، بحكم ذهابهما معاً إلى مشغل المصور أكثر من مرة: كنتُ ألحظ خجلاً يعلو وجنتَي أمكِ، لما قلتُ لها، إثر عودتها من إحدى الزيارات: ألن يقع المصور في غرامك، وهو يرسم تفاصيل جسمك الجميل؟ فإذا بالضابط يُسرع إلى القول: وماذا تقولين فيَّ، يا سيدة زبيدة؟

كان لي الوقتُ الكافي في العربة، في طريق العودة، لكي أدون وأستعيد ما بات يرتسم أمام ناظري قبل سطور الدفتر. كنتُ أكتب ما عرفتُ في باريس، فيما كانت كوليت تحدثني عن باريس نفسها.

بات لأمي صورة: أين هي؟ كيف أصل إليها؟ من يكون هذا المصور الذي لا أعرف اسماً له؟ من يكون والدي بالتالي؟ أهو المصور؟ أين هو؟ كيف اختفى؟ كيف لم يبحث عن ابنته؟

كنتُ أفكر في والدي المحتمل، وكانت كوليت تسألني عن زوجي المحتمل، أي جوزف: هل أغضبتِه فما عاد معنا إلى مرسيليا؟ كنتُ أفكر في أخيه بالأحرى، لويس في المكتبة العمومية، إذ قد يعرف في وثائقه المحفوظة ما يدلني على صورة أمي في تلك اللوحة الغامضة. كما قد يفيدني السيد جيراردون نفسه، حبيب السيدة جولي، عن المصور، فهو مصور وضابط. كيف يعقل أنه، أو رفاقه، لا يعرفون شيئاً عن وفاة والدتي؟ كيف سجلوا وفاتها من دون

أن يجدوا جثتها، ومن دون أن يعرفوا سبب قتلها، ومكانه؟ كيف يحدث أن ضابطاً، ألفيران، جعل من موتها أمراً رسمياً مسجلاً في الدوائر الرسمية؟ ما علاقته بموتها؟ أعرفَ قاتلها؟

السيد جيراردون وجد سلوكي طبيعياً، بل أبدى دهشته من كوني لم أسعَ إلى استفساره عن غياب أمي. فكان أن أعادت السيدة جولي سبب ذلك إلى صغر سني، وقلة خبرتي في الحياة والدوائر الرسمية. السيد جيراردون لا يعرف أجوبة على أسئلتي، لكنه يقوى على تتبعها، على التدقيق في شأنها. وهو ما وعدني بفعله معي، برفقتي، في دوائر الشرطة، بعد أن يكون قد أجرى تدقيقاً أولياً في من يكون قادراً على إجابتنا بعد انقضاء هذه السنوات.

هذا ما دعاني إليه بعد أكثر من أربعة أيام، فإذا به يقلُّني في عربة، لا إلى دوائر الشرطة، ولكن إلى جهة عليا من مرسيليا، غير بعيدة عن كنيسة السيدة على التلة. في شهادة وفاة أمي توقيع آخر غير توقيع الضابط ألفيران؛ إنه الضابط بيار بودري، الضابط المناوب في تلك الليلة المشؤومة. وهو من استقبلنا في حديقة داره لما وصلنا إليه. أخبره السيد جيراردون بسبب زيارتنا، بعد أن أتى معه بشهادة الوفاة، ووضعَها أمام أنظاره.

لم يتذكر الضابط المتقاعد أمي، لكنه تذكر ألفيران: كنتُ قد تعرفتُ إليه في تولون. . . احتجنا إلى معونته أكثر من مرة، إذ كان الخط الواصل بين تولون ومرسيليا نشطاً للغاية، ولا سيما للعسكريين، عدا أن الهاربين من العدالة كانوا يحتمون في تولون آملين بالتجنيد في عداد الحملات العسكرية التي كانت تنتقل بحراً منها. . .

مضى المتقاعد في تذكر حكايات وحكايات، لكنه روى، بين جملة ما روى، أن ألفيران حلَّ في مرسيليا أكثر من مرة: هذا ما

اعترفَ به في تحقيق خاص بأحد المجرمين المصريين في «ميدان غوفيه»، إذ حلَّت مجموعة عسكرية في الحي طالبة العثور على أحد المجرمين الفارين من العدالة، فإذا بها تقع على الضابط ألفيران في أحد هذه البيوت... لم يكن يومها في مهمة، لكنه كان في زيارة عائلية، على ما قال لي ليلتها.

توقف عندها الضابط المتقاعد فجأة عن الكلام، وإذا بعينيه تجحظان في صورة مفاجئة، فيما كان يروي وهو مغمض العينين في الغالب. استعاد جلسته، بعد أن كان أشبه بالمستلقي في كرسيه الطويلة. كان كمن يستعيد صوراً من مخابئها، فتكرُّ أمامه ويسعى إلى ترتيبها: كنتُ الضابط المناوب في تلك الليلة المأسوية من ليالي يونيو... كانت أخبار القتل تصلنا إلى المركز من دون أن نقوى على فعل شيء... كنتُ وحدي مع ثلاثة جنود فيما كان الجنرال فيردييه قد سحب مجمل القوات إلى تولون... فجأة، في ساعة متأخرة من الليل، ظهر الضابط ألفيران في صورة مرعبة لدرجة أنني لم أتعرف إليه للوهلة الأولى.

يستعيد الضابط المتقاعد جلسته، حتى بات أكيداً في صورة مزيدة، مما يتذكر، ومما يقول. ظهرَ كما لو أنه ذلك الضابط عينه قبل ما يزيد على عشر سنوات: لم يبقَ إلا لدقائق. خرج بعدَ أن تساءل عن مكان جمع جثث المتوفين، والجرحى... عاد بعد أقل من ساعة من مستشفى «أوتيل ديو»، وهو يحمل بين يديه كيساً مدمًّى؛ وما أن وصل أمام مكتبي، انهار بالبكاء: إنه رأس زوجتي... قطعوا رأسها عن جسمها... هذا ما بقي منها.

بات كل شيء يبتعد عني. كوليت وحسين قررا الإقامة في بيتٍ

معاً. جوزف في باريس منذ أن التقينا فيها. سيرة عائلتي باتت تبتعد عني هي الأخرى، وقد كوَّنتُها من جديد، بعد أن جمعتُ نبذات متقطعة منها. والدي بتٌّ شبه مؤكدة من هويته، من دون أن أعرف شيئاً عن الساعات الرهيبة التي فصلت بين إيقاف أمي لي على عتبة الفندق، وبين حَمل ألفيران رأسها المقطوع إلى مركز الشرطة. كيف طار رأسها عن جسدها؟ كيف عرف ألفيران بحالتها؟ أكان على موعد معها لما سارعَت إلى تركي؟ أكانت تبحث عن ثوانٍ معدودة للحاق به، لإنقاذ حياتها المهددة؟ كانت أكيدة، بل مطمئنة لوجودي في الفندق، وقد أتَت بي إليه أكثر من مرة.

لعلها لم ترَ صورتها في اللوحة، فيما رأيتُها لما نجح لويس في «المكتبة العمومية» في إيجادها مطبوعة في كتاب: هي ليست بلوحة، بل محفورة طباعية؛ يعود نشرها إلى العام 1806، فيما يكون قد صوَّرَها قبل ذلك؛ وقد صوَّرَها الفنان لويس لافيت. تَظهر فيها أمي بلباسها المصري، بجسمها المائل إلى الطول، والمتناسق، فيما يبدو على عينيها الهلع، من دون أن يُخفي جمالها الناعم. كانت تستنجد بنابوليون، فيما تمسك بيدها اليمنى ابنها في لباسه المصري... كان يمكن أن أكون بيدها، لا هذا الطفل؛ وكانت تستنجد بنابوليون قبل أن تصيبها «المجزرة». ها هي لوحة واحدة تجمعني بها وبه: صورة عائلية لابنة بونابرت المصرية.

اكتملَت الصورة في دفاتري؛ وما زاد في التشديد على ملامحها، أن حسين بدوره أكد لي أنه عرف بوجود أحد الضباط في حياة والدتي: رأيتُه ذات يوم نازلاً على الدرج، من دون أن أعرف هويته... هذا ما أوحَت به مارلين بدورها، من دون أن تجزم به، إذ كان يظهر ولا يلبث أن يختفي لأسابيع طويلة.

لويس لم يقوَ على مساعدتي أكثر حين طالبتُه بالتفتيش عن صورة ممكنة لألفيران، إذ لم يجد معلومة أو صورة مكملة، لكنه نصحني بالتفتيش عن صورته في باريس: أعرف أن المصورين الذين رافقوا حملة بونابرتِ إلى مصر أقدموا على تصوير الكثيرين، من أعيان مصر ومن كبار الضباط... ثم توقف قبل أن يستعيد الكلام: قد يفيدك جوزف في ذلك. سيكون بيننا بعد أقل من أسبوع.

«المقهى البحري» اعتاد على مجيئي اليومي من دون رفيق في الساعتين التاليتين على موعد الغداء، بعد أن أكون قد تركتُ عملي في الفندق في عهدة جوسلين، التي دربَها السيد ريمون على استقبال الزبائن بدلاً منه ومني. لم يكن لجوزف غير هذا العنوان للوصول إليَّ، لكنني عرفتُ بوصوله وبسؤاله عني لمّا قال لي النادل بابتسامته المعسولة التي اعتدتُ عليها: سألني عنك مسيو جوزف يوم أمس، وأخبرتُه أنك غيرت مواعيد زيارتك للمقهى.

فعلاً كان جوزف ينتظرني لما وصلتُ إلى المقهى. وقفَ لاستقبالي حتى إنه كاد أن يحملني، أن يقبِّلني لولا الحياء على وجهي الذي تداركتُه سريعاً بالجلوس في مقعدي. كنتُ قد جلبتُ معي حبة رمل، وكان في نيتي أن أضعها على كرسيه قبل وصوله، وأن أنتظر، بعد جلوسه عليها، ما إذا كان سيقف ليسوي جلسته من جديد. هذا ما أرشدَتني كوليت إليه، وهو - في نظرها، مع غيرها مثل أمها وكثيرات قبلها - دليل عن مدى تعلق الشاب بالصبية: لو بقي جالساً، فهذه علامة سيئة... لو وقف، واستعاد الجلوس من جديد، فهذه علامة مفيدة تدلُّ على مدى إصراره، على طلبِه المشدَّد للبقاء معكِ.

فعلاً، وقف جوزف وجلس من جديد، ما أضحكني في سري

من دون أن ينتبه إلى ذلك، إذ كان له الكثير مما يريد إخباري به، عن باريس، عن لقاءاته الأدبية، عن رئاسة التحرير التي تكلَّف بها، عن ذهابه إلى أكثر من مقهى ومكان لتذكر لقاءاتنا السعيدة... كان في ودّي إخباره - أخيراً - بقصتي المكتومة، والتي أقوى اليوم على بنائها، وربما على كتابتها، إلا أنه ما كان يتوقف عن الكلام. كان يسألني لا لانتظار جواب مني، وإنما لكي ينطلق في كلام مزيد، إضافي: أتعرفين؟ عملتُ في الأسابيع الأخيرة على وضع خطوط عريضة لرواية أطمع في كتابتها، وهي عن رحلة يقوم بها عالم آثار ألماني إلى أرض الفراعنة... أريد له أن يتتبع خط رحلة المؤرخ هيرودوتس في البحث عن منابع النيل...

يعدو وراء قصة متخيلة، وراء تاريخ مدفون تحت رمال قرون وقرون، فيما لا يتيح إمكان محادثته عن قصتي المأسوية التي تحتاج إلى كتابة ربما أكثر من روايته. فجأة توقف جوزف عن الكلام، ودعاني إلى مساعدته في الكتابة، ما دام أنني زرتُ مصر قبل أقل من سنة.

عمَّ يتحدث جوزف؟ أفي إمكاني مساعدته في الكتابة؟ أهو يسخر مني، أنا الركيكة في الكتابة، سواء في الفرنسية أو في العربية؟ كنتُ أنظر إليه من دون أن أحسن إيقافه؛ ثم أجابني: لا تستغربي ما أطلبه منك. أتعرفين اللعبة الإنكليزية في الفروسية المُسماة: (Steeplechase)؟ لم أُجب على ما سأله؛ كان أن تابع: في هذه اللعبة ينطُّ الفارس على جواده فوق حواجز مختلفة، على أن المسافة قصيرة بين حاجز وآخر... هذا التقليد نقلَه أحدهم في إنكلترا إلى الأدب، فيتعاونُ أكثر من أديب على كتابة عمل روائي واحد... هذا ما أحلمُ به. هذا ما أقترحُه عليكِ.

لم يكن جوزف يدعني أتكلم، لكنه كان يحادثني من دون أن يعلم. لم يكن قد انتبهَ أساساً إلى المحفظة الجلدية برفقتي، وعلى غير عادتي. فيها وضعتُ دفاتري التي كتبتُ، مع بعض الأوراق المتناثرة، كما وضعتُ معها دفاتر أنطونيو والسيدة جولي التي استنسختُها... وضعتُها وراء بعضها البعض مثل الجياد التي تحدَّث عنها، على أنني أحلم بأن أوكلها لفارس واحد يحسن قيادتها، وهو جوزف نفسه.

لعله يكتب أكثر مما يعيش؛ كدتُ أن أتلو على مسامعه جملة وقعتُ عليها في كتاب في «المكتبة العمومية»: «أن تكتب فهذا يعني أنك تلهو فيما تظن أنك مشغول، لهذا تضجرني الكتابة؛ فيما أكتبُ عما فعلتُ، أحزن لإنني لن أكون حينها أستمر في عمل فعلٍ مزيد».

سأُودِعُ «دفاتري» بين يديه، بتصرفه، ذلك أن ما كتبتُ لا يصلح بركاكته لأن يكون أدباً، فيما هو قادر على ذلك، بأدبه المتقن والرفيع من دون شك. لعله في ذلك يتعرف إلى هويتي الحقيقية، بعد أن نجح السيد جيراردون في إعداد بطاقة هوية لي تحمل اسم أمي: آمنة، واسم والدي: ألفيران. فأنا لست مجهولة الأب، ولست يتيمة. لعله - لو ساعدني - يقيم لهما بيتاً غير اللحظات المسروقة من أعين الجيران؛ بيتاً يضمني أخيراً معهما، ومعه لو شاء.

استدراك

عزيزي، أنتهي، هنا، إلى الاعتراف بأن ما يقع تحت نظركَ لم أقترفه؛ وإذ أدفعه إلى النشر فلم يكن مقصودي منه التجني على أحد. ففي واقع الأمر، أنا لم أكتب، وإنما ترجمتُ وحسب ما عثرتُ عليه - بالصدفة - تحت الأرضية الخشبية للغرفة 213 في «فندق القديس بطرس وروما»، في مرسيليا: عثرتُ عليه ليلاً في الأيام الأولى من شهر سبتمبر من سنة 2015، بعد أن تداعَت تحت قدمي اليمنى خشبة، بل انكسر شيء منها، وإذا بي أجد تحتها حقيبة جلدية صغيرة، فيها مجموعة «دفاتر»، ولها عنوان واحد: «حكاية نور». لم أصرِّح، في صبيحة اليوم التالي، للعاملة في تنظيف الغرف، بما عثرتُ عليه، ولا أعلنتُ عنه لدى جمارك «مطار مرسيليا-بروفانس» عند المغادرة.

قد تكون ملكية هذه «الدفاتر»، عزيزي، تعود إلى نور المنصوري، المصرية، وقد عاشَت - على ما قرأتُ - في هذا الفندق، الذي يحتفظ بالاسم عينه حتى اليوم. وقد تكون كتابة «الدفاتر» تعود إلى جوزف ميري، وهو - على ما تحققتُ في «غوغل» - من الأدباء الرومانسيين الفرنسيين في ذلك الوقت، والمجهول حالياً إلا في مكتبة «غاليكا» الإلكترونية. إلا أنني أحسبُ أن ميري استعاد كتابة «الدفاتر»، فضبطَها وحسَّنَ أسلوبها، وربما أضاف إليها، بعد أن

عاد إلى عدة «دفاتر» مكتوبة من غيره: من السيدة جولي بيزوني، من مسيو أنطونيو دو باسكالينو، ومن نور نفسها.

لهذا، إن لاحظتَ، عزيزي، أي تشابه بين الوقائع المدرجة في ما سبق وبين غيرها، مما يَرِد في كتب معروفة أو منسية، أو بين أسماء أشخاص أو أمكنة أو شوارع مثبتة في الخرائط أو فوق الألسنة، فهذا ليس شبهاً، ولم يَرِد بمحض الصدفة. كما وجب أن أقول إنني أمضيتُ وقتاً غير بسيط في قراءة هذه «الدفاتر»، إذ كانت مخطوطة، وتعود إلى خطٍّ واحد، على ما أمكنتني الملاحظة. كما قمتُ بنفسي بالتأكد من بعض الوقائع؛ وسمحتُ لنفسي أحياناً بصياغتها من جديد.

عزيزي، هذا ما أُودِعَ ربما في الفندق في العام 1825، سنة كتابة «الدفتر» الأخير فيها، من دون أن أعلم سبب إخفاء «الدفاتر»، أو حفظها، طوال هذه السنوات من دون أن يتفقدَها أحد أو يعثر عليها. إلا أن لكَ أن تفهم الآن - وهذا سببُ اعترافي - أن ما اكتشفتُ، أو سرقتُ، أو نسختُ، قد استهواني، ووصلَ إليَّ مثل رسالة مخفية في زجاجة وقعَت من سفينة بين شواطئ مرسيليا وشواطئ بيروت، حيث أقيم. كما لكَ أن تعرف أيضاً أنني عدتُ إلى مرسيليا والقاهرة، وقابلتُ كثيرين من أمثال: هيلانة، وبيار، وغبريال، وسامر، ونايلة، ودورين، وإلياس، وسيمون، ومهدي، ونيفين، وفاطمة، وفاتن، وغوغل، من دون أن يعلموا مقاصدي من وراء هذا كله، فيما عرفَت ذلك هالة وحدها؛ لهم - مجهولين ومعروفين - الشكر، إذ أعانوني في إيصال الرسالة المؤجلة منذ ما يزيد على مئة وتسعين سنة.

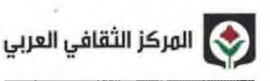
بيروت، 15 مايو 2016

شربل داغر

ابنة بونابرت المصرية

«لم يبقَ غير أن أعدَّ لرحلتي إلى مصر، برفقة حسين بالطبع. اتُّخذَ القرار كما في اجتماع رسمي: ريمون، كوليت، حسين وأنا.

اتَّخذوا القرار بعد أن وجد كل واحد منهم أن ما ساعدوني به لا يكفي لجلاء سيرتي. كانوا متضايقين لأنهم عرفوا أمي من دون أن يمكِّنوني من معرفة من كانت: أين اختفت؟ هل قُتلت؟ هل عادت إلى القاهرة من دوني؟ لماذا حلَّتْ في مرسيليا، هي المصرية الأمّية، من دون زوج؟ كيف يحدث أن كوليت التي التقت بها وعملت معها، في مطبخ الفندق، لا تُحسن الجواب الشافي عن أسئلتي؟ كيف يحدث أن حسين، الذي هاجر معها من القاهرة، لا يتذكر أنه التقى بها فوق فرقاطة «بالاس»؟ كيف يحدث أنه التقاها عند جارتنا مارلين من دون أن يعرف هوية زوجها، أو عشيقها، والدي؟».



المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com



ISBN 978-9953-68-822-0

لوحة الغلاف للفنان لوي لافيت